دائرة الثقافة والإعلام . الشارقة
إبداعات عربية



رواية

زمن يغتال موجة

مريانا سواس

زمن يغتال موجة

روايـــــة



مريانا سواس

زمن يغتال موجة

رواية

إصدارات دائرة الثقافة والإعلام، حكومة الشارقة 2014 م

الناشر: دائرة الثقافة والإعلام ـ حكومة الشارقة ـ دولة الإمارات العربية المتحدة
هاتف: 5123333 9716+
برّاق: 5123303 9716+
بريد إليكتروني: sdci@sdci.gov.ae

الطبعة الأولى 2014
تصميم الغلاف: ضياءالدين الدوش

813.0309565
م س . ز
ماريانا سراس
زمن يغتال موجه : روايه / ماريانا سراس . ـ الشارقة : دائرة الثقافة والاعلام ، 2014
338 ص ؛21 سم
سلسلة ابداع عربي
1ـ القصص العربية ـ سوريا
أـالعنوان
ISBN 978-9948-20-805-1

إهداء

إلـــى كل امرأة وقفت باستسـلام على رمـال التضحية تنتظر أن تتهاوى بصمت..!

وإلى بحر الأماني الذي تسـمّرت عند حدود شواطئه وهي تخشى التوغل فيه..

إلى كل الأحلام المنسـية.. التي أبحرت على مراكب الحسـرة في بحار العمر..

إلى حبي الأول.. إلى مدينتي حلب.. مع كل الانتماء.

مريانا..



تك... تاك... تك... تاك

كان صــدى الزمن صارخاً في نفســها.... فقد أخـذ يخلق ضجيجاً وصخباً مؤلماً رغم كل الهدوء والصمت من حولها..!

تك.. تاك... تك... تاك..!!

حَمْلَقَتْ طويلاً في الســاعة المعلقة على الحائط أمامها، فانعكســت ظلال وجهها على الزجاج البارد الذي أحست أنه يفصلها عن الزمن.

ارتعشت للحظة... خافت وتساءلت: من هذه..؟؟ لم تعرف نفسها أو لعلها نسيتها يوم نسيها الزمن..!!

وحيـن أرادت أن تتحـدى الزمـن وأن تواجهـه.... صعقتهـا الحقيقة....!!

وتساءلت..: أيمكن أن تكون هذه أنا..؟؟

حدقت في رقَّاص الســاعة بدهشة وكأنها تراه للمرة الأولى بعد أن اســتفزها إيقاعــه المتواتر الذي منعها من الهــروب من بوابة الذاكرة، هالها ما اكتشفت.. وراحت تتساءل:

أليس من المفجع أن ندرك أن عمرنا معلق بِتَرَنُّحِ رقَّاص ساعة؟؟

أليس من الســخرية أن نعي أنه كان يرقص على لحن أَوْحَد إيقاعه ليس إلا خطوات سنيننا الماضية بعيداً عنا؟؟

وأن خيباتنــا وأفراحنا وكل انتصاراتنــا وهزائمنا كانت تتواتر مع إيقاعه البطيء ظاهراً.. السريع باطناً بِعَدْوِه بأيامنا بعيداً عنا وفي غفلة منا!!

تك.. تك.. تك.. تاك

صــوت آخر.. اســتفزاز آخر يشــدها كالمغناطيس إلــى جنون كاد يقودهــا لتحطيم الســاعة أو لاقتلاع ذاك الرقّاص الذي أحســت وكأنه يهزأ باكتشافها المتأخر.

مــدت يدها لاقتلاعــه.. لإيقاف الزمن الراقــص بمجون فوق جثث أيامها وسنينها.

توقفــت فجأة.. أدركــت أن الزمن لن يحفل بهــا وأن حفلة رقصته الماجنة ستبقى، ووحده من يحاول أن يوقف إيقاع الزمن.. سيحكم على نفسه بالموت..!

تراجعت إلى الوراء مكســوّة بخيبة الحقيقة.. واعترفت لذاتها: نعم

أنـــا أضعف من الزمـــن.. ذاك العملاق النَّهِم الذي يتلـــذذ بالتهام قامتي العمرية..!

تفحصت الســـاعة من جديد وكأنها تكتشفها للمرة الأولى.. أم تراها كانت تكتشف نفسها..؟؟

راحت تحدق فـــي الأرقام.. وتراءى لها أن على انحناءات كل رقم كانت تنام أحلامها.

لا شـــيء أمام عينيها الآن ســـوى أرقام تلمع بصفرة مدهشـــة تنقلها بســـرعة وتتالٍ إلى أعتاب الذاكرة وممراتها.. أخذت تتعثر بمنعطفات الخيبـــة، وراح يصيبها الدوار من التحليـــق خلف الوهم الذي لحقت به سنينَ طويلة.

تك.. تاك.. تك.. تاك

ســـرت قشعريرة في جســـدها.. أرادت أن تدير ظهرها وأن تهرب بعيداً...

ولكنها بقيت مسـمّرة في مكانها، تخيلت نفســـها فجأة مصلوبة على عقارب الساعة.. ســـجينة تنتظر الفرار.. وأصوات الساعة سياط تجلد ذاكرتهـــا بقســـوة.. والرقاص يواصل رقصته.. غيـــر آبهٍ بها، المهم أن يستمر هو في تَرَنُّحِه.. وأن تستمر هي في تحسرها..!!!!

تك.. تاك.. تك.. تاك

تساءلت: ترى هل كانت تريد أن تدفن الذاكرة في مقبرة الأيام حتى تنعم هي في الحياة......!؟

أم أنها كانت تقنع نفسها بأنها تعيش حالة ولادة من رحم تعاستها..؟
تـرى هل عليها أن تقدس حبل الخلاص الـذي قطعته بعد انعتاقها من ذاك الرحم؟

كثيراً ما شـعرت بأنهـا جثة حية تتعفن بسـبب وجودها في ثلاجة الحيـاة التي ضمتها طـوال ارتباطها بذاك الزمن الذي تفنن في التمثيل بجثتها المعنوية..

وأكثر ما كان يثير استغرابها هو حوارها مع كل من حولها وأحاديثها الرتيبة، وتساءلت..: كيف تستطيع الجثة أن تحاور الأحياء..؟؟؟!!!!

وابتسمت بمرارة حين تذكرت كيف استطاعت أن تبتكر لمن حولها خديعة كونها حية ترزق رغم موتها المعنوي.. بل وكم كانت ماهرة في التنكـر في مهرجان عذابها وفي احتفـال أفراح من تجوّل في معرض آلامها..!

ترى هل كانت تحيا حتفها..؟؟؟

وهل أروع الحياة هي تلك التي لم ولن نعيشها أبداً..؟!

ربمـا لأجل ذلك قررت فجأة أن تلقـي بتفاصيل حياتها، وبالأصح موتهـا علـى الورق، علهـا تَهِـبُ لموتها اسـماً جديداً يدعـى (الحياة أو الوجـود) بعـد أن كانت حياتهـا بمثابة موت أو عـدم وجود. ولعل قصاصـات الورق تكون قادرة على لملمة أشـلائها لتعيد تكوينها على نحو مغاير بعد أن تتعرى أمام مرآة تشوّهاتها..!

ترى هل سـيتحول قلمها إلى رصاصـة تقتلها أم إلى مبضع يجتث من ذاكرتها ورم الخيبة..؟

هل سـيكون الحبر مَصْلَ الذاكرة..؟ هل سيكون الورق شهادة وفاة أو ورقة نعي يقرؤها الجميع، وحينها فقط ستقرأ هي وحدها تفاصيل ولادتها من جديد..؟

فكـرت.. ما أقسـى اللحظة التي نعي فيها أن مأسـاتنا الحقيقية تبدأ عندما يشغل حجم خسارتنا حيزاً أكبر بعد إدراكنا ووعينا لها..!

تـرى كم يلزمها من الحكمة كي تدرك بأنها تعيش حياة معكوسـة؟ موت ومن ثم حياة.. يا للسخرية..!

تمنـت للحظة لـو أن حياتها اختُزِلَت كلها لتسـبح في كرة زجاجية تمسك بها كالطفلة وتُشَقْلِبُها بالمقلوب، أو كساعة رملية تقلبها بمحاولة يائسة منها لتستعيد مرور رمل الزمن.

فكّـرت.. موجعة هي اللحظة التي تصفع المتسـابق حين يعتقد أنه وصل إلى خط النهاية ليكتشف أنه واقف عند خط البداية..! وتساءلت: هل ستغفر لنفسها تلك النهاية؟

تك تك.. تك تك أخذت ترقص مترنحة كالرقاص..

تك تك كانت تمارس الحزن والذكرى معاً.. رقصاً..

تساءلت وهي تتقدم باتجاه الساعة بذهول:

هل تفقد ذاكرتنا الحياة حين نستعيد حياتنا من الذاكرة..؟!

اقتربت أكثر من الساعة تتأمل الزمن المرسوم على وجهها فباغتها الزجاج الموصد أمامها وفتح لها باباً للذكريات.....................

(1)

أين هو.. ؟؟ ترى أين وضعته.. ؟

راحــت تقلّــب بين كومــة الأوراق المتناثــرة علــى الطاولة التي أمامهــا.. وأخذت تبحث بعصبيّــة عن دفتر اللغة الفرنســية بين كومة الأوراق المتناثرة على منضدتها الدائرية.

إنها (يمان) التي اســتيقظت على غير عادتها نشــيطة فرحة... فقد أتمت اليوم عامها الثامن عشر.

أســرعت ترتدي ثوبها الأبيض وقد أقســمت مــن يومها أن ترتدي الثيــاب البيضــاء في كل ذكــرى لمولدها؛ فاللون الأبيض بالنســبة لها دعــوة من نــور.. أو حالة ملاذ وانتماء.. والثياب البيضاء مســاحة من ضياء تســتطيع أن تتلمســها من غيــر أن تنســاب أو أن تفلت من بين

أصابعهـــا، بل وتمكّنها من الإمســاك بهــا كي ترتديها لتحتلّ جســدها المسكون بالطهر.. فهي تعشق النور وتكره العتمة، تتلمّس الضياء في كل شيء من حولها.

حديثة النشوء هي في عالم الكبار.. عالمها لم يعرف بعد الأسماء.. أو تلك المسمّيات التي ستصبح فيما بعد عناوين لرحلة العمر.

مشّطت شــعرها الطويل وعقصته على شكل ذيل حصان وراحت تتأمل خصرها الناحل ورشــاقة قوامها وملامحها المرســومة بريشــة الخالــق بكل دقــة وعناية وحب، حتــى جاءت ملامحهــا ملوّنة بتعبير مريــح دافئ بعيدٍ عن برودة القســوة المنفرة.. بــل وكأن الله أودع فيها صفاء الطفولة البريئة المحببة.

تأملت نفســها من جديد ودارت أمام المرآة.. نصف دورة مرة نحو اليمين وأخرى نحو الشمال واضعة يديها حول خصرها، هزت رأسها بالموافقــة على مظهرها ثم ابتعدت بعد أن شــعرت بالرضى والحبور وبلذة أن تكون جميلة.

ارتدت على عجل حذاءها وأمسكت بحقيبة يدها بيد، وباليد الأخرى أمسكت بمجموعة أوراق وكتب ودفاتر اللغة الفرنسية.

نظرت إلى ساعتها وقالت في سرها:

– لا.. لقد تأخرت كعادتي... وستغضب مني الراهبة!

انطلقت مسرعة.. بكل حيويّة الشباب النابض في عروقها...

مشــت بخطاها الســريعة إلى دير السيدة مريم؛ حيث تتلقى علومها

في اللغة الفرنسية على يد راهبة مسنّـة هناك، والذي يبعد مسافة قريبة عن منزلها الكائن في أحد أرقى شوارع المدينة.

بدا الهدوء والجلال مخيماً على مبنى الدير.. وهو بحجارته البيضاء البهية يبدو وكأنه قلعة حصينة ذات تاريخ وعراقة.

وَلَجَت (يمان) مسـرعة إلى بوابتـه الخارجية، وهي بوابة حديدية سـوداء تتعالى بشـموخ وكأنّـها (قس) مارد يفرض كلّ أنواع القدسيّـة والاحترام على كل من حوله.. رغماً عنهم..!!

أخـذت – رغم خطاها السـريعة – تتأمل بحبّ جارف كل الزهور المزروعة في الأحواض المنتشرة في ساحات الدير.

يا الله ما أجملها.. آه، ما أطيب رائحة الياسمين!! قالت في نفسها.

لـم تسـتطع أن تمنع نفسـها مـن أن تتوقف لتقطف نجمـات لوّنت بالبياض المنثور شُجيرة خضراء قد تسلّقت جوانب الدَّرَجِ المؤدي إلى باب الدير الرئيسي.

بعد أن أخذها عَبَقُ الياسمين للحظات إلى حالة الانعتاق مما حولها تذكّـرَت فجأة درسـها، فدخلت مسـرعة إلى بَهْوِ الدير... ولكن خطاها السـريعة لم تستطع أن تتجاوز حسّـها الفني بالجمال والإبداع، فأخذت تتأمل ذلك السقف العالي للبهو ذي الأقواس المنحنية والمتداخلة وكأنها أذرع حانية تحيط بالوافدين إلى الدير فتمنحهم الأمان والاطمئنان...

لفّـت برودة عذبة وجهها الطفولي الملامح، فشـعرت بالانتعاش... ألقت بعدها التحيّـة ببشاشة على موظفة الاستقبال قائلة:

– صباح الخير آنسة (لينة)، كيف حالك.. ؟

ـ صباح النور... بخير، شكراً.

هَرْوَلَتْ مسـرعة على الدرجات اللولبيّـة المؤدية إلى غرفة الدرس الواقعة في الطابق الأرضي من الدير.

وَثَبَتْ وثباً على تلك الدرجات وشَـعرُها أخذ يتأرجح يَـمنة ويسَرة مع كل درجة هبطتها، فبدت أكثر جمالاً وصِباً وحلاوة.

خطواتها الراقصة ذات الإيقاع المرح.. مثل إيقاع نهر الحياة الذي يجـري في عروقها.. أضفت روحاً على ذاك الرواق الغارق بالصمت المـؤدي إلى قاعة الدرس، ولكنه كان مثقلاً بالوقار والهيبة، مما أجبر إحسـاس (يمان) المرهف على أن تختـار لخطواتها إيقاعاً أقلّ حرارة وصخباً.

عندمـا وصلت وقفت بـكل احترام أمام باب الغرفة وحسّـنت من هندامهـا، وأعادت بعـض الخصلات المتمرّدة من شـعرها إلى وراء أذنها.

اسـتجمعت قواهـا ثم طرقـت الباب بقبضـة يدها طرقـات خافتة خجولـة، قامت بعدها بفتـح الباب بتردد واضح، ثـم وقفت عند العتبة تنتظر الإذن بالدخول.

ـ آه (يمان)... دائماً متأخرة...!

قالت الراهبة بعتاب ممزوج بتأنيب خفيٍّ بعد أن قامت بإشـارة من يدها الهَرِمَة لتأذن لها بالدخول.

ـ آسفة.

أجابـت (يمان) وهي تضـع كُتُبَهَـا ودفاترها على البيانو الأسـود العريق، الذي عكس على سطحه خطوطاً تدلّ على عراقة عمره تشبه تلك الخطوط التي على وجه ويدي تلك الراهبة التي رافقته زمناً وكأنّ تلك الخطوط أسطراً لمعاهدة سرّيّة نشأت زمناً طويلاً بينهما، فقد كانت الراهبة عازفة ماهرة إلى جانب لغتها الفرنسيّة المبهرة.

بدت الغرفة وَقُورةً مثل وقار من تقطنها، ومسحة من صمت كانت تسـكن جدرانها التي احتضنت صـورة لبيتهوفن، ذاك العبقريّ المبدع الذي عايش الصمت من حوله قهراً فحوّله إلى أروع حوار تتناجى معه الـروح ذاك الأصـم الذي وجد العالم من حوله صامتاً فقرر أن يُسْـمِعَ الآخرين حديث الروح بموسيقاه الخالدة.

ابتدرت الراهبة قائلة:

– تبدين جميلة هذا الصباح.

– آه، حقاً؟! اليوم هو عيد مولدي وقد بلغت الثامنة عشرة.

– الثامنة عشرة!! هذا يوم مهم يا عزيزتي وعليك الانتباه والتخطيط لكل ما هو قادم.

– سأحاول.. أجابت بسرعة وبسعادة.

فأجابتهـا الراهبة بعـد أن رمقتها بنظرة من عينيهـا التي اختزنت خبرة السنين السبعين التي تحملها:

– لا تكفي المحاولة..إنّه عمرك القادم فلا تستهيني به!!

– لم أفهم!!!

وضعت الراهبة يدها بكل حنان على كتف (يمان) وأجابتها:

– أتمنـــى أن يأتي يوم وتفهمي جيداً ما أعنيه من دون أن تكوني قد دفعت ثمناً باهظاً لفهمك.

– آه. راهبتـــي الحلوة.. دعيني الآن أفرح وأســتمتع.. ماذا ســنأخذ اليوم؟ هل ســتصحّحين لي الوظيفــة؟؟ في الحقيقة مازلت أجد صعوبة في فهمي للغة الفرنســية، فهلاّ ســامحتيني على بعض الأخطاء كهديّة في عيد ميلادي. اتفقنا؟؟

هزّت الراهبة رأسها موافقة وهي تبتسم لذاك الاندفاع الشبابيّ الذي أخذ ينبض من جوارح تلك الشابة.

– حســناً (يمان).. ولكن عليَّ أن أعتذر منك لعشــر دقائق فاشغلي نفسك بشيء ما ريثما أعود.

– حسناً.. خذي وقتك.

تجوّلــت (يمان) في أرجاء الغرفة، وراحت تتأمّل كلّ ما فيها وهي تتنفس ذلك الهواء الخاص الذي سكن الغرفة، كانت فيه رائحة الزمن.. زمــن التصاق تلك الراهبة الهرمة بجدران تلك الغرفة حتى انتشــرت رائحة الانتماء والألفة بين ذراته.

اقتربت من النافذة تتأمّل مســاحة النور والجمــال التي كانت تتألّق بها حديقة الدير، وأخذت ترقب بحبّ عصفوراً صغيراً راح ينقر على الإفريز، تأملته قليلاً ثم أشاحت بوجهها بعيداً عنه بعد أن شدّتها رغبتها جريئة لتجرّب العزف على البيانو..

اقتربت مترددة.. ومدت يديها لتلامس أصابع المعزف.

بـدأت أصابعها النحيلـة تنتقل بِتَعَثُّـرٍ واضحٍ على أصابـع البيانو البيضاء والسـوداء، وهي لا تدري أن الحياة أيضاً تشبه إلى حدّ بعيد تلك الأصابـع، فهي تتأرجح بين الأبيض والأسود، وأن اللون الرماديّ فـي الأصـل لا وجود لـه فيها، بل هو مسـاحة واهمـة ابتدعها الناس ليخفوا فيها انهزامهم أو ليدفنوا جبنهم في مواجهة ذاتهم.. فابتلعت تلك المسـاحة حقائقهم بلا رحمة تماماً مثل الرمال المتحركة، وأنّ جهلهم بفنون التنقل بين الأسـود والأبيض سـينتج عنه ضجيج هو ضجيج الخسارة..!!!

دخلت الراهبة وهي تبتسم قائلة:

ـ ما هذا؟؟ ما هذا؟؟؟ لا..... الأفضل لك أن تعودي للغة الفرنسيّة؛ حيث سأسـامحك على أخطائك... أما أخطاؤك هنا فلا مجال للسـكوت عليها.

ضحكت (يمان) قائلة:

ـ أعلم ذلك، فأنا لا أفقه شيئاً في الموسيقى.

(2)

– آلو... مَن.. ؟ آه هذه أنت (ألما).. كيف حالك؟

– بخير.. أحببت أن أقول لك كلّ عام وأنت بخير.

– شـكراً.. شـكراً يا عزيزتي، لقـد تذكّرت عيد مولـدي. كم أنت لطيفة!

– ما رأيك أن أدعوَك بهذه المناسبة إلى كأس من البوظة الشهيّة؟

– إذن تريديـن أن نذهـب لنحتفـل معاً؟؟ فكرة رائعة سأسـأل أمي وأعاود الاتصال بك. ما رأيك؟؟

– حسناً لا تتأخري أنا بانتظار ردك.. إلى اللقاء.

– إلى اللقاء.

توجهت (يمان) إلى غرفة والدتها وأخذت تنادي بسعادة وهي تَثِبُ على الأرض مَرَحاً.

– ماما.. ماما.. أريد أن أذهب مع صديقتي (ألما).. قالت وهي تلهث من انفعال من يشعر بأنّه قد حصل للتو على جائزة قيّمة.

– إلى أين؟ قالت أمّها.

– نريد أن نحتفل بذكرى مولدي معاً.

– لا.. لا يمكنك، عليك أن تحتفلي به هنا معي، وليس مع صديقتك.

– ولكن أنا سأذهب لمجرد ساعة وعندما سأعود نحتفل به معاً يا أمي الحبيبة.. ما رأيك؟

قالت كلماتها بدلع وغنج وهي تطوق بيديها عنق أمّها وهي واثقة بأن أمّها ستخضع لمشيئتها، وكيف لا واليوم هو عيد ميلادها؟!

إلا أنّ أمّها بادرتها بإجابة صارمة بعد أن أزاحت عن كتفها يدي ابنتها وقالت بحزم:

– لا.. قلت.. لا.

– ولكن يا أمّي.. ؟

رمقتها والدتها بنظرة جامدة.. وأنهت النقاش بأن أدارت ظهرها وراحت تدخّن سيجارة بعصبيّة واضحة، كانت بالنسبة لـ(يمان) بمثابة إشارة واضحة بالانصراف! فانصرفت وهي تجرّ وراءها فرحة مَوْءودة وخيبة حاضرة.

شـعرت (يمان) بالإحباط.. والحزن.. وجـرّت قدميها ببطء وتثاقل نحو غرفتها وهي تتساءل:

لمَ تعاملها أمّها هكذا دائماً؟؟

لمَ تحاول دائماً فرض سيطرتها وعدم فهمها وقسوتها عليها؟؟

لمَ تعاملها هي بالذّات هكذا ولا تعامل باقي إخوتها بمثل ما تعاملها به؟

جالت عيناها الحزينتان في الغرفة وأطرقت مليّاً بعد أن أثقلها ذاك الإحباط غير المنتظر، في يوم اعتقدت أنه سيكون مميزاً!

جلسـتْ تتأمّل بحزن صندوقها الموسيقيّ الذي أهـداه إليها والدها حين بلغت العاشرة.. كانت تحبّه كثيراً.. وقد وقف عليه تمثال لراقصة باليه ترتدي ثوباً زهريّ اللون حالِماً مثل أيام تودّ أن تحياها.

أدارت بـلا مبالاة زرّه اللولبيّ الحركة وبدأت تستمع للموسيقى الحالمة التي صدرت منه، وهي ترقب راقصة الباليه وقد أخذت تدور.. وتـدور.. وتـدور.. تأمّلتها طويـلاً بعينين متسـعتين.. دون أن تراها. وأخذت تحدّق في الفراغ.. الفراغ..الفراغ..!

انكمشـت بعدها على ذاتها.. فوق سـريرها، وأخذ جسـمها يشـكلّ وضعيّـة الجنيـن فـي رحم أمّه، التصقت بشـدّة بسـريرها تنشـد دفئاً واهماً..

أحسّت ببرودة على وجنتها من جرّاء دمعة حارقة هطلت من دون إرادة منها فاكتست برودة مكتسبة من موقف الأم وأنانيتها..

هتفت فجأة: بابا... بابا... أين أنت؟؟؟

لمَ تركتني ورحلت باكراً.. لم قلت للحياة وداعاً.. ؟؟

من دون أن تدري أمسكت بالقلم وراحت تخط على ورقة أمامها اسم أبيها الراحل.. (أياس) وكتبت بمفردات عفوية شجية:

لم ندرِ...

أنّه من أحرف (اليأس) كان

(أياس)...

يا سماء قمرنا وليل هوانا

لمَ حزمتَ حقائب الرحيل باكراً

وأمعنت هكذا

في الوداع إمعاناً.. ؟؟!

كيف تركتَ حدائق العمر

وقد صارت زهراً

يبهج الأرض والإنسان؟!

(أياس)...

يا ليلنا الراحل...

وحلمنا المهاجر...

يا رعشة القلب.. وألم الزمن

(أياس)...

يا دمعة العين... يا أبانا

أنا بعدك

لا مكان في الحياة لي..... لا مكان...

ترك القلم أصابعها مُشـفقاً بعد أن استسلمت لبكاء أليم..استدعى من إشـفاقه عليها سـلطان النوم ليحتضن مسـاءها الحزين، فنامت بعد أن لوّنت وسادتها بلون الدمع.

(3)

بدت الطريق المؤدّية إلى منزلها جميلة وشـاعريّة بالشّـكل الكافي لتوقظ مشـاعر تلك الصبيّة التي تتسـم روحها بشفافيّة مفرطة، تجعلها تشـعر بالانتماء لكلّ ما هو معبّر وجميـل.. لا، بل إنّها تحسّ بالانتماء لـلأرض والطبيعـة والسـماء والمطر، كانت من فـرط حبّها للأرض تتمنى لو أنّها تسـتطيع الالتصاق بها كما الأشجار.. فهي بقناعتها تجد رابطاً مدهشـاً بين المرأة والأشجار، أو بينها هي على الأقل وبين تلك الأشجار، بل كثيراً ما تساءلت في سرّها:

ترى أتسكنني الأشجار أم أسكنها؟؟

أخذت عيناها تتأمل تلك التدرجات اللونيّة للون الأخضر في أوراق الشجر، واندماجه بصفرة كشحوب الموت للأوراق المترامية باستسلام على أرض إسفلتية، التي تلقت الأوراق بقسوة بعد أن غادرت احتضان

وحنان أغصان الشجرة الأم. كان أكثر ما يبهرها هي تلك الحمرة التي تتسلّل خلسة في عروق الأوراق وكأنّها نزف لفصل عرف الحبّ فجرّحه الزمن بموعد الرحيل.

عاشقة دائمة (يمان) لإشراقة الحزن الساكن في الخريف.. لعلّها كانت تشبه دون أن تدري إشراقة الحزن الخافتة في عينيها.. ولعل الخريف كان بحدّ ذاته بمثابة دعوة لها من الطبيعة لتزداد تَمَعُّناً وتأملاً.. وراحت تتأمل تلك الأغصان المندفعة بشوق للأعلى وكأنها تريد أن تحتضن الأفق والسماء.. ثم أغلقت عينيها للحظة وكأنها تصيخ السمع..! كانت تستمع لصوت أشبه بصرخة هو.. صوت الأشجار الصامت..!!

تماماً هي كصرخة المرأة.. صامتة.. معبّرة.. بصمتها!!

سارت منتشية بهذا الزخم الخريفي.. وراحت تمارس هوايتها الحقيقية واللخفية، ألا وهي مراقبة وجوه البشر..!!!

ففي الطريق كانت ترقب بفضول حَيِيٍّ وجوه المارة وتحاول أن تستنتج بفراستها وبذكائها الفطري حياة كل واحد منهم..

أبداً تستهويها الوجوه المعبرة والتي تنم عن ألمين... ألم الولادة وألم الحياة...!

أن يولد الإنسان في قرارها فهذا يعني بداية الألم....! والحياة بعدها كفيلة بأن تكمل مسيرة الألم.....................!

وجه أمها هو من خلق الرغبة لديها في قراءة كل الوجوه المحيطة بها، بعدما كانت ترقب في كل يوم وجه والدتها الذي أخذ الجمال يتلاشى

عنه بتدريج مريع وكأن الحياة ترفض أن تقيم فيه مرة أخرى.

فقد كانت عيناها الخضراوان واللتان لطالما دعاهما (أياس) بـ(غابتي الخضراء) قد أصبحت تينك العينان غابة معتمة لا نور فيها ولا حياة بعد أن غابت الشمس التي كانت تمنحهما الضوء وسبب الحياة...

كان (أياس) شمس حياتها ونور بهجتها، تحبه رغم خلافاتهما الكثيرة... وكان يحبها بشدة أكبر.

لم تستطع بعد رحيله أن تذرف دمعة واحدة... وكأنه قد أخذ معه حقائب الدمع... ورحل...!

سعت تلك الأمّ جاهدة لأن تتحمل أعباء تربية أولادها بمفردها وأن ترعى ميراثاً لا يستهان به من الأراضي الزراعيّة، معتمدة على نفسها، مصدومة من قرار ابنها البكر؛ إذ آثر السفر خارج القطر للدراسة وتركها تصارع مطامع الغرباء وجشع الأقرباء وحيدة كَلَبُؤة شرسة في غابة.

(4)

دخلت (يمان) المنزل شاردة... وإذ بزغرودة حلوة كانت في استقبالها..

بادرتها أمّها بفرحة ولهفة وقالت:

ـ بشراك يا ابنتي، لقد ظهرت نتيجة امتحان الثانوية العامة ونجحت بامتياز.

ـ ماذا؟ أعيدي ما قلته أرجوك.. ماما.. أعيدي ما قلت.. هيا قولي.. قولي

ـ لقد نجحت بامتياز.

دارت (يمان) في أرض الغرفة وهي تثب فرحاً.

– يــا الله، هــذا يعني أنّــه بإمكاني أن أحقق حلمــي وأن أدخل كليّة الطبّ.

الحمد لله... الحمد لله.

بكــت من فرط فرحهــا وبدت دموعها لآلئ تلمع تحت ضوء الفرح المشعّ من عينيها..

فاجأتها أمّها بقولها:

– ماذا؟؟ كلية الطبّ؟؟ ومن قال إنك ستدخلين كليّة الطبّ؟؟

التفتت (يمان) نحو والدتها وقالت بفرح طفولي:

– أنا يا أمي أرغب بشــدّة في أن أكون طبيبة وأن أســاعد في إزالة آلام النــاس، وأحلم بأنّي ســأجعل مــن أيام دوامي فــي عيادتي يومين مجانيين للفقراء والمحتاجين، كما وأنني سوف...

قاطعتها أمّها بقسوة وقالت بحزم واضح:

– لا، انســي هــذا.. لن تدخلي كليّــة الطبّ أبداً، بل ســتدخلين كليّة الهندسة الزراعية لترعي الأراضي التي تركها لنا والدك.

– ماذا؟ كليّة الهندسة الزراعية؟؟ ولكنّي لا أرغب في هذا ولا أميل أبداً لمثل تلك الدراسة وكما أنني...

قاطعتها أمّها مرة أخرى وقالت: يكفي لا أريد نقاشــاً.. وانســحبت من الغرفة.

وكعادتها اغتالت الأم لحظة الفرح في حياة ابنتها...!

وقـع القرار كالصاعقة في نفس الفتاة المسـكينة وأحسّـت بانهيار أحلامها وأن طموحها ما كان إلا وهماً وسراباً..

مسـحت دموعهـا ولحقت بأمّها إلـى غرفتها.. دخلـت إلى الغرفة فوجدت أمّها قد أمسكت بصورة أبيها.

توقفت لبرهة ولكنّها اسـتجمعت قواها وحاولت أن تستعطف أمّها، فانهالت عليها بقُبَلٍ ممزوجةٍ بدموع، راجية منها أن تسمح لها بدراسة الطبّ..

– ماما.. أرجوك أرجوك!! سعيت لهذا طويلاً وسهرت الليالي من أجـل تحقيقـه.. لا تحطمي آمالي.. لا تغلقي البـاب في وجهي.. دعيني أفتح باب مستقبلي بإرادتي أرجوك..

فمـا كان مـن أمّهـا إلا أن احتضنتهـا بيديهـا وقالت بحنـان غير مسبوق:

– أي بنيتـي.. كانت هذه رغبـة أبيك ولطالما حدّثني عن حلمه هذا ولـك الخيـار في تحقيقه أو عدمـه.. أنا ألقي بحمل هـذه الوصية على كاهلك..

كانـت هـذه أهمّ الرغبات التـي حلم بأن تتحقـق وخاصة أن أخاك (غيـاث) قد خذله فـي تحقيقها، وكمـا تعلمين جيداً أنه رحل لدراسـة الطيران، فبقي الحلم بأن تصبحي أنت تلك المهندسة الزراعيّة.

رمت الأم بكلماتها هذه وانسـحبت... بعـد أن أحدثت جلبة كلماتها صدى في نفس (يمان) الحزينة... المصدومة.

ـ رغبة أبي.. رغبة أبي..!!

مسـحت عن عينيهـا الدموع وتراءى لها وجه والدها يبتسـم فرحاً بمهندسته الزراعيّة..

وقفت بإصرار وقالت: سأدخل كليّة الزراعة...

لم تدر (يمان) أن هذه كانت أولى خطوات الانهيار...........!

فرغبات الآخرين تضيق برغباتنا وتخنقها حتى الموت، وأنّ أحلام الآخريـن تقتات مـن أحلامنا حتى التّخمة، وفـي النهاية تلفظها بقرف مُـخْـزٍ.... ونحن بتخلينـا عن أحلامنا نلبس ثوباً يضيق بنا كلما تحركنا في درب الحياة...

وأنّهـا تجبرنـا أن نعيش تحت مظلّـة، في وقت نتـوق فيه إلى أن نغتسل تحت المطر.................

رغباتهم تلك تحرق مراكب أحلامنا كي لا تسمح لنا بخوض بحار تستصرخ أمواجها كل لحظة توق وانبهار وتوهج لنا.

(يمان) اختارت.... اللا إبحار...!!!!

(5)

أخذت خطوات (يمان) إيقاعاً مغايراً عن ذاك الذي اعتادته، فلم تعد تثب وثباً وتاهت كل الحيويّة التي تحلّت بها وتلاشت.. صارت تمشي بتثاقل واضح.. تثاقل من عرف معنى الإحباط والاستسلام.

دخلت ساحة الجامعة وأحسّت بضيق في صدرها يخنقها.. بعد أن حاولت جاهدة أن تمنع دمعة غافية من أن تصحو في عينيها اللتين كانتا تنظران بأَسًى بالغ إلى كليّة الطبّ البشريّ.

وراحت تشعر بالوحدة رغم أعداد الطلاب والطالبات الوافرة والمنتشرة على شكل مجموعات هنا وهناك.

مشت على غير هدى.. تتأمّل معالم الكليّة المفروضة عليها.. فها هي القاعات الواسعة والمدرجات الضخمة تتوزع في ردهات الكلية.

أحسّــت برعب حقيقيّ يزحف داخل شــرايينها، وبالمستحيل يحيط بها من كل جانب، وكأن مستقبلها يُحتضر أمامها..

صاحت: مستحيل.. مستحيل أن أكون هنا.

ولكــنّ أصداء أصوات الطــلاب وضجيج حركاتهم أضـــاع الْتِياعَ صرختهـــا.. وكأنّ دوامة مخيفة ابتلعت اعتراضها فتلاشـــت صرختها أمام سطوة الحاضر وقسوة الواقع..

مضـــت إلى قاعتهـــا ودخلتها بعـــد أن تركت طموحـــاً مدفوناً على مدرجات أحلامها في كلية الطب..!

مسكينة (يمان)... اعتقلت حريتها في أن تحلم وعاشت عبوديّة حلم لشخص ميّت..!!

لم تستطع سنواتها اليافعة أن تتساءل:

وهل للأموات أحلام؟؟!

كعادتها هي تســير بمحاذاة الفرح وهو يحـــاول أبداً الهروب منها، يخشـــى أن تسأله عن أيّ طريق سيسلك؟ والقدر قد حظر عليه الالتقاء بهـــا، فهي قد قُـــدِّر عليها أن تكون ســيدة الحزن، والحـــزن والفرح لا يجتمعان..!

ترى.. كم سيلزمها من اللامبالاة كي تواصل حياة بلا حلم؟؟؟

بيــن محاضرة وكتاب.. كانت تجول بملل تَقْتَاتُ الخيبة والكآبة من نتائج باهتة وعلامات متواضعة..

لم تستطع لفرط صدقها مع ذاتها أن تتأقلم مع الواقع المفروض عليها.

إلا أن حلم والدها كان سيد الموقف نهاراً وسيد الأحلام ليلاً..

فهي كثيراً ما كانت ترى والدها في أحلامها يحثها على المواصلة.. أو لعلّها هكذا كانت تقنع ذاتها..!!

ومرت السنون في الكليّة......................

وهي تعيش عتمة وضياع اللا منتمي.. إلى أن جاء من أشعل شعلة الحياة في عينيها واحتلّ مساحة الأمل فيهما......

إنه (يزن)...!

ففي أحد الصباحات.. داهمها حضوره... ورسم بابتسامة من عينيه صفحات من صفحات قدرها..................

(6)

ذات صباح وبينما هي منهمكة في قراءة إحدى المحاضرات فاجأها صوتٌ سائلاً:

ـ عفواً... هل المكان شاغر هنا؟

سألها (يزن) بعد أن أشار إلى المكان بجوارها.

ـ نعم، لا يوجد أحد هنا.. تفضل.

وأزاحت قليلاً لتفســح له المكان للجلوس بجوارها وأحسّت وكأنّها تزيح الغمّ والملل والضجر..!! تعجبت للحظة من شــعورها وسرعان مــا تجاهلته..إلا أنّها مــن دون إرادة منها راحت تســتمع إلى الصمت الناطق من الجوّ المحيط به.. فجأة خطر لها خاطر عجيب..

لقد أرادت وببساطة أن تجرّب معه متعة التأمّل....!

احتضنـت عيناهـا أهداب عينيه العسـليتين ووسـامة طلّته، كادت أن تسـأله حين أمسـك بالقلم... من أيّ تمثال إغريقيّ قد استعار جمال أصابعه؟!

أحسّت ولأول مرّة بالرجولة تحتلّ مساحة الاهتمام لديها..!

ابتسمت لشـعورها هذا وأسعدها أنها عرفت شعوراً غريباً لم تألفه من قبل.

وفجأة أفاقت من شرودها بعد أن فاجأها بسؤاله:

ـ لم تبتسمين؟؟

ارتبكت وأجابت بسرعة:

ـ في الواقع تذكرت أمراً ما..!

حـدّق طويلاً فيها متأمّلاً شـعرها المنسـدل والعابـث على كتفيها، ونظر بعدها مباشـرة إلى عينيها متحدّياً ارتباكها بكل شراسة، وابتسم هو بدوره وقال:

ـ جوابك يطرح سؤالاً آخر، وما هو هذا الأمر؟

غاظها بشـدّة ثقته بنفسه، وبأنّ له الحقّ في أن يقتحم عليها ذاكرتها وطريقته المباغتة والواثقة بالسؤال.. فأجابته بحدّة:

ـ هذا الأمر لا يعنيك ألبتة..

وأدارت ظهرها متحاشية لحظة مواجهة وحوار جريء.. وأحسّت بالخوف من أن يكون ارتباكها وردة فعلها العنيفان قد وشيا بها وفضحا أمر إعجابها المفاجئ به..

هرولــت مســرعة وابتعــدت عنــه.... وراح هو يرقــب خطواتها المرتعشة وكأنّها كلمات متلعثمة لطفل خجول... وابتسم..!

عــادت إلــى البيت.. محمّلة بشــيء لم تفهمه، وأخذت تلهي نفســها بقــراءة محاضراتها وهي تحاول أن تمنع شــغف رغبة مُلِحّة بأن يأتي الغد حتى تذهب إلى الكليّة... تعجبت من نفســها ولكنها مع ذلك جلست تنتظر – ولأول مرّة – الغد بشوق بالغ..!!!

اليــوم التالي... جاء محمّلاً بأكثر من مفاجــأة، فقد تمّ فرز الطلاب إلــى مجموعــات في المخابر وقُسّــموا إلى فئات العملــي، وكان القدر بالمرصــاد لـ(يمان)، فقد كان (يزن) معها في فئة العملي... فالاســمان يبدآن بالحرف الأوّل نفسه وهي لم تكن قد عرفت اسمه بعد.

دخلت قاعة المختبر للتعرّف على خلايا نباتية عن طريق المِجْهر. حاولت جاهدة في أن تنجح في ضبط العدسة على النحو اللازم، إلا أنّها كانت تخفق في غير مرة. وفجأة امتدت يد أمامها وتناهى إلى مسامعها صوت تعرفت إليه فوراً.

– هل تسمحين لي؟!

أجابت بذهول بعد أن أفسحت المكان:

– تفضل.

أخذ يحاول ضبط العدســة وأخذت هي ترقب يديه الساحرتين كيف استطاعتا بكل احتراف أن تضبطا العدسة بثوان.

أزاح بعدها مفســحاً لها المجال، وقال بعد أن قام بحركة مســرحية

مُنْحَنِيـاُ واضعاً إحدى يديه خلف ظهره، وبالأخرى أشــار بكل احترام إليها كي تتقدم:

– تفضلي آنستي الفاضلة... أصبحت جاهزة.

ابتسمت وقالت:

– شكراً لك.

– التقينا ســابقاً على ما أذكر.. سعيد برؤيتك مرة ثانية... أنا اسمي (يزن)... وأنت؟

– أنا (يمان).

– أهلاً (يمان)، يبدو أننا شــريكان على طاولة المختبر هذه وأرجو أن نستطيع التعاون معاً.

– أرجو ذلك أنا أيضاً.

حاولت جاهدة أن تخفي فرحة سَرتْ في وجدانها من دون أن تدري سبباً لوجودها وتســاءلت: أيمكن لحضوره المفاجئ هذا أن يحرّك هذا الفرح المستتر في أعماقها؟

انتهــت التجربة وخرجــا معاً من غرفة المختبر يســيران جنباً إلى جنب وهما يتناقشــان بشأن تلك الخلايا، لاحظ (يزن) امتعاض وجهها أثناء الحديث، فما كان إلا أن بادر بالوقوف قائلاً:

– أعتذر بشــدة منك ، يبدو أنّني أسبب لك إحراجاً من جرّاء السير إلى جانبك، فقد لاحظت امتعاض وجهك... سأرحل الآن.. آسف.

إلا أنها أجابته بسرعة قبل أن يستدير ليرحل:

ـ لا.. لا.. أنت مخطئ.. ليس هناك من حرج على الإطلاق.

ـ ولكنّني قرأت من قسمات وجهك امتعاضاً مستتراً، فإذا كان السبب هو تجوالي معك في ممرات الكليّة فأنا أفضّل الانسحاب على أن أفرض نفسي.

ـ لا.. لا، إنما يبدو أنّني لم أتمكن هذه المرة من إخفاء امتعاضي وضيقي من هذه المواد المفروضة عليّ.. فأنا لا أحبها ألبتة، بل إلى الآن لم أستطع أن أتأقلم مع هذا الفرع الذي أجبرت على دراسته.

ـ ولكن..! لماذا؟ لماذا اخترته؟

ـ أنا لم أَخْتَرْهُ بإرادتي... إنما أملِيَتْ عليّ إرادة أقوى مني ولم أستطع أن أخذلها... إنها... إنها إرادة المرحوم والدي.

ـ المرحوم والدك؟ أنت أيضاً يتيمة الأب؟ هاهو شيء آخر مشترك جمع بيننا عدا طاولة المخبر.. فأنا أيضاً يتيم الأب... هيّا هيّا حدثيني ماذا كانت رغبتك إذن؟

ـ في الواقع أردت أن أدخل كليّة الطبّ.

ـ الطب؟! معقول؟! فتاة مثلك وفي رقتك تريد أن تتعامل مع الدماء والأحشاء وترفض أن تتعامل مع النباتات والزهور؟؟ أكاد لا أصدق!!!

يبدو أن باطنك يختلف كثيراً عن مظهرك، حقاً إنك أثرت فضولي واهتمامي.

أصبح يُقلّب يديه ويهزّ رأسه متعجباً رافضاً الفكرة تماماً، فما كان منها إلا أن سألته بكل تحدٍّ:

– لِمَ الاستغراب؟! وهل تعتقد أنّ الطبّ حِكْرٌ على الرجال فقط؟

رَمَتْهُ بنظرة كبرياء معاتبة... آثر بعدها ألا يخوض في هذا الحوار، وبادرها قائلاً:

– لا.. أرجوك لا أقصد ذلك، على كلٍّ دعينا من هذا، فأنا أشعر بالجوع، هل ترغبين في تناول (الصاندويتش) مع كأس شاي دافئ؟

– نعم شريطة أن يكون على حسابي.

– لا.. لا مجال أبداً فأنا الرجل هنا.

ضحكا معاً ودخلا إلى المقصف يتحادثان في أمور مختلفة.

تكررت لقاءاتهما ويوماً بعد يوم كان الوُدُّ يتسلّل إليهما ليحتلّ مساحة الغربة التي بينهما وليباعد الكلفة.

ذات يوم... وبعد أشهر من التعارف والتقارب جلسا معاً على مقعد حجري في حديقة الكليّة...

كانت بين أشواقهما مسافة البوح الخجول.. نظر إليها (يزن) مليّاً وكأنه يعوِّض بنظرته عن إخفاق كل الكلمات التائهة على شفتيه...

لم يجرؤ على البوح.. خانه ذعره من فقدانها إذا ما اعترف لها بإعجابه.. فآثر الصمت.

وأحسّت هي أيضاً بشيء غامض يجتاح وجدانها، وكأن فرقة

سيمفونية تعزف لروحها... شيء أشبه بالسحر.. جعلها تحلّق في عوالم مختلفة عن تلك التي عَرَفَتْها.. أرادت أن تفصح عن شعورها.. وكادت أن تسأله إن كان يسمع تلك الألحان... أو إن كان باستطاعته أن يشعر بتلك العوالم السحرية.. ولكنها هي أيضاً لم تجرؤ على البوح.

مرّ أسبوع كامل على آخر لقاء لهما... لم يأت (يزن) خلالها إلى الكليّة.

شعرت (يمان) بالقلق وأخذت الأفكار الغريبة تنتابها..

دفعها شوقها إليه إلى أن تجلس على ذاك المقعد الحجري..

أسبوع آخر... أسبوع كامل.. ولم يأت!!

جلست في المكان نفسه منتظرة... لكنه لم يأتِ... وأخذت تحاور نفسها..

– أتراني كنت أحلم؟! أيّ حلم كاذب لبوح لم يتم؟؟ أية كذبة منمّقة كذبت بها على نفسي بأنّني سألقاه وسأبوح له بما أشعر؟!

أيمكن أن يكون التوق والحنين موجعاً إلى هذا الحد؟!

أيمكن أن تكون اللهفة الممزوجة بالخيبة لعبة الألم؟؟

ولكن؟؟ ما بي؟؟ لمَ كل هذا؟؟ أتراني أحببته؟؟

الحبّ أمر لم تدركه يوماً ولكنه بدا لها أنها عاشته هذه المرة.

حين لم يعد مكان للأمل.. وحين تعايشت مع عذاب فقدانها لحلم آخر.. غير حلم ثوب الطبيبة الأبيض.. جاء من جديد.. جاء (يزن)...!

كانت مستغرقة في الكتابة في قاعة المحاضرات... ففاجأها بصوته يقول:

– حتى الجمال لم يستطع أن يفلت من بين أناملك، فجاء خطك بمثل هذه الروعة!!

رفعت رأسها وكان انتصار الفرح لحضوره واضحاً في تعبير وجهها!!! فأجابته وصوتها نغمة فرح معلنة:

– شكراً لك.

– أيمكنني الجلوس؟

أجابته بأمنية صادقة:

– دائماً.................

ضحك ولم ينتبه إلى نبرة صوتها المحمّلة حبّاً وشوقاً ورغبة حقيقيّة بأن يبقى دائماً إلى جوارها... وقال:

– لا، أرجوك يكفي لهذا العام.

أليس من المدهش أن نعرف وسط ازدحام الحياة أن هنالك شخصاً واحداً فقط يحقّ له أن يحتلّ المساحة التي بجوارنا؟ وأن يمتلك حريّة الجلوس إلى جوارنا مدى العمر.؟؟ تساءلت في نفسها....؟!

لم تستطع (يمان) أن تنجو من سطوة حضوره في نفسها ولم تعد تريد المحاولة بأن تنجو من أسر الهاجس الجميل.. أسر وجوده في وجدانها..

بل راحت في كل مرّة ترقب وتأمُل حضوره.

سألته ذات مرة:

– (يزن) لِمَ تغيب أياماً طويلة عن المحاضرات والكليّة؟

فأجابها بعد أن أطلق تنهيدة طويلة:

– (يمان) عزيزتي.. لا أعتقد وأنت المنعمة بالرفاهية ورخاء العيش ستدركين أهمية ما سأقوله.. فأنت لم تكوني يوماً في موقع المسؤولة عن تأمين لقمة العيش لإخوة ينظرون إليك وكأنك قارب النجاة الوحيد في بحر الحياة.. فأنا – وكما تعلمين – والدي تُوُفِّيَ منذ أكثر من أربع سنوات وترك لي أمّا وإخوة بحاجة إلى رعاية... فأنا أكبر إخوتي؛ مما دفعني إلى العمل كي أعيلهم. هذا بالإضافة إلى أنّني أسكن في الريف وقدومي إلى هنا يكلّفني المواصلات، مما يضطرني أحياناً إلى أن أكتفي بالحضور فقط للمحاضرات المهمة.

– المهمة..؟! تساءلت في نفسها: وأنا! ألست مهمة لديك؟؟

أفاقت من شرودها للحظة وسألته:

– وكيف لم أَرَكَ معنا في السنين السابقة أبداً؟

أجابها: هذا لأني كنت أدرس في جامعة دمشق، ثم انتقلت إلى حلب؛ لأن المعيشة هنا أوفر.. وأجرة السكن أخفّ وطأة.. فأنا أسكن في غرفة متواضعة مع شريك لي رَضِيَ أن أقاسمه الأجرة وأن أشاطره السكن فيها في تلك الأيام القليلة التي أكون فيها في حال كان هنالك محاضرات مهمة أو أيام الامتحانات.

سكت للحظة ثم أضاف:

يبدو أن قدري أن أسير في دروب حلب حتى ألتقي بك... و....

سرعان ما تدارك نفسه وصمت، بعد أن نظر إليها طويلاً.

لم تكن تدري كم كان يلزمهما من الوقت حتى يدركا أنّهما يسيران معاً في دروب الحبّ..!!

وبعد صمت كان فيه الكثير من الكلمات المختبئة وراء جداره المفروض.. تساءلت في استغراب:

ـ تعمل؟ وماذا تعمل وأنت لم تنته من الدراسة بعد؟

ـ عزيزتي في الحياة الكثير من الأعمال لا تحتاج إلا لأيد قوية وبدن صحيح معافى وقناعة وطموح خجول.

لم يستطع أن يفصح بأنه كان يعمل فلاحاً لدى أحد مالكي الأراضي في قريته.. فقد أحسّ بالحرج أمامها بأن تتخيله بلباس الفلاحة والمِعوَل بيد والفأس بيد أخرى.

حاولت من جديد أن تسأله إلا أنه تهرّب منها بأن أفصح لها عن حلمه بأن ينهي دراسته ليعمل في دائرة حكوميّة وأن يصبح موظفاً ذا شأن خاص. وأضفى على الحوار طابعاً فكاهياً، فأخذ يتخيّل نفسه ويدعوها وبإلحاح أن تتخيّل معه بأنه و بعد سنوات سيصبح بِشارِبٍ كبير.. وكرش وجاهة.. وأخذ يسير مقلّداً أصحاب الشأن.. بأن أرجَعَ ظهره إلى الوراء بشكل مبالغ فيه ووضع يديه المتشابكتين وراء ظهره.. وأخذ يسعل سعلة مصطنعة ويقول: احم..احم.. نحن هنا..

ضحكت (يمان) كثيراً وتمنّت في قرارة نفسها أن تكون إلى جانبه في ذاك اليوم.

مرت الأيام والأشــهر كانا خلالهما كثيــراً ما يلتقيان.. إلى أن دقّت ساعة الإعلان....

ففي ذات يوم شتويّ... وبينما هما يسيران معاً في حديقة الكلية يتشاركان متعة مشــاهدة هطــول الثلج، ويســتمعان معــاً إلى ذاك الصمــت المذهل المترافق لهطوله.. وكأنّه لحن منفرد بذاته.. لحن الصمت الأبيض..!

التفــت إليها وهو يشــعر بالحســد من نــدف الثلج الــذي تناثر على شــعرها وعلى وجهها.. (يمان) التي ارتدت معطفاً جلدياً أســود اللون بدت جميلة بخصلات شــعرها الأشقر المنســدلة كأشعة شمس في يوم عزّ فيه شــروق الشــمس.. لقد كانت (يمان) شــمس (يزن) التي أحسّ بأنّها أشرقت في عينيه.

فجأة أمســك بيدها... ونظر إلى عينيها اللتيــن كانتا تبرقان من أثر شــعلة حبّ لم تســتطع أن تخفيها... نظرت هي أيضاً إليه وأحسّــت بأن اللحظة قد حانت وأن طوق الصمت سيكسر إلى الأبد.....!

– (يمان)... أنا... أنا أحبك

قالها مباشرة.. من دون أن يسلك أي منعطف لغوي... ومن دون أن يســتعير أي مفردة ضبابية أو أي جملة موشــاة، كان مباشراً... مباغتاً تماماً مثل الحب الذي شعرت به.

– وأنا... أيضاً.. أحبك.

نظــرا طويلاً إلى الأفــق البعيد.. وكأنهمــا ينتظران معاً مســتقبلاً يتمنيانه، لم يتفوها بعد هذا الاعتراف القدســي بحرف واحد؛ فقد خشيا معاً أن تفسد جلبة الأحرف جلال الموقف.!

(يمان) كانت سـعيدة... يومها أحبت الثلج وأحبت البرد.. لأنها معه شعرت بالدفء... دفء البوح... دفء الشوق.

عادت إلى البيت ممتطية فرحها... لم تغادرها كلماته.. فقد احتلت كيانها... وجعلتها سجينة لها بكل استسلام... لا بل بكل إرادة.!

ما أغرب أن نستسلم لطوفان الحب مع أننا ندرك بأنّا سنغرق!!

(7)

– هيا.. هـيا يا شاطرة قولـي ماذا يمكن أن تكون تلك الأحرفـ؟؟

وأخذ يخط على الورقة أمامها.. ق.. ل.. ط.. ر... فـ... خ

فكرت مطرقة ثم أعلنت فشلها في حل رموز شفرته

فقال لها: إنها أول أحرفـ لكلمات تؤلف الجملة التالية:

(قلبي لك طالما روحك في خباياه).

أعجبتهـا كثيراً اللعبة وراحت تخط هي بدورها أحرفاً وطلبت منه أن يحزرها

ل.. خ.. ي.. ب..ا.. و.. ح.. ل.. ح.. ل.. أ.. أ.. ح.. أ... فـ.. ع

أجابها بأن خط على الورقة جملة:

(لـك خبأت يومي بكل أمـل وحنين.. لك حبي.. لـك أحلى أيامي.. حبيبتي أنت فرحة عيوني).

صاحت فَرِحةً: رائع.. ولكني قصدت فيها غير ذلك.. سـأكتبها لك الآن:

(لـو خيروني يوماً بين الجنـة وحبيبي لاخترت حبيبي لأنني أدخل الجنة حين أنظر في عينيه..)..

كتبت أحرفاً أخرى وطلبت هذه المرة منه أن يكتب كل منهما على حدة، وبعدها يقارنان ما كتباه... فوافق فوراً بعدما أعجبته الفكرة..

ع.. ن.. م.. ت..ا..ا.. و.. أ.. م.. ف.. أ... ي.. ع

أخـذ كل منهمـا فـي الكتابة... وبعـد الانتهاء تبادلا الـورق، وقرأ كل منهمـا ورقة الآخر. وكانت ورقة (يمـان) فقد احتوت على الجملة الآتية:

(عندمـا نكـون معـاً تكـون الدنيا أحلـى. وأحلـى ما فيهـا أنت يا عمري).

أما ورقة (يزن) فقد خط عليها ما يلي:

(عندمـا نكون معاً تكونين أنـت أميرتي، وأكون مفتاح فرحتك، أو يا ليتني عبدك).

ضحكت وأعجبتها كثيراً كلمتي (أميرة وعبد).

فرحا جداً كطفلين وخاصة أن النتيجة كانت تطابق الكلمات:

(عندما نكون معا).

نظر (يزن) إليها وقال: ترى هل سنبقى إلى الأبد سوية؟؟

أجابته:

– ولم لا ؟ما الذي يمنع؟

قال لها:

– الآن ما يهمنا حقيقة هو أن ننتهي من الدراسة، وأن ننجح بمعدلات عالية علها تتحقق أحلامنا بعد ذلك.

وأخذ اهتمامهما يَنْصَبُّ على النجاح وبمعدل جيد، وكثيراً ما كان (يزن) يساعدها في موادها دون أن ينسى أن يغيظها ويسعدها في آن بكلمة (غبيتي الحلوة).

وكانت كثيراً ما تقضي أوقاتها بعد الدوام في الكلية في المكان المحبب لديها، ألا وهو منزل جدتها.. فهناك تشعر براحة وعفوية قلما تشعر بهما في منزلها، ولعل السبب هو شخصية جدتها البسيطة والحكيمة التي لطالما احتضنتها بهما.... كانت هناك تعود لطفولتها لعفويتها... لصدقها... حتى أنها لم تستطع أن تخفي عن جدتها سرها الحبيب... فقد كانت تلك الجدة قد نهلت من الحياة ما نهلت من أيام وسنين وخبرات مكَّنتها من أن تفهم ببساطة سر التألق الذي أصيبت به حفيدتها الغالية.. وكثيراً ما تحادثتا مطولاً عن الحياة والحب والزواج... وفي يوم سألتها (يمان):

– ولكن كيف عرفت؟

أجابتها الجدة بلهجة الواثق:

– يا ابنتي إن الأقدمين قالوا: ثلاثة أشـياء لا يمكن إخفاؤها: (الحب والحَبَل وركوب الجمل).

ضحكـت (يمـان) كثيراً من هـذا المثل، وضحكـت أكثر من قول جدتها (الأقدمين)! وكأن الجدة هي من (المحدثين)!!!

كانت تشـعر بالارتياح لأنها اعترفـت لجدتها بهذا الحب، فهي من البراءة والصدق بحيث كانت لا تطيق الانتظار حتى تخبر والدتها بأمر (يـزن)، ولكن المشـكلة أنها كانت تدرك تماماً أن تلـك الحواجز التي بينها وبين أمها ستمنع أمها من أن تفهم شفافية الموقف، ولكنها مع هذا كانت تنتظر بفارغ الصبر الفرصة المناسبة لإخبارها.

عاشـت (يمان) تلك الفترة من حياتها وهي تشـعر بسـعادة وراحة كبيرتين إلى أن جاء اليوم الذي أودى بكل أحلامها...

فقد قررت أن تخبر والدتها عن سر تلك الإشراقة الساكنة في وجهها وعن سبب تصرفاتها المرحة وعشقها المفاجئ للكلية التي كانت طالما تتذمر منها، وهذا ما كان يحير والدتها ويجعلها تتسـاءل أكثر من مرة عن السبب.

ذات مسـاء دخلت (يمـان) غرفة الجلوس بعـد أن أمضت نهارها في مسـاعدة شقيقتها الصغرى في تأدية فروضها المدرسية و ساهمت فـي تحضير (صاندويتش) شـهي لأخيهـا المراهق.. وقامت بسـقاية أحـواض الزرع في شـرفة المنـزل وقطفت أزهاراً لها إشـراقة وجه العاشـق ونسـقتها على نحو أنيق ينم على ذوق رفيـع، ووضعتها في غرفة والدتها وهي تدمدم بأغنية (ست الحبايب يا حبيبة).

جلسـت على المقعد إلى جوار والدتها التـي كانت تحيك قطعة من (الكانافا)، مرسـوم عليها صورة تمثل إحدى آلهة الصيد لدى الإغريق وفي يدها سهم ومن حولها غابة تتداخل أغصان أشجارها مع نور قادم من سماء تحتضن شمساً ترغب بالرحيل..!

وحاولـت أن تبدأ حواراً مع أمها الصامتة والواجمة أبداً.. فابتدرت حديثها قائلة:

– إنها لوحة جميلة تلك التي بين يديك يا أمي.

بقيـت الأم صامتـة واسـتمرت بإدخال إبـرة الحياكة فـي القطعة الممدودة أمامها من دون أن تكلف نفسها عناء ابتسامة مجاملة.

استمرت (يمان) بالمحاولة رغم ترددها وقالت:

– من هي تلك المرأة التي في الصورة؟!

هنا أجابت أمها بِتَهَكُّمٍ واضح:

– لو كنت قد قرأت أساطير اليونان لكنت قد عرفت ما اسمها.

– ولـم القـراءة ولدي أم مثقفة أسـتطيع أن أنهل منها ما أشـاء من المعرفة؟

– هراء.

سـكتت (يمـان) حائرة كيف سـتبدأ الحديث عن (يـزن)، وارتأت أخيـراً أن تغـادر الغرفة من دون أن تحقق هـذا الإنجاز... ولما همت بالمغادرة صاحت أمها قائلة:

– وبعد؟ إلى متى سأنتظر حتى تخبريني ما تودين إخباري به؟

– وكيف عرفت أن هناك ما أود إخبارك به؟

– وهل تعتقدين أن حركاتك وتصرفاتك طوال هذا اليوم ليست كافية؟

– يعني... هل... أستطيع أن.. أن أتحدث؟

– إني أستمع.

تحلت (يمان) بالشجاعة رغم انقباض قلبها، وتمنت ألا تكون نتائج لحظة البوح هذه مدمرة.. وقالت:

– ماما.. لقد تعرفت على زميل لي في الجامعة.... و.. نشأت بيننا... علاقة صداقة.. لا، بل أكثر قليلاً من مفهوم الصداقة و..

هنا قاطعتها الأم غاضبة:

– ماذا؟ ماذا قلت؟ أعيدي من جديد.لا.. لا بل.. من الأفضل أن تصمتي.

– ولكن.. يا أمي.

– اسكتي.. أنت فعلاً وقحة.. وتأتين إلي بكل بساطة لتقولي إنك على علاقة غرامية بشاب..الحمد لله أن والدك قد مات حتى لا يسمع ما سمعته.

– أرجوك ماما لا تقولي هذا.. علاقة غرامية..إنها كلمة قاسية.. قاسية..

أنا على علاقة شــريفة ونزيهة مع شاب اختاره قلبي وقد اتفقنا معاً على الزواج بعد موافقتك طبعاً.

أخذت الأم ســيجارة وأشعلتها بتوتر واضح وأيد مرتجفة.. لعلها قد تفاجأت من تلك اللحظة المداهمة التي أشعرتها بأنها قد كبرت وتقدمت في السن من دون أن تترك لها جلبة الواجبات فرصة التحديق في مرآة الزمــن لكي تكتشــف إلى أي حد قد نســيت هي ســنوات عمرها، وأن ابنتها فجأة قد كبرت وأصبحت شابة تعرف وتعترف بالحب.. أمامها.. لم تكن قد لاحظت أن الســنين قد مرت هكذا مســرعة وأنها قد تركت بمرورهــا بصمات على وجههــا... على يديها.. والأهــم من هذا على ابنتها.. فقد ترك لها الزمن أكبر اعتراف لها بأن قطارها قد أوشــك أن ينهي محطاته، وأنه عليه أن يتوقف ليســمح بالمرور لقطار آخر.. هــو قطار ابنتها...!

كانــت لحظة صعبة تحمل ازدواجية الفــرح والألم.. لم تدر أتفرح للعمر القادم لابنتها أم تحزن للعمر الراحل عنها......؟؟

أفاقت من شــرودها على عنــاق ابنتها وصوتها المرتجف من فرط التأثر...

- مامــا أرجــوك.. حاولي وأنا في أشــد طرق حياتــي انعطافاً أن تكوني دليلي ومرشدي.. كوني صديقتي.. كوني عوني.. وبيت سري.. لا توصدي أمامي أبوابك.. أنا بحاجة إليك ماما.

- الآن...الآن جئــت تطلبيــن مني أن أكــون صديقتك؟ وأين كانت حاجتك لصداقتي طوال مدة معرفتك به؟؟ أنت الآن جئت فقط لتعلميني عن قرارك بالارتباط به، وحتى تأخذي موافقتي كتحصيل حاصل ليس

إلا، أين تظنين نفسك تعيشين في (باريس) أم (لندن)؟

ثارت (يمان) وبكت وقالت وهي تصرخ:

– ماما أنت دائماً تبعديني عنك.. في كل مرة أحاول أن أتقرب منك كنت تبعديني عنك.. لم تحاولي مرة أن تتساءلي عن احتياجاتي وعن أحزاني وعن..........

قاطعتها أمها بعتب بالغ قائلة:

– عن احتياجاتك؟عن أحزانك؟ وماذا أيضاً؟هل تريدين إضافة ظلمك؟ وماذا عنك ها.. ماذا عنك؟ أم.. أم.. ماذا عني أنا ؟ هل حاولت مرة أن تعرفي ماذا يجول في نفسي من أحزان وآلام؟ هل تساءلت مرة عن مقدار ألمي بفقداني من أحب؟ أنت التي تتحدثين عن الحب؟؟

هل سألت نفسك يوماً أي معنى لحياتي كامرأة وحيدة؟ هل جال ببالك مرة أن تتساءلي عن مقدار خيبتي بأخيك الذي رحل عني بعيداً وأنا في أمس الحاجة إليه؟

هل تدرين مدى معاناتي في تربيتكم ونشأتكم بعيداً عن والدكم؟

هل تدركين حجم المشاكل والألاعيب الخسيسة التي أواجهها من قِبَلِ من يعمل في أراضينا؟؟

هل كنت تدركين عدد الطامعين من حولنا سواء أكان مَنْ طَمِعَ يوماً بي أو بالثروة التي تركها لنا والدك؟؟

كل ما تهتمين به هو نفسك.. لم تحاولي يوماً أن تعرفي مدى الصعوبات التي أعانيها من مسؤولية تربيتك أنت وإخوتك.. أنا امرأة

وحيدة إلا من مسـؤوليات وأحزان أُلقيـت في حقيبة أيامي.. أنتزع من بيـن أنياب الطامعيـن أموالكم.. أدافع عـن حقوقكـم.. أتَصَيَّدُ الفرص الأفضل لكم.. أما أنت فلا تهتمين إلا بالحب.. هل هذا عدل؟

– مامـا.. أنت تتهميننـي بالأنانية مع أنني تخليـت عن حلم حياتي بدراسة الطب من أجلك.؟

احتدت الأم واحتجت قائلة:

– لا تقولي من أجلك.. بل من أجل أبيك الراحل.

– من أجلك.. من أجل أبي وما الفرق؟ فأحلامكما واحدة.. أليس هو الرجل الذي أحببته؟ أليس هو شـريك حياتك وبالتالي شريك أحلامك؟ أرجـوك مامـا حاولـي أن تتفهميني، أنا أحس بالغربـة عنك، لا يوجد من يفهمني أو يشـعر بي في هذا المنزل، أنت في عزلتك وفي عالمك الذي ترفضين أن أقتحمه..اهتمامك يتجلى فقط بالتحكم في وفي كل ما أفعلـه، حتى علاقاتي بصديقاتي، فإنك دائماً ودائماً تحيطينها بكثير من الريبـة والحـذر، لا بل بكثير من الحظر.. فكـم هي كثيرة تلك المرات التي منعتني فيهـا منهن حتى أخذن بالابتعاد عني.. وآثرن أن يبعدنني عن تلك السجالات والجدالات التي تتحفيني بها في كل مناسبة أو حفلة أو عيد ميلاد أو حتى مشوار بسيط في يوم ربيعي.. أو زيارة منزلية... حتـى أصبحت وحيدة.. أجل وحيدة... ليس لـدي أية صديقة.... أجلس على المدرجـات في الكلية وأنا أرقب الطـلاب والطالبات وقد تمكنوا مـن تشـكيل مجموعات تمضـي أوقاتها في كثير من السـعادة.... لعل حاجتـي إلى أحد يفهمني.. يهتم بي... يشـعر باهتماماتي.. يحترمني... لعل حاجتي لظ(أُذُنٍ) مُحِبة تسمعني دون أن تؤنبني.. دون أن تتهمني

أو أن تلومني... لعل حاجتي للاهتمام هي ما دفعني إلى أن... أن.. أحب..!!!

قالت هذا وخرجت من الغرفة لا تدري إن كان الغضب هو سيدها أم الألم والحزن لحالة اليتم التي تعيشها رغم وجود أمها.

خرجت وقد داهمها خوف حقيقي من أن ما يربطها حقيقة بـ(يزن) هو ذاك الاحتياج للإنصات والاحتواء وليس الحب الحقيقي!!

مسكينة (يمان).. كانت تنشر روحها بصدق.. وكيف لا تبحث عن الحب والاهتمام وقد افتقدته في منزل غاب عنه الأب... وطار منه الأخ وتحجرت فيه الأم وفقدت بسببه معنى الصداقة والفهم فرحل عنه الحب.!

الحب...! تلك الكلمة الصغيرة..!

حرفان.. حاء... باء.. يضمان الحياة..الوجود..السماء.. الأرض.. الإنسان.... فالسماء تحب الأرض والأرض تحب الإنسان والإنسان يحب الحياة......الحياة وهل نحياها حقيقة كما تحبنا أن نفعل؟

هل نحبها كما تحبنا ؟ أم أننا دائماً نظلم أنفسنا فيها ونتهمها بالظلم لنا..؟

جلست الأم مطرقة وهي تفكر مَلِيًا في كل ما جرى.. كانت اتهامات ابنتها لها أشبه بناقوس يقرع بإصرار ويترك صدى هائلاً في نفسها....

تساءلت: هل أخطأت بشأنها؟ولكني أفعل ما أراه مناسباً.. فأنا الأم

هنا.! أنا من تضع قوانين مملكتها.. وأنا من يحق لها أن تطاع دون أن تكون مجبرة لتقديم المبررات.

نهضت وذهبت إلى غرفتها بعد أن لاحظت ضوءاً خافتاً ينبعث من غرفة ابنتها يترافق مع صوت بكاء مسموع.

تـــرددت فـــي أن تدخل إلى غرفة ابنتها إلا أنهـــا اختارت أن ترجئ حديثها إلى الغد.

لم تستطع أن تتغلب على قسوتها حتى على ذاتها، فقد نامت ورغم حاجتها الماسة للبكاء....إلا أنها لم تَبْكِ.!

(8)

– حسن. حدثيني عنه. ابن من هو؟ ومن أية عائلة ينحدر؟

وضعت فريال – أم (يمان) – فنجان القهوة على المنضدة أمامها ونظرت بعينيها المتعبتين إلى (يمان) بعدما ألقت سؤالها باستسلام يحمل في طياته الكثير من المكابرة.

شعرت (يمان) بقلبها يطرق بشدة؛ فهي تتعرض لموقف صعب، فهاهي أمها أخيراً قد تنازلت ورضيت بمفاتحتها بالموضوع.

ولكن كيف ستخبر أمها الأرستقراطية ابنة الحسب والنسب بأن صهرها المستقبلي هو من قرية صغيرة من شمالي دمشق؟ ولكنها مع ذلك استجمعت قواها وقالت:

– اسمه (يزن)، تخرج هذه السنة.. أقصد منذ أسابيع.. وفي الواقع... هو... ليس من المدينة...إنه.. إنه.. من الريف.

ـ مـن أين؟ من الريف؟ هـل جننت؟هل فقدت صوابك.؟ والله عال العال ابنتي أنا تتزوج فلاحاً؟

ـ فلاح؟ من قال إنه فلاح؟

ـ وماذا تُسَمِّين ابن الريف؟كونتاً؟أم لورداً؟ أم بيك من البكوات؟

ـ ومـا يعيب ابن الريف؟إنـه صادق في المعاملة نقي السـريرة.. بسيط لا يحمل تعقيدات ابن المدينة.

ـ اخرسـي كم أنت ساذجة؟! انسي هذا الموضوع والله لن يتم ولو على جثتي.

ـ ماما ماما ماذا حدث لك؟ لم هذه الحدة؟

ـ ابنـة (أياس) و(فريال) لن تتـزوج فلاحاً أبداً، عليك أن تعي هذا جيداً.

ـ ماما انتظري أرجوك لا تحطمي قلبي، انتظري حتى تقابليه.. لا ترفضي لمجرد الرفض..استمعي إليه..اعرفيه وبعدها قولي ما شئت.

ـ لا.... لايمكـن، واغربـي عـن وجهـي... لا يأتـي منـك إلا المصائب.

ـ أنا يا أمي؟ ماذا فعلت لك؟

ـ قلت لك اغربي عن وجهي.

ـ ولكن..

ـ قلت لك انسـي الموضوع.. كفى لن أسـتمع أكثـر.. كفى.. أيتها

الســاذجة.. والله لــن يتــم الأمر لو على جثتــي. قال فلاح قــال.. هـه.. غبية!!!

خرجت (يمان) بعين دامعة من المنزل وذهبت من فورها إلى الكلية لعلهـا تحظى برؤيــة (يزن).. لم تجده...انتظرته فــي مقصف الكلية... جلست في المكان الذي اعتادا عليه، لعله يأتي فتخبره بما جرى معها. ولكنه لم يأت..! وبعد طول انتظار أخذت تسـير في الشــارع ســاهمة متجهة إلى واحتها الوحيدة؛ وهي منزل جدتها.. تفكر في كل ما حدث.. تتســاءل وللمرة الألف دون أن تجد جواباً.. لم تعاملها أمها هكذا؟ بكل هذا النفور.. بكل تلك القسوة؟

دخلــت منزل جدتها... وركضت إلى حضنها تلتمس دفئاً يهدئ من رعشة انفعالاتها.. وبكت بِحُرْقَةٍ!!

خافت الجدة المسكينة وصاحت برعب:

– ما الأمر؟ هل مــات أخوك؟هل مات حفيدي أيضاً؟ هل انفجرت الطائرة به؟

انتبهــت (يمان) إلى نفســها مدركــة كم كانت أنانيــة لأنها لم تراع روعــة الجدة الملتاعة زمناً بفقدان ابنها.. فصاحت محاولة أن تطمئنها وأن تهدئ من روعها:

– لا.. لا اطمئني جدتي الكل على ما يرام وغياث بخير

– إذن ما الأمر؟

– أنا.. أنا..

– ما بك يا ابنتي؟هل رسبت في الامتحانات؟

– لا ولكن قولي لي: هل أمي هي حقيقةً أمي؟

– حبيبتي ما بك؟هل أنت محمومة؟هي طبعاً أمك.

قالـت هذا بعد أن وضعت يدها المرتجفة علـى جبين (يمان) علها تتلمس اجتياح حمى مفاجئة.

– لِمَ تعاملني هكذا؟ لم؟ لم؟

اسـتطردت (يمان) سـائلة بعـد أن أزاحت بعصبية يـد الجدة عن جبينها..

حينها أمسـكت الجـدة بين كفيها المتغضنتين بوجـه (يمان) وقالت بحنان:

– حدثيني بهدوء عما حدث.

أخبرتها (يمان) بما جرى وهي تبكي بانفعال، فمسـحت الجدة عن عينيهـا الدموع واحتضنتها بحنان وكأن يَـداً رحيمة قد صافحت يديها حتى حبتها بكل هذا الحنان والرحمة، وقالت لها:

– يا ابنتي إنها تفعل هذا لصالحك. أنا أوافقك على أنها قاسية ولكني متأكدة من أنها تهتم لأمرك.

يمـان.. أنت لم تخبري الحياة بعد، ولا يمكنك أن تدركي أن الفارق البيئي في الزواج عامل مدمر؛ فالتقاليد مختلفة وكذلك المفاهيم، ولأنك لا يمكنك أن تتناسـي ما نشـأت عليه وبالتالي ستنشـأ المشاكل من أتفه الأمور، لا بل حتى من الأمور التي تكون بديهية بالنسـبة لك سـتكون

في يوم من الأيام معضلة بالنسبة له ولأهله.

– أهلــه..؟! وما علاقة أهلــه بالموضوع؟ فأنا لن أعيش في الريف حتماً.

– أرأيت..؟ لم تســتطيعي للحظة أن تتقبلي فكرة العيش في القرية، وهذا بحد ذاته مؤشــر لحقيقة ما نقول، كما إنه يا ابنتي لن يســتطيع أن ينســلخ عن مجتمعه.. عن أقاربه.. عــن أقرانه وأصدقاء طفولته.. عن نشأته.. عن مفاهيمه.

– لا يهمنــي... كل الذي أعرفه أنه يحبني وأننا على وفاق تام وهو شخص جيد.

– يــا ابنتــي أنا لا أعرفــه ولا أعترض عليه شــخصياً، وقد يكون وأهله أناســاً طيبين وشرفاء وصادقين.. أنا لا أنكر ذلك عليهم، بل وقد يكونون أفضل منا نحن في كثير من الأمور، ولكنـي أوافق أمك الرأي، فنحــن من بيئات مختلفة، أي وبما أنك تســتمعين جيداً إلى الموســيقى فسأشرحها لك كالتالي: لا يمكن لعازف (ربابة) أن يكون نديماً لعازف (بيانو)، رغم أن كليهما يعزف الموسيقى... هل فهمت؟

– أنت قلتها، أنتم لا تعرفونه، فمن العدل أن تمنحوه الفرصة.

دمدمت الجدة وقالت بصوت خافت:

– أنَمْنَحُــه فرصة شــقائك؟على كلٍّ يا ابنتي أنــا حين أخبرتني عنه لــم تطلعيني على الفــارق البيئي بينكما، وأنا برأيــي أن تتركي للزمن فرصتــه ليحكم في الأمر، كل مــا أطلبه منك الآن أن تتفهمي أمك وألا تكوني مثلها قاسية.

ابتسمت (يمان) بمرارة وقالت: من المستحيل أن أمتلك قسوتها.

– الله يرضى عليك يا ابنتي ارتاحي قليلاً ودعي الأمر للرحمن فهو مدبر الأمور. في الحقيقة أمك ليست قاسية، هي جِلْفَةٌ بعض الشيء ولا تحسن التصرف في معظم الأحيان، ولكنها تحبك وتريد دائماً مصلحتك.. هيا تعالي.. تعالي إلى حضني لأغني لك مثل السابق حين كنت طفلة، قالت الجدة كلماتها ثم داعبت بحنان شعر حفيدتها وبدأت تغني لها:

(زمان..زمان والله زمان القمر ما بان

يا سلام.. يا سلام.. والله (يمان) أحلى قمر... يمان)

ابتسمت (يمان) هذه المرة بامتنان لهذا الحنان واستسلمت في أحضان نوم عميق.

قامت الجدة بصعوبة من مقعدها بعد أن أبعدت رأس (يمان) من حضنها بكل انتباه خشية أن توقظها، ثم سارت بِخُطى متعثرة باتجاه منضدة صغيرة كانت قد وضعت عليها الهاتف، وفوقه غطاء صغير مطرز مصنوع بواسطة سنارة (المخرز)، وأمسكت سماعة الهاتف بِيَدٍ وأدارت بسبابة اليد الأخرى بكل حرص وانتباه قرص الهاتف وهي تتمتم بشفتيها بصوت خافت مع كل إصرار رقم هاتف منزل ابنها (أياس).

اثنان... واحد.. أربعة.... أتمت الرقم وانتظرت بهدوء يحمل في طياته التوتر حتى سمعت انتهاء صوت الرنين في الطرف الآخر، وسمعت صوت كنتها فريال التي ابتدرت بالتحية بعد أن عرفت على الفور صوت حماتها:

– أهلاً أهلاً كيف أنت؟

– أنـا بخيـر ولكنني اتصلت بـك لأبلغك بأن (يمان) سـتزور هذه الفترة عندي.

قالت هذا بِتَحَدٍّ صارم وكأنه أمر صادر من ضابط عسكري.

– لماذا؟

– أنت تعرفين السـبب ومن الأفضل ألا تتم بينكما أية مواجهة من شـأنها أن توتر كليكمـا. يا ابنتي الله يرضى عليـك اضبطي أعصابك وامنحي (يمان) فترة من الزمن حتى تعيد النظر بالموضوع.

– ولكن..

– يا ابنتي اسـمعي مني، (يمان) فتاة رقيقة ورثت رقة مشـاعرها عن أبيها وهي في الوقت نفسـه إنسانة ذكية ذكاؤها يشبه ذكاء والدها، ولكنـي لا أدري من أين ورثت العناد والتصلـب بالرأي..! على كلٍّ.. كل مـا أطلبـه منك أن تتركيها لفترة حتى تفكر بشـكل جيد لتتمكن من أخذ قرار صحيح.

قالت كلماتها وأغلقت السماعة دون أن تنتظر إجابة فريال.

أغلقت (فريال) سماعة الهاتف بعد أن حدّقت فيها للحظة مستغربة ذاك الحديـث المقتضـب وكأنـه رسـالة تلغـراف أو برقية مـن ثكنة عسـكرية، وبعد أن أشـعلت سـيجارتها؛ رفيقة انفعالاتها، أخذت نفساً عميقاً ثم حدقت في الأرض وهي تهز رجلها بعصبية وقد استشـاطت غضبـاً من (جليلة خانم) ومن ابنتها الفأرة الفارّة إلى وكرها.. وأخذت تردد بسخرية وهي تقلد صوت حماتها:

– (ورثت الذكاء عن أبيها) وكأنني أنا الغبية..(ورثت رقة مشاعرها عن أبيها) وكأنني أنا (الفَظّة)، ولا تدري الست (جليلة) من أين ورثت (يمان) العناد... طبعاً.. هي تقصدني أنا.. بسيطة أنا لها.

ذهبت (يمان) إلى الجامعة بعد أن انقطعت عنها قليلاً بسبب الانتهاء من الامتحانات، وبسبب العطلة الصيفية، إذ كان من الصعب اللقاء بـ(يزن) خارج أوقات العام الدراسي دون أن تخضع لسلسلة استجوابات وتساؤلات من والدتها أو حتى من جدتها التي كانت دائماً في حالة قلق وخوف عليها سببه الحرص على سمعتها وكلام الناس.

كانت في حالة شوق إليه، وخامرها ذاك الحنين الذي تفرضه علينا الأماكن المكسوة بالذكريات.. وحين غذت الخطى نحو ممرات الكلية ابتسمت قليلاً؛ إذ أدركت مدى حاجتها لـ(يزن) في تلك اللحظة، ولكنها مع ذلك أحست فجأة بشيء من الضيق لم تَدْرِ سبباً له.. هذا الإحساس الذي يسري بانسياب ماكر إلى داخلنا ليستوطن موقع القلق، ولكنها سرعان ما قالت لنفسها هذا لأنني متوترة مما حدث البارحة، ويبدو أن أوجاع حلمي الضائع بأن أكون طبيبة عوضاً عن مهندسة زراعية قد استيقظت مرة أخرى.

سارت عبر الممرات وشعرت مرة أخرى بحالة الـ (لا انتماء)، ضايقها إحساسها المزدوج بالحنين وبالغربة فحاولت أن توجه تفكيرها نحو (يزن).

وتمنت أن تمنحها المصادفة هدية لقاء مَرْجُوَّة.

فجأة لاح لها من بعيد في أحد ممرات الكلية المؤدية إلى غرفة العمادة.. صاحت لهفتها وهتفت باسمه تناديه:

– (يزن).. (يزن)

التفـت نحوهـا وكان واضحاً أنه كان في عجلـة من أمره وقال لها هاتفـاً مـن بعيد بعـد أن لَوَّحَ بيـده بحركة توحي بأنه علـى عجلة من أمره:

– أنا مشغول جداً.. أراك غداً.. على الأغلب

توقفت للحظة مستغربة من موقفه هذا ورددت قوله:

– أراك غداً وعلى الأغلب؟؟!!!!

لكنهـا مـع ذلك احترمت رغبته وأقنعت نفسـها بقولهـا: يبدو فعلاً مشـغولاً.. وتساءلت: ترى ما هي تلك الأوراق والمصنفات التي بيده؟ لا بأس غداً سأعرف.

اتجهت نحو أحد المدرجات وجلست.. وحيدة!

وجاء اليوم التالي... وكان اللقاء.. وكان....!!!

أخبرت (يمان) (يزن) بأنها قد أطلعت والدتها على علاقتهما، وقبل أن تطلعه على كافة التفاصيل انبرى منزعجاً وقاطعها وهو يقول:

– هل أنت جادة؟

– أجل (يزن) لقد أخبرتها عنك.

– ولكن من طلب منك ذلك؟

أحست (يمان) بوقع مؤلم لإجابته تلك، وزادتها انزعاجاً عما كانت هي فيه وسألته:

– وهـل أنا بحاجـة إلى إذن من أحـد كي أصارح أمـي؟ أنا دائماً تربيـت علـى الحوار الصادق مـع أهلي وأنا لا أطيـق أن أخفي عنها شـيئاً حتى لو سببت لي الإزعاج، ولكنني كنت طوال هذه المدة أرجئ الحديـث عنا وعن علاقتنا ومشـاريعنا حتى تصبح أنت في موقع قوة. هي في الأول والآخر أمي ومن حقها علي أن تعلم كل شيء عني.

– ولكن الموضوع لا يتعلق بك وحدك..إنه يتعلق بي أنا أيضًا

– تقصد يتعلق بنا نحن الاثنين؟

أجابها متضايقاً:

– نعم.. نعم

– لم أنت منزعج؟ ألا تريد الزواج بي؟ ولذا من الطبيعي أن تعرف أمي بموضوعنا

– ولكني غير جاهز الآن؟

– ومتى تكون جاهزاً؟

– عليّ أن أسافر لتحصيل منحة الدكتوراة و..

قاطعته متسائلة:

– منحة الدكتوراة ؟!! كيف.. كيف لم تخبرني عنها؟

– أنا... في..الواقع.. أردت أن أتركها.. مفاجأة.

– مفاجـأة؟ خبـر كهذا كفيل بـأن تخبرني عنه فـوراً لا أن تنتظر

مصادفة لإطلاعي عليه.. كيف أمكنك ألا أشــاركك فرحتك؟؟ ثم ألهذا السبب كنت مشغولاً عني البارحة واليومين الماضيين؟

– أجــل.. مشــغول.. مشــغول طبعاً مشــغول.. دعينـــي الآن أكمل حديثي...

واســتطرد قائــلاً: ثــم علي أن أنهي خدمــة العلم ومــن بعدها عليّ تكوين نفســي وتأمين منزل يليق بإنســان مثلي يحمل شــهادة دكتوراة.
– آه.. يعني هذا بمجمله مشروع عشر سنوات؟!

– على الأرجح.

– وحين بُحْتَ لي بمشاعرك النبيلة وبحبك وبرغبتك بالارتباط بي إلى الأبد أين كان هذا المشروع؟؟

– أنا قبل سنة لم أكن قد خططت لحياتي بعد.

– تقصد أنك نضجت فجأة وأصبحت تملك ناصية التخطيط المبهر لحياتك الحافلة حضرة الدكتور المحترم؟

– أرجــوك لا داع للتلميح والســخرية.. نضجــت.. أجل نضجت.. وبدأت أنظر للحياة بمنظار الواقع وأنا كنت آمل أنك أنت أيضاً نضجت حتى لا تتســرعي بإخبار والدتك عنا كي تجنبي نفســك وتجنبيني هذا الموقف، وكان عليك ألا تضعيني تحت أمر الواقع.

– أمر واقع؟ أمر واقع؟ وكل ما تعاهدنا عليه.. كل هذا البوح.. كل هذا الشوق والحنين أصبح عندك أمراً واقعاً؟ ماذا حدث لك؟ لم تغيرت هكذا فجأة؟ أيمكن أن تكون منحة الدكتوراة قد غيرتك إلى هذا الحد؟

– افهميها كما تشـائين...المهم أنني لن أسـتطيع الذهاب والتعرف على والدتك، ثم من قال لك إن أهلي سيوافقون على الارتباط بك؟

– ماذا؟!

صاحت (يمان) بعد أن أحست بالإهانة تكسوها.

استطرد هو من غير أن يعي فداحة كلماته قائلاً:

– أجـل، البارحة فقط أخبرتني أمـي أنه علي أن أخطب ابنة عمي قبـل أن أسـافر، ومـن المحتمل جـداً أن يكونوا قد قـرأوا الفاتحة هذا الصبـاح. كمـا تعلمين نحن فلاحـون ولنا عاداتنا، وأنا لا أسـتطيع أن أُجَابِـه مجتمعي بأن أخرج عن القاعدة، ثم إن عمي قد قرر أن يمنحني أرضاً زراعية كهدية زفاف، وأن يسـجل باسمي المنزل الذي نقيم فيه حالياً والذي كان أبي قد استأجره منه منذ سنين.

لم تصدق (يمان) ما تسـمع.. أهذا هو نفس الشخص الذي أحبته؟.. أهذا الذي كادت أن تخوض المعارك لأجله؟

للحظـة شـعرت أن آلافًا من السـنين الضوئية تباعـد بينها وبينه.. سيطر فجأة عليها سكون غريب.... لم تعد تسمع شيئاً..... عاشت حالة الذهول كاملة.. كان يتحدث أمامها.. وهي ترقب شـفتيه تتحرك لتتفوه بالكلام، ولكنه كان مع ذلك يبدو كأخرس أبكم.. وكأن حنجرته ضاعت في مساحة الصدمة.. فجأة بدا لديها أنه كان يتحدث بدون صوت...!

لم تعد تسمعه.. أصبح بالنسبة لها مرآة تعكس ازدواجيته المخزية... فجأة أصبح أمامها ضعيفاً.. مزيفاً.

أدركت أن كل زمان يربطها به استـحال إلى لحظة مفعمة بالوجع

حين ألقى بكلماته أمامها وشَوّه كل جمال كان يوماً ينبض به.

أرعبها ما شعرت به.. أرعبها موت الحب بـ (خثرة الزيف).

لم تستطع أن تمنع هذيان الخذلان.. شدت قبضتها نحو قلبها وصاحت في نفسها.. لن أستطيع أن أحتمل هذا..!!

تركته ولم تنبس بكلمة.. تركته بعد أن تركت وراءها ظلالاً... باهتة راحلة... إلى الأبد..!!

مشت كعادتها حين يكسوها الحزن وتعثرت أكثر من مرة.. كان صدى صوته يثير ضجيجاً مربكاً في نفسها وأصبحت أصداء كلماته أنيناً موجعاً حين قلبت أوراق الذكريات أمام خاطرها الكئيب، أحست بذبح أحلامها على يد جزار مخادع.. آه كم تتألم..!!

راحت تتساءل بألم: أيعقل أن يتخلى عن حبه وعن وعوده لها بالوفاء طيلة الحياة؟ وأن لا شيء يمكن أن يبعده عنها.. أيعقل أن يتخلى عن هذا من أجل منزل سيقدمه له عمه هدية الزفاف؟؟ أيمكن أن تكون الانتهازية والطمع ملامح روحه؟؟ أيمكن أن يكون مُشَوَّهاً إلى هذا الحد؟؟ كيف لم تلحظ تَشَوَّهه؟؟؟

دخلت (يمان) المنزل مثقلة بالذهول.. ذهول من عبّ يوماً من كأس الخذلان بمثل هذه المرارة وتجرعها دفعة واحدة حتى الثمالة..!

سألتها جدتها بكثير من القلق:

– (يمان)..ابنتي.. مالك؟ لم أنت شاحبة هكذا ماذا حصل؟

– لقد اغتالني زيفه.. ونزفت ذاكرتي كل لقاءاتنا ووعودنا.. نزفت حتى الألم.. حتى النسيان.. لم أعد أثق بالثقة.. ولن أؤمن مرة أخرى بالكلمة..!

– ولكن ماذا حدث؟ ما هذه الكلمات؟ أنا لا أفهم شيئاً؟

– كنتـم على حق..– وانفجـرت بالبكاء – لقد كانت أمي مُـحِقَّة فأنا فعلاً ساذجة... ساذجة حتى الغباء..إنه مخادع..اكتشف الآن أنه مختلف عني وأني لا أناسبه وأن (ابنة العم) بانتظاره..! أنا منهارة.. جدتي.. أنا منهارة يائسة.. مخذولة.

بكـت الجدة من فرط حزنها على التيـاع حفيدتها الغالية، رغم أنها لم تفهم معظم كلمات (يمان) إلا أنها عرفت أن كل شـيء قد انتهى بين (يمان) و(يزن)...احتارت مشـاعرها المتعبة من عبء السـنين.. ماذا تقول في مثل هذا الموقف؟ حاولت أن تزيح عن حفيدتها غيمة الخزي والخذلان فقالت:

– حبيبتي لك أن تفرحي أنك كشـفت هذا الآن.. وأنت قوية بالشكل الكافـي وأن الحيـاة كلهـا أمامك فلا تستسـلمي لليأس.. مـن قال إنك مخذولة؟ إنه هو الذي خذل نفسه بنكران مشاعره ووعوده.. أنا أعلم أن هذا مؤلم، فصدمتنا بمن نحب تكون شـديدة الوطأة على نفوسنا، ولكن أحياناً أقدارنا تدفعنا لأن نشـرب من نهـر الصعوبات والمرارة لتذيقنا حـلاوة الحكمة والنضـج.. هيا يا ابنتي.. قومـي وتوضئي وصلّي لله ركعتين لأنه جعلك تكتشفين معدنه المزيف قبل ارتباطك به.. ما بك؟

أنـت (يمان).. (يمان) الفتاة الرائعة لـن تدعي لأول تجربة لك في الحيـاة فرصة الفـوز عليك... أرجوك... لا تخيبي ظنـي بك.... تحلّي بالصبر والأمل..!

انسـحبت (يمان) شبه مخدرة إلى غرفة النوم واستلقت على سرير جدتها وتساءلت عن الأمل؟

الأمـل هـل هو اختـلاق لفكـرة واهمة نرغـب بشـدة أن نصدّقها ونصادقها؟

أم أنها مسـاحة عديمة اللون غفل عنها رماد الزمن حتى لجأنا إليها وأردنا تلوينها باللون الذي نرغبه.. أو حتى نتوهمه؟

أم أن الأمـل أبسـط من ذلك.. فمـا هو إلا في الحقيقة تجسـيد حي لصورة إنسـان محب لديه المقدرة على نشر روحه بسلام رغم عربدة الحياة وتهكمها.. نحاول أن نتشـبث بيده.. بابتسامته.. بتعابيره.. نحاول ألا تحيد أعيننا عن مساراته حيث تلحق بها أمان عاشت زمن النوم ولم تعرف نشوة الصحو حتى عرفته..!

أم هو هدف نرغب بالوصول إليه.. أم هو حقيقة الإيمان..؟

لا أدري..! بل.. لا.. لا أعتقد أن الأمل موجود.. ولكني لن أستسـلم للخيبة ولن أسلّم قلبي من جديد إلى أحد، سأتذكر دائماً قول (بلزاك):

(دع عواطفك النبيلة في أماكن صعبة المنال.. حتى تكون زهورها موضع الإعجاب الشديد.. ولا تكن صارماً إلا على نفسك.!).

وسـأعمل بنصيحـة السـيد المسـيح (لا تـرم بلآلـئك تحـت أقدام الخنازير).

ولكـن أية آلام منيت بها نفسـي؟ وكأني ولدت مـع الألم.. والحرقة واللوعة.. كل ما حولي يدعو إلى التأمل اليائس حتى الانهيار...

فقدت أولاً والدي وعشـت اليتم رغم وجـود والدتي.. وتخليت عن حلمي بدراسة الطب وحولت مجرى مستقبلي وكأنني تحت تأثير تنويم مغناطيسـي لإرادة أقوى من إرادتي.. وبعـد هذا وبعد أن اعتقدت أني

وجــدت الحب.. مُنِيــتُ بصفعة مؤلمة.. موجعة مــن الزيف والخداع.. ففقدت ما توهمته كل مشاعري أنه.....الحب.!!!!

أشــعر وكأن في داخلي صرخة أليمــة ملتاعة، ولكني مازلت أملك تلك البسـمة الشـاحبة لن أتخلى عنها رغم الألم.. فعندما تولد البســمة بحزن على شفتي.. يزفر قلبي آخر شهقة من احتضار ألم دفين..!

سأتذكر هذا وسأبتسم رغم الحزن.. سأقهر الألم.. سأدفنه في داخلي.

لن أفقد إيماني بذاتي.

فتحت نافذتها ونظرت طويلاً إلى السـماء، كانــت عيناها الحزينتان ســماء أخرى أشــد عتمة ووحشــة حتى رقّت النجوم لهــا وودت لو تقيم فيها!!

واكتهــل الحزن على الليل حين تذكر ليالي طفولتها الباكية وســمع نــواح أيامها القادمــة، ودّ لو يضمها إليه بحنان لم تعرفه، فأرســل لها نســمة لتلثم الدمــوع في عينيها، فاســتكانت الدمعــة المتعبة وارتفعت عيناها المبتهلتان إلى السماء وقالت في نفسها:

هنــاك فــي الأفق البعيد.. هـناك حيث ترســم حمامــة بيضاء وجهاً طفولياً للحياة.. تحلو لعيني الســفر بعيداً.. بعيداً، ويغدو الحنان أوســع مدى من مسافة البعد في النفس الغريبة..

هنــاك حيــث لا ألــم.. لا قســوة.. لا حرقــة... أريــد أن أرحــل ....

(يمان) الحالمة... لم تأت ساعة صَحْوِك بعد!!ولكنك أبداً ستتذكرين تجربتك الأولى في أن تكوني – امرأة –!!

(9)

مرت أسابيع كانت خلالها (يمان) تحاول أن تمحو من ذاكرتها تلك الخيبة التي منيت بها.

فكرت أن تكتب له رسالة، فهي لا تستطيع مواجهته ولكنها ترغب بشدة أن يكون ما حدث مجرد حلم مزعج.

جلست ذات ليلة وخطت على الورقة أمامها......

أذكرك والأيام تجلد ذاكرتي بقسوة صامتة..

أذكرك والحنين إلى لحظة لقاء صافية يثير لوعة وحزناً

أذكرك وأنين الوحدة الموحشة يحرق لحظات الرجوع إلى الذات..

أذكرك واسمك أضحى غصة ملتاعة..

أذكرك وأنا في قمة الحب والأسى..

أتراني افتقدك أم فقدتك؟؟ يا لوعتي.. يا لوعتي أين أنا من لحظة يقين واحدة لمستقبل مجهول؟؟

أين أنا من ذاك اليقين.. يقين حضورك الأبدي؟؟

أتراني حقاً فقدتك؟؟ أتراها ستموت كل لحظات التوق إليك رغماً عني؟؟ أأظل أحاورك على ورق أبيض صامت يذكرني بكفني الموعود؟؟

أأظل أفتش عنك في الأوراق والدفاتر وعلى مقاعد الجامعة؟؟

لماذا كتبت علي أن أعيش فجيعة فقدانك وابتعادك عني؟

كان تصريحك برغبة أهلك لتزويجك من ابنة عمك قاسياً.. أقسى من جرح في عين طفل.

أيها الجاحد أحببتك ونذرت نفسي لعينيك التائهتين وجعلتك بطلي الأسطوري في حقول الحب ومزارع الدفء.

أيها الشقي.

أشقيتني مرتين: مرة بحبك ومرة بهجرك.

دمرت كل لحظة توق لرؤيتك وقتلت كل برعم شوق لأجلك.

كم هو موجع ومؤلم أن نفترق.. أن ننتهي قبل أن نبدأ!!!

أدرك الآن أن حبي لك أيام جريحة.. ودرب ضبابي.

لـم (يزن)؟؟ لم تخليت أنت أيضاً عن حلمـك؟؟ ألم أكن حلمك؟ ألم أكن أميرتك؟؟

أميرة متوّجة أنا اليوم.. بلا إمارة.. بلا شعب..!

كيف رميت بكل أحلامنا خلفك؟

(يزن) سأترك لك فرصة التفكير وسأمنحك عطاء السماح.

أرجوك لا تغتال أنت أيضاً حلمي.

(يمان)

أرسـلت الرسالة مع أحد أصدقاء (يزن) وانتظرت طويلاً... رداً لم يأت..!

وكانـت المسـكينة أقصى ما تتحاشـاه تلـك النظـرات التي كانت ترمقهـا بها أمها من حين لآخر تذكرها بأنها كانت مُـحِقَّة حين اتهمتها بالسذاجة..!

حاولت أن تنغمس أكثر في سماع الموسيقى أو في القراءة..إلا أنها كانت تحمل خيبتها في كل التفاتة لها..(يمان).. مازالت حالمة..!

لـم تحـاول ولو لمرة أن تنغمس أكثر في الواقـع رغم تلك الصفعة الواقعيـة المؤلمة التي مُنِيَت بها.. ظلـت روحها مصرّة على المثالية.. على التحليق بعيداً.

مشكلة (يمان) أنها كانت أكثر طهراً وبراءة مما يحتمل الواقع..!!!

و أنها كانت تعيش عالمها الداخلي البريء في غابة الواقع الشاسع.

كانت ذات روح متسـامحة تنم علـى طيبة وعطاء مطلق.. روحها الطيبـة أعجز من أن ترد الإهانـة.. دائماً هي تُـحَلِّق في أبعد مدار عن محور الأنانية، فهي نموذج من العطاء في أسطع صورة.

العلاقـات الإنسـانية لديهـا أبعد ما تكـون عن مفهـوم الأغراض والمصالح الشـخصية.. فابتلعتها لذلك أغراض ومصالح الآخرين كما سينكشف لديها ذلك في صفحات عمرها القادم.

(10)

كعادتها تمضي أكثر أوقاتها لدى ملجئها الدافئ؛ منزل جدتها.. وفي أحد الأيام جلست في المطبخ؛ المكان المحبب لديها، وأخذت تتناول وجبة شهية من وجباتها الحلبية المشهورة بطيب المذاق واستثنائية الطعم.. وقالت وهي تتمطى:

– الله الله ما أطيبها يا جدتي.. أكلاتك الشهية عصيّة على أفضل طباخي العالم.. همْ همْ.. يا الله كيف تصنعينها؟أنت غير معقولة..!!

– (يمان)ي الحلوة أنت دائماً تفرحيني بكلماتك، كم أنت رقيقة وطيبة.. تذكريني دائماً بوالدك.

– آه جدتي.. حدثيني عنه

– حسن.. حبيبتي.. ولكن عليك الانتهاء من طعامك أولاً، وأن

تكتفي بهذا القدر من الطعام وإلا سـينتهي بك الأمر لكي تكوني بدينة، واعملي لنا فنجاناً من القهوة لكي أعدل به ذاكرتي الهرمة.

ضحكـت (يمان) وأسـرعت كي تنهـي طعامها حتى تبـدأ بصنع القهوة.

اعتدلـت الجدة في جلسـتها وراحت تمـرر أصابعها بين خصلات شـعر (يمان)، التي كانت تضع رأسـها على حضن جدتها وسـرحت بنظرها بعيداً وقالت:

– والـدك كان طفلاً شـقياً وكثيـر الحركة، ولكنـه كان في الوقت نفسـه ذكياً مـدركاً لكل الأمور، هـو طفل مع الأطفال وسـيد الرجال مـع الرجال، عفوي ومحب.. طيب القلب مسـاعد للآخرين.. مسـتقل يحـب الاعتماد على نفسـه كثيراً.. يثق بقدراتـه.. ويعجب بكل من هو قوي وواثق.. يعتبر المتشائم إنساناً نصف مهزوم سلفاً ولذلك كان دائم التفاؤل.. ولكن المرض اللعين غدره وخذل تفاؤله.

ارتجف صوت الجدة.. وغصت بشهقة حاولت أن تكتمها عن (يمان)، إلا أن الأخيرة سـرعان ما انتبهـت لعيني جدتها المغرورقتين بالدموع، أرادت بعدها أن تثني جدتها عن الاسترسال إلا أن الجدة قالت:

– دعيني.. فأنا أحب ذكراه.. فذكراه وحدها تشـعرني بأني مازلت حية..!

اختنقـت كلماتهـا لفترة تحدثت فيها (يمان) لنفسـها.. وهي تشـعر بالذهـول من جدتها ومن ثقافة مشـاعرها وكيف لا وجدتها كانت يوماً من أوائل مديرات المدارس من بنات جيلها.

استعادت الجدة اتزانها من جديد وتابعت حديثها:

– آه يا ابنتي رغم حبه الشديد للحياة هاجمه ذاك المرض الخبيث.. وفتك بكل بشائر الفرح لديه وقضى عليه، رحمه الله.

قالتها بِغُصَّة وبألم، كلمات هي من أقسى ما يمكن أن تحمّله الحياة لأم.. أن تَتَفَوَّه أم وتقول رحمة الله على ولدي........!

تابعت بعد أن جالت في عينيها سحابة حزن لوّنت بياض عينيها بحمرة الدمع.

لقد أحبك كثيراً وما زلت أذكر لحظة ولادتك حين بشّرته بأنه قد أصبح أباً لفتاة رائعة الجمال، حملك بين ذراعيه وبعد أن تأمل وجهك رفعك عالياً نحو السماء وصاح بفرح:

– أمي هاهي شمس جديدة تسطع في سمائي..!

لا أذكر كم مرة كان يحملك في اليوم على ظهره، وحين أصبحت في الرابعة من عمرك كنت أصرخ في وجهه.. كفى إنك تفسدها دلالاً وغنجاً.. وكان يرد عليّ: ابنة (أياس) لا تفسد يا أم (أياس)، إنها قوية وذكية كوالدها.هه.. هه.

كنت رفيقة فرحه.. وتوأم حبوره.. كان يقرأ لك في كل ليلة قصة ويحاول المستحيل كي يجبرك على أن تمسكي بها معتقداً بأنك حين تعتادين على مسك الكتاب فإنك لن تستطيعي التخلي يوماً عن المطالعة.. فقد كان يحب المطالعة.. يقرأ كل شيء تقع عيناه السوداوان عليه.. شديد الثقافة، هو يحب أن يطلق على نفسه لقب (فأر كتب)، وأذكر كم تجادل هو وأمك بسبب جلوسه وحيداً في غرفته ليطالع كتاباً ما.. صدى صوته ما زال في أذني:

- القـراءة تغريني يـا امرأة..إنها تعني لي الحيـاة.. وأنا حين أقرأ كتابـاً أكـون كمن يفتـح محارة ليصطـاد اللؤلؤ منها.. أنـا صياد لؤلؤ الكتب، ولكنك في محارة حياتي أروع لؤلؤة..!!

صـوت جدتها أخذ يشـعل قناديـل الذاكرة لديها.. عبثـاً حاولت أن تتذكر صوته أو صورته، فجاء كل شيء ضبابياً لم تدر ما السبب؟؟

لعلـه من المؤلم أن تكبر مسـاحة الغضب المسـتتر فـي اللاوعي لدينا حتى تحتل مسـاحة الذاكرة، فتكون قـادرة أن تمحو ما قد أحببناه يوماً..!!

قد تكون (يمان) في أعماقها تشعر بالغضب والحنق من رغبة أبيها التي وجهت لها مستقبلها الدراسي وبالتالي المهني باتجاه مخالف تماماً لإرادتها ورغبتها الحقيقية، ولكنها لا تستطيع الاعتراف بذلك أمام نفسها فيستتر الغضب والرفض الداخلي ويزحف بصمت لا تدري هي به.

لاحظت الجدة شرود (يمان) وحزنها الخفي فسألتها:

- ما بالك ابنتي؟؟ لم الحزن؟ أنت من طلب مني أن أحدثك عنه.

انفجرت (يمان) بالبكاء ورمت نفسها في حضن جدتها وقالت:

- جدتـي.. كـم أنـا حزينـة.. فأنـا لا أدري بـأي لغـة سـأكتب مستقبلي..!!

سـمعتها الجدة ولم تفهم شيئاً سـوى أن حفيدتها حزينة..!! فضمتها بحنان كعادتها دائماً.

غادرت منزل جدتها بعد أن شربت معها فنجاناً من القهوة المحمصة

بآلة التحميص الخاصّة بالست جليلة، والتي تعتز بها أشد الاعتزاز، وهي آلة أسطوانية الشكل تدور حول محور أفقي بشكل يدوي ولها فتحة صغيرة تفتح لتدخل فيها حبات البن الشقراء الذهبية، ثم يغلق عليها كما تغلق أبواب السراديب.. كانت الجدة تقلبها بهدوء على النار بشكل متواتر فتسمع حينها ارتطام حبات البن بجدران المحمصة وتنتشر حينها رائحة شهية متفرّدة بذاتها هي رائحة البن المحمص..!!

بعد ذلك تأخذ حفنة من ذلك البن والذي كانت قد رمت به خارج فوهة المحمصة على بساط خاص به ليستقر عليه، والدخان يتصاعد من حباته التي أصبحت سمراء شهية كرائحته التي سرعان ما تحتل فضاء المنزل بأكمله، ومن ثَمَّ تترك تلك الحفنة لتبرد قليلاً لتضعها في خطوة أخرى داخل طاحونة يدوية نحاسيّة صفراء اللون، احتلّ لون حبات البن المحمصة بعضاً من أجزائها واتحد معها ليشكلا معاً أنموذجاً خاصاً من الألفة والتآلف، ثم تضيف إليها حبات الهال التي قامت بتقشيرها حبة تلو الحبة بكل هدوء وأناة، لتبدأ بعدها عملية الطحن وهي تسند بكل احتراف الطاحونة على ركبته، فتقوم بتدوير وطحن حبات البن بواسطة تحريك لولب صغير في أعلى الأسطوانة بيدها لتصنع بعد انتهائها من تلك العملية المحببة إلى قلبها أشهى فنجان قهوة على الإطلاق..!

هكذا هي (يمان) كلما تشعر بالوحدة والغربة في منزلها تهرع إلى منزل جدتها لتلتمس ملامح الحنان والحب من كل زواياه.

سارت وحيدة تفكر فيما سألت عنه يوماً جدتها:

– لم أنت هكذا وحيدة؟؟ لم لست محاطة بالأصدقاء، أو لمَ ليس لديك صديقة على الأقل؟

فكرت وقالت في نفســها: أنا إنســانة محبة، كيف تجاهلت صديقتي العزيزة (ألما).. صديقة الطفولة بسبب انشغالي مع (يزن) طوال السنة الماضية؟.. سأعاود الاتصال بها، لقد اشتقت إليها.

عادت إلى المنزل وأمسكت الهاتف واتصلت بصديقتها التي فوجئت مع كثير من الفرح بصوتها:

– معقول؟؟ أهذا أنت أيتها الغالية؟؟ كيف حصل هذا؟؟

– كفاك تهكماً ولوماً مع أنني أســتحقهما، ولكني وجدتني مشــتاقة إليك، هل باستطاعتي رؤيتك؟؟

– طبعاً على الفور

– إذن أرجــو أن نتقابل في الحديقة العامة، وســأنتظرك عند الباب الرئيسي بعد نصف ساعة من الآن.

التقتــا وتعالت صيحاتهما فرحاً باللقاء، وبصعوبة تمالكتا نفســيهما منعاً للعناق خجلاً من المارة والفضوليين، دخلتا بعد ذلك ساحة الحديقة العامــة، تلــك الحديقة الباذخة الجمال والتي نُسِّــقَت على شــكل حديقة قصر فرســاي المشــهور في فرنســا.. ســارتا جنباً إلى جنب تتأملان روعة الزهور المتناسقة المزروعة هنا وهناك، وراحت (يمان) بخبرة العــارف والــدارس لأنواع الزهور تشــرح لصديقتها عــن كل نوع.. وصديقتها فرحة بها وبالمعلومات القيمة المنهالة عليها.

قادتهما خطواتهما نحو ساحة الحديقة فتأملتا روعة البِرَكِ المنتشرة فيهــا، وراحت (يمان) برومانســيتها المعهودة تلفت نظر صديقتها إلى عناق المياه المنبعثة من النوافير وتشير بإعجاب إلى رقصة الماء التي أسمتها رقصة (عناق الحب والحرية).

وبعـد أن اعتلـى التعـب عضلات قدميهمـا تهالكتا معـاً على أحد المقاعد الخضر المنتشرة أمامهما، وتهادى إلى مسمعيهما صوت المياه المتدفقة من النوافير المنتشـرة في البرك يتخلله بعض أصوات المارة والأطفال الذين تنتشر ضحكات طفولتهم البريئة بكل ضجيج وصخب الحياة..

وبينما هما جالستان تتحادثان في أمور مختلفة تهمّ من هن في مثل عمريهما.. تناهى إلى مسمعيهما صوت أم كلثوم المنبثق من مذياع أحد الباعة المتجولين تغني:

(أنساك؟! ده كلام.. أنساك يا سلام!!).

هنا.. لم تستطع (يمان) أن تمنع نفسها من أن تذرف دمعة جالت في مقلتيها طوال استماعها للأغنية.

لاحظت (ألما) الدموع في عيني صديقتها فقالت لها:

- (يمان) حبيبتي.. بوحي لي بسر بكاءك.

نظرت إليها (يمان) وكأنها مسجون ينتظر فسحة من التنفس

سـحبت تنهيدة طويلـة وراحت تمسـح دموعها ثم استرسـلت في اعتراف مشتاق لأذن متفهمة وصديقة تسمعه..! مر دموعك الغالية

استدارت نحو (يمان) قائلة:

- (يمـان).. الذي حصل شـيء مؤلم ولكننا في هذه الحياة نسـتفيد من الألم..

أنت إنسانة شفافة ولكنك أيضاً قوية مثل الماء.. شفافة رقيقة ولكنك

تمتلكين القوة لِحَتّ أقسى الصخور.. كما أنك تمتلكين فلسفة الماء، فأنت لا شيء يقف أمامك، وتستطيعين اتخاذ شكل الأواني أو المسارات التي تصادفك.. أنت نفسك ذات يوم قلت لي هذا الكلام.. فأرجوك (يمان) إنه لا يستحق أن تذرفي دمعة من أجله.. انهضي من ألمك وسيري في طريق الثقة بمستقبل أفضل..!

ـ أعلم أنه لا يستحق دموعي.. فهو إنسان لا يحترم عواطفه أو عواطف من أحبه، ولكني متألمة لمشاعري التي كانت تركض في ساحات الحب مكسوة بالبراءة والأمل.. كان شيئاً رائعاً ذاك الإحساس بالحنين والشوق والفرح واللهفة.. وفجأة انقلب كل شيء إلى وهم أو خدعة كبيرة.. تماماً كانت فرحتي بهذا الحب الواهم كفرحة طفلة بفقاعة صابون تتلون بألوان الطيف كأحلام من يرقبها، وبعدها غمرني حزن هو بحجم الخيبة الحاصلة حينما انفجرت تلك الفقاعة فجأة.

ـ نصيحتي لك أن تطوي صفحة الماضي وانظري لكل خسارة على أنها ربح تعلمت منه الكثير.

ـ أجل.. أجل شكراً لأنك بجانبي.. كم كنت أتمنى لو أني أستطيع أن أبوح بآلامي لأمي. ولكن هذه مشكلة أخرى بالنسبة لي، فأنا لا أستطيع التواصل معها فهل هذا شيء طبيعي؟؟ هل أنت كذلك مع أمك؟؟ أرجوك.. أرجوك.. قولي لي هل هذا شيء طبيعي؟؟

ـ في الحقيقة أعانك الله عليها هي سيدة صعبة المراس ولكنها في النهاية أمك وبالتأكيد هي قلقة عليك وتخاف أكثر مما تعتقدين على مشاعرك، ولكن يبدو أنها لا تملك مفاتيح الحوار.

ـ مفاتيح الحوار؟!! أجل أنت محقة، نحن ينقصنا لغة الحوار

ومفاتيــح عوالمــه.. كم هــو رائع لو أننــا امتلكنا ذلك، هــل تدرين أننا بالحــوار وبالإضافــة إلى عاطفة صادقة نســتطيع أن نفعل المعجزات وأن نقهر المستحيلات.

– نعــم ولكن مــا العمل؟ يبدو أحيانــاً أن الفارق العمــري وبالتالي الثقافي بين الأجيال يحول دون ذلك.

– ولكــن لمــاذا أســتطيع أن أحاور جدتــي؟ معها أشــعر أني أفكر بصــوت عالٍ وهي تســمعني بدون أن أتكلم، ترى هل الســبب فقدانها المؤلم لوالدي جعلها تحتويني وتنصهر بي كل هذا؟ وهل كانت حاجتنا المتبادلة لاستنشاق رائحته من خلال عناقنا وحناننا وفهمنا لبعضنا هي السبب؟ لِم لم يحصل هذا مع أمي؟؟

– (يمان).. حبيبتي هنالك فروقات شخصية وسلوكية ونفسية أيضاً تعلميــن هذا جيــداً كفاك الآن تســاؤلات ودعينا نعود إلــى المنزل فقد تأخرنا قليلاً.

رجعــت إلى منزل جدتها وهي تشــعر بالارتياح الممزوج بالحزن بعد أن أخبرت صديقتها عن كل ما يؤلمها.. جميل هو شــعور الامتنان لوجود صديق يستطيع أن يحتضن حماقاتنا وأن يفهم أخطاءنا دون لوم أو عتب..! هذا ما أسرّته (يمان) في نفسها.

(11)

مازالــت تنتظر نتائج امتحاناتها بفارغ الصبر، فهي تتوق للانعتاق مــن كلية لم تشــعر يومــاً بالانتماء إليهــا.. فكرت كيف ســبقها (يزن) بالتخرج بعدما حملت هي بعض المواد بينما نجح هو في اجتيازها.

وأثنــاء ذلك الانتظار للنتائج كانت أيامهــا تتجول بين دروس اللغة الفرنســية والإنكليزية والقراءة وبعض اللقاءات مــع صديقتها (ألما)، وفــي أحيــان كثيرة تمضــي أوقاتاً حلوة مــع أختها الصغــرى وأخيها محاولــة أثناء ذلك أن تبني جســوراً مــن التواصل الخفــي بينها وبين والدتها التي كانت مســرورة في أعماقها لتجاوز ابنتها محنة الارتباط الفاشل بذاك الشاب المستهتر.. أما واحتها (بيت الجدة) فقد كانت تقضي فيهــا الوقت الأعظم.. والأحب إلى قلبها..! فالأحاديث والذكريات التي تتحفها بها جدتها عند كل مســاء وهما ترتشفان فنجان القهوة أو شراب

البرتقال الشــهي واللذيذ المحضر من أنامل جدتهــا الغالية كانت لديها من أفضل الأحاديث.. فلياليهما الطويلة المزركشة بالذكريات المتنوعة والشــائقة للسيدة جليلة كانت بمثابة مسلســلات من الذكريات الدرامية الغنية بالأحداث.

فـ(جليلة خانم) سـيدة مثقفة، ولدتِ أوائل القرن العشرين عام 1902 ودرســت أيام العثمانيين (العصملي) على حد تعبيرها وهي تنحدر من أســرة عريقة (أكابر)، وقد أصرّ والدها على تدريســها رغم معارضة أكثــر المحيطيــن به، إلا أنــه وبفكره المتفتح أرســلها إلــى (الخوجة) وهــو مــكان لتعلم القــرآن الكريم، معتبــراً أن العلــم فريضة على كل مســلم ومســلمة، وانطلاقاً من هذا المبدأ ألحقها بمدرسة، نالت خلالها شــهادة (الســرتفيكا) مَكَّنَتْها آنذاك فيما بعد من أن تصبح مديرة لإحدى أوائل دور الحضانة في حلب، كما أنه لم يمانع من تلقينها دروســاً في الموسيقى والعزف على العود على يد أحد الأساتذة الكبار بعد أن لاحظ ميلها وحبهــا للطرب الحلبي الأصيل والمشــهور به معظم أبناء حلب تلــك المدينــة العريقة، ولكــن طبعاً كان يتم ذلك بوجــود أحد من أفراد عائلتها الذكور حصراً.

تزوجت في السادســة عشــرة مــن عمرها وقد كانــت محظوظة؛ إذ تزوجــت من صبري أفندي رغم أنها في السادســة عشــرة وقد كاد قطار الزواج يفوتها مقارنة بســن الزواج وقتئذ، ولكنها وبسبب جمالها وتعليمها وحسن أدبها وعراقة عائلتها تجاوزت تلك المشكلة..!!!!

أنجبــت منــه أولادها الخمســة ومنهم (أيــاس) والد (يمــان) عام 1920م.

كثيرة الاعتداد هي بنفسها، فتمتعها بكل المزايا السابقة بالإضافة إلى جمال صارخ يصافح الذكاء تعابيره.. كل ذلك ولّد لديها ثقة كبيرة واعتزازاً بنفسها أبعد ما تكون عن الغرور.

وجليلة خانم كثيرة الاهتمام بالأخبار السياسية؛ فالمذياع (الترانزيستور) رفيقها الدائم الذي تنصت لثرثرته بحب بالغ، وذات مرة سألتها حفيدتها عن سر هذا الاهتمام بالأخبار السياسية، فأجابتها:

– يا ابنتي كثيرة هي المصادفات التي شاءت لتواريخ في حياتي أن تكون تواريخ لأحداث سياسية هامة في سوريا.

– حقاً؟؟ مثل ماذا جدتي؟

فأجابتها وهي تذكر بشيء من الألم الممزوج بالاعتزاز:

– آه يا ابنتي.. حين ولد أبوك ولدت معه أحداث سياسية كثيرة على الساحة العربية ما زلت أذكر معظم تفاصيلها.

– وما هي تلك الأحداث؟ أرجوك أخبريني عنها.

– مازلت أذكر قرار (سان ريمو) 25 نيسان 1920 وكان ذلك تماماً بعد ولادة (أياس) بثلاثة أيام.. فقد نص هذا القرار على انتداب فرنسا لسوريا ولبنان، هذا الانتداب الذي رفضه السوريون والعرب بشدة والذي ثارت من أجله ثائرتهم.

– ولكن ماذا عن العثمانيين؟؟ ألم يكونوا في سدّة الحكم؟؟

– العثمانيون يا حبيبتي هزمهم جيش الشمال العربي بقيادة الأمير فيصل بن الحسين في شهر أيلول 1918 وقد استبسل الجيش في نضاله

حتـــى أوصل الجيوش العثمانية المتقهقرة إلـــى كيليكية، والتي أجبرت بعد هذا الحكومة التركية على طلب هدنة تمت في 30 تشــرين الأول، والتي تقضي بجلاء جميع الجنود الأتراك عن جميع بلاد العرب.

– يا الله.. وماذا حصل بعد رحيلهم؟هل سادت الفوضى في البلاد؟

– آه يـــا ابنتي لـــو تدرين ما حصل، فالطامعـــون في خيرات بلادنا كُثر. المهم بعد ذلك وفي آذار أصدر الملك فيصل الأول مرسوماً ملكياً بتشكيل وزارة سورية برئاسة (رضا ركابي) و(رياض الصلح) وزيراً للداخلية، وتم تعيين يوسف العظمة رئيساً للأركان.

– هذا جيد ولابد أنه كان مصدر ســعادة وفرح للشعب السوري أن يحصل على اســتقلاله من ذاك الغول العثماني الذي جلس متربعاً على ممتلكات وخيرات بلادنا قرابة أربعمائة ســنة، يمتص دماءنا وينشــر الجهل والخرافة والكسل في عقولنا العربية.

– لا يـــا ابنتـــي ليس هذا ما حصل، فالســـوريون لـــم يتمتعوا كثيراً باســتقلالهم عن العثمانيين، إذ كانت السياســـة السرية للحلفاء تعد العدة للسيطرة على بلاد العرب، فكان قرار (سان ريمو) الذي أخبرتك عنه، فما كان من حكومة الركابي إلا أن أدخلت التجنيد الإجباري وبدأت تعد العدة للمقاومة، وأنشأت من أجل تلك الغاية جيشاً نظامياً.

– الله.. الله يـــا جدتي ذاكرتك قوية. أكملـــي.. أكملي.. جيش نظامي هذا أمر مثير للاهتمام!

اعتدلت الجدة في جلستها، وبعد أن قامت يداها بعدة حركات لولبية على ركبتيها وقالت:

ـ آه مـن الكبـر.. والله الهيئـة أصبحت عجوزاً ، هـذا الروماتيزم اللعين يرفض أن يترك مفاصلي وشأنها.

ولكن (يمان) تَرَجَّتها قائلة:

ـ هيـا جدتي.. هيا دعينـا الآن من الروماتيزم وهمـه و أكملي ما حدث، أم تراك مثل المسلسـلات التلفزيونية تنتهجين أسلوب المماطلة والتشويق؟؟

ضحكت الجدة بصوت عالٍ وقالت:

ـ لا فائدة منك، دائماً تنتصرين عليّ.. حسـناً سأكمل.. واستطردت قائلة:

ـ وفـي 14 تموز 1920 وجه اللعين (غورو) إنذاره المشـؤوم إلى الملـك فيصل لقبوله، ممـا أثار قلق وحيرة هذا الأخيـر، وخاصة بعد أن أدرك هشاشـة الجيش الناشـئ الذي أعده الركابـي وانعدام خبرته وضعف عتاده، مقارنة بالجيوش الفرنسـية، وهنا أشـار عليه الركابي بأن يقبل الإنذار. كانت هذه حقيقة مرّة أدركها متأخراً..

أطرقت (يمان) قليلاً تفكر في سـرّها وهي تردد آخر عبارة قالتها الجدة: (كانت حقيقة مرّة أدركها متأخراً..)، ثم قالت في نفسها:

دائماً الحقيقة هي مركز نرسم منه دوائر لحقائق مشوهة أو مزورة نسـتعرض مـن خلالها قدرتنا علـى التزييف والوهم فتكبر مسـاحات خسائرنا وتتسع باتساع زيفنا ووهمنا.

أعادها صـوت جدتها المسترسـل إلى الواقع وعادت تسـتمع إلى

تاريخ صرخ يوماً من وجع الذاكرة.. إذ تابعت الجدة قائلة:

– سـادت الفوضى واشـتد الهياج والغليان في الشارع العربي بين صفوف الشـعب وأقيمت المظاهـرات وتعالت الهتافات في كافة أنحاء سورية بعد إعلان الملك فيصل قبول الإنذار، وعلت نداءات الاحتجاج واقتحـم المتظاهرون سـجن القلعة وأخذوا السـلاح المدخر المخبأ في مسـتودعاتها وحرروا السـجناء، وعم الشـغب وسـادت الفوضى في البلاد، ولم تهدأ إلا باستقالة وزارة الركابي. وتم تشكيل وزارة الحرب برئاسة (هاشم الأتاسـي) الذي أصدر أوامره بالزحف إلى دمشق، فقد قررت الحكومة السـورية الدفاع عن البلد حتى آخر قطرة دم، فأعلنت الحرب على فرنسا يوم 21 تموز 1920، وتدافع الرجال الأبطال للتطوع ولخوض المعارك من أجل سيادة سورية.

وفي صباح 24 تموز 1920 دارت معركة (ميسلون) بين السوريين الذيـن لا يتجاوز عددهـم ثلاثة آلاف مقاتل، حاملين ما تيسـر لهم من أسـلحة تمثلت ببنادق وعِصِيٍّ ومعدات بسيطة، وبين الجيش الفرنسي المؤلف من تسعة آلاف جندي مزود بعدد كبير من الرشاشات والدبابات والطائـرات.. كانـت معركة غير متكافئة اسـتمرت حوالي سـاعتين استبسـل فيها أبطالنا حتى النهاية، واستشـهد الكثير من الرجال يفوق عددهم 800 شهيد، وعلى رأسهم الزعيم البطل (يوسف العظمة).

لم يأبه الفرنسـيون بجثث الشباب والرجال الغارقة في بِرَكِ الدماء والمنتشـرة هنا وهناك، وسـاروا فوقها بكل وحشـية وصفاقة ودخلوا دمشق في 25 تموز 1920 واستقالت على أثرها وزارة الأتاسي.

أطرقت (يمان) تفكر بأسـىً: ما أسوأ سماسـرة الموت.. يتاجرون

بالموت على أنه الحياة.. هل نستطيع أن نلصق النوايا الحسنة بأخلاق القتلة..؟؟ أو أن نسلّم بملامح نعجة على وجه ذئب..؟ كيف يمكن أن نصدق بشاعة الخديعة أو أن نعتبر الأكفان المهداة من الأعداء أثواب عرس..؟؟ هل يمكن أن نعتاد على الابتسام في وجه من اعتاد رؤية قتلانا..؟ أو أن نشكره على الزهور التي سيضعها على ضريح عزتنا ؟؟ أي ادعاء كاذب بالحفاظ على سلامة أوطان لا ينتمون إليها تحت اسم الوصاية أو الانتداب.. الانتداب!! لعلها مفردة تدل على مقبرة للوطن المنتدب.. ثمة تجار لا يعرفون إلا أزيز طلقات الرصاص ثمناً لأطماعهم ووحشيتهم، يأتون من أقصى بقاع الأرض ليمدوا الموت والجثث جسراً يصلهم بأطماعهم.. هم مجرمون ببدلات عسكرية ورتب جنرالات قلما ينسوا أن يتقلدوا بالأوسمة التي يدلّ كل منها على محنة أمة أو نزيف وطن.

عادت (يمان) إلى حديث جدتها بعدما سمعت سعال تلك الأخيرة:

ـ هه.. وماذا حدث للملك فيصل؟؟

ـ حسبما أذكر بعد دخول الفرنسيين إلى دمشق بأيام قليلة أي في29 تموز في العام نفسه غادر الملك فيصل سوريا إلى حيفا، ومن ثَمَّ إلى لندن، بينما عاشت سوريا ظلام سجن كبير قاسٍ وبارد هو سجن الاحتلال الفرنسي.

ـ يا إلهي.. كل هذه الأحداث في عام واحد.. العام الذي ولد فيه أبي؟؟

ـ أجل يا حبيبتي، ومن المثير أيضاً تاريخ ولادة أخيك (غياث)، فقد ولد في عام جرت أيضاً فيه أحداث هامة وكثيرة.

ـ غياث..؟ وهل تذكرين أيضاً أحداثها؟

ـ بالطبع، وهل أنا جاهلة مثلك؟؟

ـ حسناً أخبريني عنها.

ـ كفاك الآن.. هيا لقد تعبت

ـ لا.. لا، لـن أبـرح مكاني حتى تخبريني بما حـدث يا أدق كتاب تاريخ عرفته..!

ضحكت الجدة لهذه التسمية وقالت:

ـ يا لك من شـقية..! حسـنا ولكن عليك أن تحضري لنا فنجاناً من القهوة ريثما أصلي المغرب، وبعدها أكمل لك المسلسل التاريخي.

ـ سأفعل ولا تنسني من دعائك.

توجهت جليلة خانم للصلاة، وقفت بكل بهاء في حلة بيضاء (ثوب الصلاة) على السجادة المخصصة والمزركشة برسومات إسلامية ذات ألـوان متناغمة مريحة للعين، وطفقت تصلي وتتجه، كانت مشـرقة.. يصافح وجهها نور وكأنه نور مسـتمد من رضا السماء، فأضفى بذلك عليها إشـراقة الإيمان وملامح امرأة تسكنها الطمأنينة والتسليم بقضاء الله.

دخلـت (يمـان) الغرفة يسـبقها إليها عبـق القهوة الفريد ممسـكة بالصينية الحاملة للفناجيـن ووضعتها بكل هدوء على منضدة صغيرة محببـة إلى قلـب جدتها؛ إذ كانت تذكاراً من أمها الراحلة وهي منضدة ذات أرجـل طويلـة نحيلة تعب الحفر على سـطحها الدائري من كثرة

متاهات الزخارف والرسوم وجمال التشكيلات المطعمة بألوان الفسيفساء، أما (عرق اللؤلؤ) فقد أضاف إليها بريقًا جعلها بحق تحفة فنية بروح شرقية..!

تأملت (يمان) جدتها وهي تتمتم في صلاتها بصوت خفيت جداً بالكاد أن يسمع وراحت تتساءل عن سر الإيمان الذي يسكن صدور البشر..؟!

كان شيئاً ما بداخلها يحدثها بأن الإنسان سيبقى غارقاً في وحل الأنانية ما لم تسمُ روحه وتطهر بماء الإيمان حتى تغسل عنه أدران الرغبات والأهواء، وحتى يدرك أن الله هو الحقيقة المطلقة وهو البداية والمنتهى، وتذكرت قولاً كانت قد قرأته يوماً في أحد الكتب: لو لم يكن الإله موجوداً لاخترعناه..!

أنهت الجدة صلاتها وترنحت قليلاً بعد أن أتعبها الوقوف بعض الشيء، فهبت حفيدتها لمساعدتها في الجلوس وهي تقول:

– تقبل الله يا حاجّة..!

– منا ومنكم صالح الأعمال.

استوت الجدة على الأريكة ممسكة بفنجان القهوة وعلى وجهها ابتسامة رضا، فقد كانت من عشاق القهوة، وبدأت ترتشف بكل غرام واستمتاع قهوتها اللذيذة، وبعد أن تذوقت ثلاثة رشفات متتاليات وكأنها تريد أن تختصر شوقها لفنجان قهوة بعد حديث ذكريات طويل قالت:

– سلمت يداك يا جليلة على هذه القهوة..!

فاعترضت (يمان) وقالت:

– ولكني أنا من صنعها.

– حقاً ومن قام بتحميصها وطحنها؟؟

– أنـت علـى حق.. هيا.. هيـا لا تغيري الموضـوع وحدثيني عن غيـاث وافتحي من جديد كتاب التاريخ وأدخليني بوابته التي مرت من تحت نافذة أيامك.

– حسناً يا عزيزتي.. وُلِدَ أخوك فجر 29 أيار 1945، وهو يوم مهم في تاريخ سوريا التي كانت آنذاك برئاسة شكري القوتلي.

ففي فجـر هذا اليوم توجهت المدرعات الفرنسـية في دمشـق إلى المجلـس النيابـي وحاصرته من كافة جهاته، وكان القائد الفرنسـي قد طلب من الحامية السـورية أن تنحني وتحيي العلم الفرنسـي، فرفض الأمرَ جميعُ رجال الحامية، مما أعطى هذا ذريعة لهمجيته ووحشـيته، فدعـا رجاله الفرنسـيين إلى إطـلاق النار على المجلـس النيابي وإلى تهديم واجهته وبعض أقسـامه، وقد استُشْـهِدَ جميع من كان بداخله من الشرطة والدرك.

هنا فكرت (يمان).. ما أقدس الشـعب الأعزل من السـلاح المدجج بالكرامة والعزة.. ثمة أمر لا مجال للمساومة فيه لدى الشعب السوري.. عزتـه وإبـاؤه.. قد يغادر بخطى واثقة إلى قبـره ولا يرضى أن تغادر من مسـاماته وطنيته و شرف انتمائه، أو أن تمحى من ملامحه سمات الكبرياء، لم يدر أولئك الفرنسـيون أن سـطوة عشق الوطن أقوى من سطوة مدرعاتهم ودباباتهم، وأن الجباه والهامات السورية لا تنحني إلا للخالق الذي منحها قداسـة الحياة.. لم يدروا أن شـعلة حب الوطن التي

تتوهج على جباه كل السوريين هي العلم الأجدر بالتحية.. أما ذاك القائد الفرنسي فقد كان من السذاجة بحيث لم يدرك بأن في إمكانه أن يصادر الأسلحة والذخائر وحتى الأرواح ولكنه أبداً لن يصادر إرادة شعب في حب وطنه والإخلاص له، أو أن يُخضع كرامة وكبرياء شعب لإرادته. وأبداً سيذكر أن الملامح السورية تتشابه جميعاً لتأتي وجهاً واحداً ينطق بسمة الشرف والإباء، وأن الأرواح السورية لها قدر واحد هو الاستشهاد في سبيل العزة والنخوة والكرامة.. كان الأجدر به أن يتساءل: هل يستطيع عَلَمُه الفرنسي أن يصمد أمام ريح وطن..؟؟؟؟

تابعت الجدة قائلة:

وبعد هذا الحدث الجلل تعرضت دمشق لما هو أسوأ من ذلك، ألا وهو القصف المدفعي والهجوم بالقنابل مما أثار حوادث شغب وعمت الفوضى والدمار، وترافق كل هذا مع أعمال نهب وسلب وإرهاب دام حتى 31 أيار من نفس العام، سقط خلال هذين اليومين عدد لا يستهان به من الشهداء الأبرار، أكثر من ستمائة شهيد وحوالي ألفي جريح. وبعد هذا سيطر الفرنسيون على الوضع وأحكموا السيطرة وتعدوا حتى على التعليم وجعلوا التعليم باللغة الفرنسية بدلاً من العربية، وزادت الضرائب، وهنا عبرت الثورات جميع الأراضي السورية، مؤكدة رفض الشعب السوري سياسة التجزئة وفَرْنَسَة التعليم، فقامت العديد من الثورات المشرفة كثورة إبراهيم هنانو وثورة الشيخ صالح العلي

وتوالت ثورات الرجال الأبطال الشرفاء وبقيت سوريا تناضل حتى حصلت على استقلالها في 17 نيسان 1946 كما تعرفين جيداً.

أطرقت (يمان) قليلاً ثم سرحت بنظرها بعيداً عبر النافذة وهي تقول في سرها:

أجل أعرفها.. ولكن.. أترانا سـنبكي دائمـاً المجاهدين الذين قضوا في معارك استبسـلوا فيها ضد أحقاد الطامعين في خيرات بلادهم.. أم أن حفلات تأبينهم سـتصبح لدى الأيـام أجندات نذكرها باعتياد ورتابة أيـام احتفالات..؟ هـل بإمكاننا أن نبكي خجلاً مـن اغتيالهم برصاص غـادر لكـي نحيا نحن..؟ هل سـنذكر دائماً أنهم ماتـوا نيابة عن موتنا نحـن..؟ وأن جثثهـم التي خلفت ذكـرى مريرة في ذاكرة المسـتعمر ورائحة دمائهم الطاهرة التي طردت رائحة المسـتعمر النتنة من تربة بلادنا.. سـتبقى مجرد ضريح أو رمز نضـع عليه إكليلاً من الزهور، وبعد أن نقف أمامه بصمت ننسحب ونحن مكللون بطقوس الوهم بأننا خلفنا على حجر ذلك الضريح بعضاً من امتناننا؟ ترى هل سيتسربون يومـاً من ذاكرة الوطن مثلما تتسـرب حفنة الرمـل من قبضة رخوة.. ؟ ما أقسـى أن تضيع يوماً قداسـة الشهادة في متاهة النسيان..!! أم أننا سنبقى أوفياء لذلك المعنى المقدس لرسالة استشهادهم؟

تنهدت الجدة وقالت:

ـ رحم الله أولئك الأبطال الذين أدركوا أن أرضنا هي من حقنا ومن حق أبنائنا من بعدنا ولا مكان للغرباء المحتلين فيها. والآن دعينا نخلد إلـى النوم فقـد تعبت ذاكرتي الهرمة من اسـتحضار كل هذه التواريخ والأحداث، وكأننا لم نُرْسِـلْكِ للمدارس ولـم تقرئي كتب التاريخ حتى لجأْتِ لذاكرة عجوز تسكن رأساً متعباً من ضجيج الأيام.

ـ معك حق. سـأتركك هذه الليلة ولكن لن أحلّ عنك حتى أفرغ ما في ذاكرتك العجوز النفيسة من ذكريات.

بقيـت (يمان) في منـزل جدتها رغم امتعاض أمهـا الدائم، وكانت

كثيراً ما تتجاهل مطالبة إخوتها لها بالعودة إلى المنزل بذريعة أن جدتها متوعكة بعض الشيء ومن الأفضل ملازمتها حتى لا تبقى وحيدة..

فهي تشـعر بالأمان وبالراحة والحنـان، والأهم من هذا أنها كانت تشعر بالانتماء، وكانت أحاديث جدتها تطرب روحها المشتاقة إلى من تحاوره.

وفي إحدى الأمسـيات طلبت من جدتها أن تـروي لها قصصاً من الأيام الخوالي، فما كان من الجدة إلا أن أطرقت قليلاً ثم رفعت رأسها ونظرت طويلاً في اتجاه الأفق وكأنها تقرأ سـطور الرواية القادمة من الزمن الغابر:

لن أنسـى أبداً ما حييت قصة (إنعام خانـم) صديقتي وجارتي التي كانـت تكبرني بأربعة أعـوام.. وصحن دارنا المُـطِـلّ على (المربع) الكائـن في منزلهم – والمربع أنت لا تعرفين ما هو.. سـأعطيك فكرة عنـه.. هو عبارة عن غرفة تقع في عليّة الدار تنفرد بذاتها يصعد إليها عن طريق دَرَج طويل – هو الشاهد الوحيد على الأحاديث والضحكات التي كنا نتبادلها في اليوم الواحد مرات ومرات.

وذات يوم أخبرتني إنعام بأنها قد خُطِبَت لـ (بشير أفندي) الذي كان كثيراً ما يرفع رأسه بكل خجل ليسترق لحظة مرورها أمام شباك العلّية في دارهم والذي يدعى بالـ(مشـربية).. هذا الشـاب العاشـق المسكين الذي سـرعان ما كان يهرع بالخطى في حال سـماعه أحداً ما قادماً.. خوفاً من أن يتهم بقلة الشرف.. والناموس!!

كادت تطيـر مـن الفرح... وبدأت الاسـتعدادات للعـرس والحارة بأكملها فرحة بالعروسـين الشابين، كان هذا عام 1913، عاشت خلاله

إنعام وبشــير أحلى أيامهما إلى أن جاء ذاك اليوم التَّعِس في عام 1914 إبــان الحرب العالمية الأولــى، وكانت الدولة العثمانيــة أثناء ذلك هي الحاكمة لبلادنا وقد أخذت تفتش في القرى والمدن عن الشباب والرجال لترسلهم لخوض المعارك الدائرة آنذاك وليحترقوا بأتون الحرب.

المساكين... كان (المشي) هو الوسيلة للتنقل بالنسبة للجنود، الذين أطلق عليهم اســم (النفر) والذين كانوا يســاقون كما تساق الأغنام إلى مذابحهــا، أو كان بعضهم يركب علــى الخيل ويدعون بـ(الخيَّالة) وهم من الضباط أو صف الضباط.

وفي أحد الأيام التعســة طوقت القــوات العثمانية أبواب حلب كلها (بــاب الحديد، باب الفرج، باب النصر، بــاب المقام، باب جنين، باب النيرب، باب إنطاكية، باب قنســرين...) وسدوا جميع المنافذ وأمسكوا برجال الحارات كلهم باســتثناء رجال الدين لاعتبارات دينية وسياسية طبعاً، والغاية هي إرســالهم إلى حرب (ســفر برلــك) وهي يا حبيبتي كلمة تركية تشــير إلى ســفينة ضخمة لنقل الجنود.. واسترسلت جليلة خانم لتكمل الرواية:

وأمســك (العصملي) بـ(بشير أفندي) وجرّوه بكل قسوة معهم غير آبهين بتوسلات (إنعام خانم) والتي كانت حاملاً في الشهر السادس.

بكت المسكينة كثيراً وتوسلت لهم وقبَّلت أياديهم، لا بل حتى كادت أن تقبِّــل أقدامهــم حتى لا يأخــذوا منها رجلها ووالــد طفلها المنتظر.. ولكن.. توســلاتها كانت أشــبه ببخار تلاشى سريعاً أمام برودة مشاعر وقسوة ولا مبالاة الـ(الظابطية) وتعني الضباط.

انقطعت أخباره شأنه شأن الكثير من رجال الحارة وباقي الحارات،

كمـا انقطع وقتها الحبوب والقمح عن المدن بقصد تجويع الأهالي، فقد كانت تصادر وتستولي علـى معظم المنتجات الزراعيـة مثلما كانت تصادر زينة شباب البلاد ليخوضوا حرباً لا علاقة لهم بها.

أيامهـا يا ابنتي كانت أيـام حرب ومجاعة وأوبئة وقلق والشـباب المسـاكين كانوا يتسـاقطون فـي كل مكان إما جوعاً أو قتـلاً أو برداً، فالكثير منهم وُجِدَ متجمداً على الطريق من شدة البرد.

طالت غيبة بشير أفندي لسنوات حتى فقد الأمل برجوعه، فما كان مـن أهلـه إلا أن زوجوا إنعام من أخيه والذي لم يذهب إلى سـفربرلك آنذاك بسـبب كسـور فـي رجله ويديه إثر سـقوطه من على السـلم... انظري سـخرية القدر: سقطة من السلم أنقذته من خوض حرب أو من موت أو من ضياع في غياهب الغابات أو السـجون أو الأَسْـر، لا بل أكثـر من هذا وجـد لديه زوجة وولداً، هي زوجة أخيـه وابنه الذي لم تعرف عيناه صورة أبيه..!!!

حاولـت إنعام خانم الاعتراض كي لا تتزوج من ابن حميها، إلا أن أهل زوجها هددوها بأخذ ولدها منها في حال عدم اسـتجابتها لطلبهم، وخاصة أنه ليس من المعقول أن تبقى في دارهم وابنهم الشاب موجود معها، فهذا لا يجوز شرعاً أو عرفاً.

طبعاً كان هذا رأي أهل إنعام أيضاً؛ فوالد إنعام اعترض بشدة على بقائهـا في نفس الدار مع ابن حميها الشـاب، وفـي نفس الوقت رفض أن ينفق على حفيده فيما إذا انتقلت ابنته للعيش في كنفه.. كان ببسـاطة وتهكم يقول:

– شي حلو الله.. واحد بذر.. والتاني التزم..؟ عال والله عال..!

رضخت المسكينة للأمر الواقع، فهي لم تحتمل فقدان زوجها فكيف بفقدان ولدها؟؟

مرت سـنون طويلة قبل أن يسمع ذات فجر طرقـاً قوياً على باب دار أهل بشير..

كانت ضربات متسـارعة وقوية وملحة على عكس السنين البطيئة والمتثاقلة التي مرت.

وفتـح (حكمت أفندي) – زوج إنعام الحالي – الباب وهو يقول في نفسه: خير اللهم اجعله خير.. يا قاعدين الله يكفيكم شر القادمين.

وإذ برجل أشعث الشعر هزيل الجسم.. شاحب الوجه طويل اللحية.. يبدو متشرداً قذر الثياب والرائحة.. وقف عند عتبة الباب ولكنه مع ذلك بـدا مألوفاً.. حدّق كل منهما طويلاً فـي وجه الآخر وراحا يبحثان معاً عن ملامح قد تشكلت في الماضي، لم يدركا أنهما كانا في تلك اللحظة يتعرفان وفي رحلة البحث السـريعة هذه عن المسافة الزمنية الحقيقية التي كانت تفصل كل منهما عن الآخر وسـرعان مـا أهدتهما الذاكرة جوازاً للمرور، سمح لتلك الملامح أن تتضح بصورة أكثر صفاء:

– حكمـت؟؟ أهذا أنت يا أخي؟؟ أنا.. أنا بشـير.. أجل بشـير!! ألم تتعرف عليّ؟!

حدق حكمت طويلاً ثم صاح:

– بشير أهذا أنت حقاً؟؟ الحمد الله.. أنت حي؟؟ أنت حقاً حي؟؟

– أجـل لـم أمت.. قاومت المـوت حتى أعود إليكـم.. تعال يا أخي حكمت كي أضمك.

ارتعش حكمت قليلاً ورجع إلى الوراء وكأنه يهرب من مواجهة حتمية مع القدر متمثلة بحضور أخيه فجأة ودون سابق إنذار أمامه، ثم صاح محاولاً أن يخفي ارتباكه:

– أمي.. أبي.. لقد عاد بشير من سفر برلك.. عاد بشير..

هرول والد بشير بساقيه المرتجفتين وعينيه الدامعتين وشفتيه المتطبقتين بعد أن جف حلقه من سماع الخبر.. فما كان إلا أن ارتجف صوته أيضاً بعد أن رأى بشير حياً يرزق أمام ناظريه.. وصاح بصوت منكسر متغضن كوجهه المتعب من تجوال السنين القاسية:

– بشير.. إنه حقاً بشير.. الحمد لله.. الحمد لله لقد استجاب الله لصلواتي ولدعائي.

ليلتها أم بشير المسكينة لم تحتمل الموقف وماتت تماماً بعد أن هتفت باسمه وعانقته، فقلبها الضعيف لم يحتمل تلك المفاجأة التي لم تعد سارة بعد أن تزوج حكمت من زوجة أخيه، وكأن المسكينة كانت تنتظر ذاك الغائب لتموت بين يديه وعلى صدره معانقة موت عذاباتها على يد فرحة اللقاء بابنها البكر..!

انشغل أهل الحارة بالعزاء وبالتهنئة في نفس الوقت، فالقادمون حائرون؛ أيعزون بالفقيدة أم يهنئون بعودة بشير سالماً؟! ولكن طبعاً ليس غانماً.. بل خاسراً إن صح التعبير..!!

هنا فكرت (يمان) قائلة لنفسها: ما أصعب أن تكتسي أشد لحظات الفرح لباس الحزن؟؟

سرعان ما أعادها صوت جدتها لمتابعة الحكاية:

- مسـكين بشـير.. عاد وحمل معه الحيرة لأهله ولزوجته.. كانت صدمته كبيرة حين علم بما جرى في غيابه ولم يستطع أن يمنع دموعه حين أراد أن يقبل ابنه (محمود)، والذي ركض بعيداً عنه بعد أن رفض مناداتـه (بابا)!! وطبعاً مُنِـعَ من رؤية زوجته وحبيبتـه من قِبَلِ أخيه حكمت الذي ثار وأرعـد وأزبد وحبس (إنعام) في غرفتها مهدداً إياها بالضرب في حال خروجها من غير إذن منه.

كانت تلك المواقف أشـد قسـوة وصعوبة من تلك الطُّرُقات الوَعِرَة التـي قطعها طويلاً هرباً من السـلطات التركية.. قدماه المتقرحتان لن تنسـى بسـهولة تلك الغابات والبراري والقِفَار الموحشـة التي قطعها ركضاً وحبـواً وزحفاً ليلحق بحلمه (عيني زوجتـه وحضنها الدافئ.. وحنانهـا المشـتَهَى..!)، كان مجرد التفكير بها وبولـده الذي لم يعرفه كفيلاً بإعطائه القوة والإصرار كي يعدو مسـرعاً بعيداً عن أي تخاذل أو استسـلام.. وحده بريق ذكرى نظـرات إنعام كان النور الذي أضاء عتمة لياليه ودروبه الوعرة.

إنعام..!! تلك المسـكينة التي بكت طويلاً وهي تشهق على صدري وتقول لي:

- جليلـة أنا حزينة يا جليلة حزينة حتى الموت.. فقد رفض حكمت أن يطلقنـي لأعود لبشـير، خاصة وأن لـي أولاداً منـه. ولكني أحب (بشير).. أحبه ولم أنسَ يوماً أيامنا وليالينا معاً.. فهو رجلي الأول وهو حبيبي، معه وحده أدركت معنى كوني امرأة.. معه وحده عرفت معنى أن أكون أنثى.. على يديه تعرى صباي ومن شفتيه أدركت لهب الدفء وحريق الشوق.

كنت أبكي معها أنا أيضاً بحرقة وأضمها لصدري محاولة تهدئتها لأرطب خاطرها بكلمات وأحاول إقناعها أن كل حياتها مع بشير كانت حلماً جميلاً، عليها أن تصحو منه لتعيش رتابة الواقع المؤلم.. وأن تصبر وتحتسب وسوف يؤجرها الله على هذا الابتلاء.

لم يستطع بشير المسكين أن يحتمل الوضع... فاستيقظ الجميع ذات فجر على رسالة تركها موضحاً فيها أنه سيغادر حلب للأبد وأوصى أخيه حكمت بإنعام ومحمود أمانة لديه.

وهكذا انطوت صفحة بشير للأبد.

استمعت (يمان) إلى قصة جدتها مذهولة وتساءلت:

لماذا تريد البشرية أن يتلون التاريخ بلون قرمزي يشبه لون الدم والألم؟؟ لماذا تعشق جلبة وضجيج الحروب؟؟ لماذا تهوى حالات التشرد والضياع والتشتت؟؟

فأجابتها حكمة جدتها:

– تذكري يا ابنتي أن الشر وجد لندرك قيمة الخير.. وأن الحرب ولدت لنقدس معنى الأمن والسلام.. ولنستميت من أجل الحفاظ على القيم والمعاني من خير وعدل وإنصاف.. يا ابنتي في الحياة مواقف صعبة وقاسية، ولكنها في الوقت نفسه شيء عظيم ندرك من خلالها قيمة أنفسنا ووجودنا لنصل من خلال ذلك إلى حقيقة عظيمة ومقدسة، هي حقيقة وجود الخالق وذلك حين نستطيع أن نتجاوز ضعفنا ورغباتنا ونسمو بأنفسنا لنرتقي حتى نتلمس حلاوة الإيمان بالله..!

صدقيني يا ابنتي.. أننا بعد ذلك سمعنا الكثير من القصص المشابهة

لقصة صديقتي إنعام.. كان هذا حال الكثير من أبناء البلد..!

تنهدت الجدة وهي تسبح بحمد الله.

فكرت (يمان):

– حقاً إن غرابة الواقع وشروده عن المسار المعتاد للحياة يخلق في الوقت نفسه من هذا الاختلاف والغرابة تشابهاً في النتائج والحالات.. تماماً مثلما حدث في حالة إنعام وغيرها من بنات جيلها اللواتي مررن بقصص وأحداث متشابهة.

(12)

مرّ أسبوعان و(يمان) تنتظر نتائج آخر امتحاناتها، وفي أحد الأيام دخلــت بهو الكلية تغزّ الخطى نحو لوائــح العلامات، وإذ بها تصادف صديق (يزن) المقرّب.. توقفت وهي تعيش أرجوحة من التردد في أن تســأله عن أخبار (يزن) وعن الذي حدث بعد أن أعطاه رسالتها... إلا أن كبرياءهــا كان أقــوى حضوراً من شــوقها لمعرفة أخبار ذاك الذي كفر بكل ما بينهما.. اســتدارت بكل إصرار نحو اللوائح لتمنحها الأيام هدية صبرها تعويضاً عن تلك الخيبات التي منيت بها، وكانت الفرحة الكبــرى.. لقد نجحت في موادها وتخرّجت أخيراً وانتهت إلى الأبد من تلــك الكلية التــي لم تحمل لها إلا كل إرادة مكبوتة وذكرى مؤلمة لوهم حب كانت قد عاشته يوماً في ردهاتها وأيامها.

صاحت من الفرحة: الحمد لله.. الحمد لله.. لقد تخرجت..!

فاجأها صوت صابر صديق (يزن) قائلاً:

– مبروك (يمان) فأنت فتاة طيبة تستحق أن تعيش الفرح.

التفتت إليه فرحة قائلة:

– شكراً لك صابر. وماذا عنك؟

– أنا تخرجت مع (يزن).

كان وقع اسم (يزن) كطعنة السهم، لاحظ صابر امتعاض وجهها فأردف يقول:

– آسف.. لم أقصد أن أذكر اسمه ولكن صدقيني بالرغم من أنه صديقي إلا أن هذا لن يمنعني من قول رأيي الصريح بما جرى.. أنا أرى أن ما حدث هو لصالحك.. حقاً هو لا يستحق إنسانة شفافة مثلك، تصوري أنه لم يأخذ مني رسالتك والتي ما زلت أحتفظ بها في جيبي منذ ذلك اليوم أنتظر أن ألقاك مصادفة حتى أعيدها إليك خجلاً من موقف من أسميته يوماً صديقي.

– ماذا؟ كيف؟ أيعقل؟ لم يأخذها منك.؟؟ أكاد لا أصدق..!

– أجل (يمان) كنت قد أبلغته أنك قد تركت معي رسالة لأجله واتفقت معه على موعد لإحضارها له، ولكنه لم يبدِ ذاك الاهتمام الكبير واكتفى بالقول حسناً.. حسناً سأحاول المرور لآخذها. وفي النهاية لم يحضر للموعد..!! كما أنه لم يكلف نفسه العناء ليراني أو ليودعني.

قال صابر هذا ومد يده إلى جيبه وأخرج من جيبه (جزداناً) فيه ظرف قد احتلت الثنيات سطحه بعدما مكث شهوراً طويلة في جزدان

ذاك الشـاب، كان ذاك الظرف يحتوي الرسـالة التي كانت (يمان) قد كتبتها بدموع الرجاء والأمل والألم.

أمسكت (يمان) بالرسالة وحدقت فيها طويلاً ثم أطلقت ضحكة على غير عادتها وقالت بمرارة ممزوجة بكبرياء الأنثى:

– هذا أفضل فهو لا يستحق ما بداخلها.. في الحقيقة اليوم أشعر بأن القدر يقف إلى جانبي، فقد أهداني في يوم واحد خلاصي من هذه الكلية وخلاص روحي إلى الأبد من كذبة كبيرة كنت قد عشتها.

– شكراً لك صابر، وأتمنى ألا تكون قد شربت من كأس الغدر التي حملها (يزن) ليسقيها لكل من حوله.

أسرعت مبتعدة عن الكلية وكأنها تبتعد عن حقبة من الزمن عاشتها فـي الوهـم والمعاناة.. وأحسـت بابتعادها ذاك بشـعور الارتياح الذي يعتمر من يخلع عنه ثوباً قد ضاق به طويلاً.

دخلت المنزل وهي تصيح:

– لقد تخرّجت جدتي.. لقد تخرّجت.

تهلل وجه الجدة فرحاً واغرورقت عيناها بالدموع وقالت:

– ألف مبروك يا حبيبة جدتك.. هو نذر علي الآن.. سأوزع للفقراء والمساكين هدية نجاحك؛ لحم كبش من أجلك.

– افعلـي مـا تريديـن.. واتركينـي أنـا لأرقـص.. وأرقـص.. وأرقص..!

وبدأت تـدور في أرض الغرفـة وتثب بخطـوات راقصة مترنمة بألحان الفرح......

وبعد أن دارت فيها الأرض تهالكت على الأريكة وابتسـامة كبيرة كانت مرسـومة بوضوح علـى كل معالم وجهها.. تعجبت من نفسـها كيـف لم يؤثر عليها تجاهل (يزن) لرسـالتها.. هـل لفرحة النجاح هذا الحضـور القـوي مـن البهجة والسـعادة حتى جعلتها تتجـاوز موقف (يزن) المؤسف؟؟

أم تراهـا لم تكن حقيقة تحبه بالشـكل الكافـي.. لعلها حتى توهمت الحب أو عاشـته فقط من أجل أن تعيش حالة الحب؟؟!! هل كانت حقاً تعيش كذبة كبيرة؟؟

أسـئلة كثيرة وقفت في ممر الخاطر تنتظر الإجابة ولكنها تجاهلتها أمام فرحة الخلاص من دراسة كانت خلالها تشعر ولسنين كأنها تراب قد انهمر فوق قبر حلم أو طموح في أن تكون يوماً.. طبيبة.

تذكرت والدها.. وحلمه.. ابتسمت بدموعها.....

ظلـت هكـذا لعدة دقائق وبعد أن اسـتعادت توازنهـا ركضت نحو الباب وهي تقول لجدتها:

– جدتي سأذهب لأفرح قلب أمي.. إلى اللقاء.

أخذت تتمنى أن تطير بها سـيارة الأجرة حتى تصل بسرعة لترسم الفرحة في عيني أمها.. ولأول مرة وجدت الطريق طويلاً

دخلت المنزل وهي تثب كالعصفورة واتجهت نحو والدتها وانهالت

عليها بسيل من القبلات تاركة كل المجال لتلك العفوية الصادقة التي تتحلى بها.. أن تكلل موقفها وقبلاتها.

– على رِسْلِكِ يا ابنتي.. ماذا جرى لك؟ هل جننت؟؟

– أجل سيدة فريال.. أجل أيتها الوالدة الحبيبة.. أجل يا أمي.. أجل يا ماما جننت.. جننت. أجل يا أم غياث.

– ولكن ما بك؟ قولي بسرعة.

نظرت إليها (يمان) طويلاً وهي صامتة لا تبوح بأي حرف أو تعبير وكأن تمثالاً قد سكن جسدها، ثم صاحت فجأة في وجه أمها بأعلى صوتها:

– لقد تخرجت يا أم غياث.. تخرجت ابنتك الغالية.

شهقت فريال من المفاجأة وهتفت:

– ألف مبروك يا حبيبتي.. ألف مبروك.. يا ليت والدك كان هنا اليوم ليفرح بك وليشاهد حلمه الحي يتحقق..!

عندما ذكرت أمها هذا شردت (يمان) وحدقت في الفراغ وتساءلت في نفسها:

– ليشاهد حلمه الحيّ وقد تحقق وهو الميت.. و أنا...؟! ماذا عن حلمي الميت وأنا الحيّة؟ لن أصبح طبيبة ما حييت.

أيقظها صوت أمها وأخيها وأختها من شرودها وبدأت أختها بالغناء وهي تصفق:

– وحياة قلبي وأفراحه

عانقها الجميع وانهالت عليها القبلات والضحكات.

أسرعت وأمسكت بسماعة الهاتف.. سألتها أمها:

– هل ستخبرين جدتك؟؟

– لا، فقد مررت بمنزلها وأخبرتها قبل قدومي إلى هنا.. سأخبر صديقتي (ألما) وأزف لها النبأ السار.

انشغلت (يمان) بالحديث مع صديقتها ولم تلحظ دمعة الألم في عيني والدتها؛ إذ آلمها بشدة ألا تكون أول من عرف بنجاح ابنتها وأنه سبقها لهذا السيدة جليلة خانم..!

انسحبت فريال بهدوء إلى غرفتها وهي تقاوم غيظها وخيبتها من موقف ابنتها، فأمامها مهمة يجب أن تؤديها ولهذا جلست في مواجهة صورة (أياس) وبدأت تحادثه:

– (أياس) حبيبي ها قد تحقق حلمك يا نور عيني أرجو أن تكون في عليائك سعيداً وأن تهنأ روحك بالسكينة.

(13)

مــرّ شــهران على تخرج (يمان) جــرت فيهما أحــداث كثيرة، فقد أضرمت النار في أحد محاصيل العائلة بعد مشادة عنيفة بين أبناء أحد الفلاحيــن العاملين لديهم وبين الســيدة فريال التـــي اتهمته بعدم الأمانة وبخيانة العهد.

فقد صـــادف أن حضرت الســيدة فريال إلى المزرعة دون ســابق إخطـــار وذلك لتتفقد أحوال الأراضي والمحصــول الزراعي، وإذ بها تفاجــأ بأحد الفلاحيــن وقد اقتحم الفيلا وضبطته متلبســاً وهو يســرق الأواني الفضية.

طـــار صوابهــا وكاد يغمى عليها مــن الخوف، ولحســن الحظ أن الســائق كان معهــا مما أثار هلع الســارق وجعله يســلم رجليه للريح،

ولكن بعد أن سمع السيدة فريال وهي تقسم بأنها ستدخله السجن عقاباً على خيانته وعدم أمانته..

وفي تلك الليلة وبعد أن استسلم جميع أهل القرية للنوم جلس ذاك السارق ليحتسي الخمر بإسراف والذي سرى كالجنون في شرايينه، وبعد إحساسه بالنشوة أخذ شعوره بالتفوق والعظمة يتصاعد فقرر حينها أن يلقن تلك السيدة المتعجرفة درساً لن تنساه على إهانتها وتهديدها له، وبكل تثاقل راح جسده المترنح يحاول الثبات ثم وقف رافعاً يده ملوحاً بها في الهواء وهو يصرخ:

– سأريك من هو عمر أيتها الخرقاء.. لم يخلق بعد من يهدد الكابتن عمر.

استلقى بكل ثقله على الأرض وهو ينظر إلى السماء وأخذ يحلم بعينين مفتوحتين بأنه سيكون يوماً رجلاً ذا شأن، وأن السيدة فريال ستكون الخادمة لديه.. وأنه سيمعن في إذلالها بعد أن يتزوج من ابنتها الصغرى ليذيقها معنى العذاب.. وأخذ يقهقه ضاحكاً وهو يتخيلها تحترق بنار عذاب الذل والمهانة.. أحس فجأة بالبرودة تسري في بدنه رغم أنها كانت ليلة صيفية بامتياز من أيام شهر حزيران، ولكنه.. قرر أن يضرم النار في أحد أكوام محصول القمح لينعم بقليل من الدفء وهو يعتقد من فرط سكره أنها مجرد أعواد من أغصان الشجر..!

أخذت النار تشتعل، وحين لفحته بحرارتها ونورها أفاق من سكره وأحس بفعلته فخاف وارتعد.. وبعد أن فكر قليلاً أسعدته فكرة الحريق رغم أنه لم يكن يقصده. وحينها قهقه عالياً وأخذ يركض بعيداً مسروراً بتلك الحادثة.. راح يركض مسرعاً عله يهرب من فعلته المشينة ولكن

الله شـــاء أن يلحظه أحد الفلاحين الــذي كان عائداً لتوه من منزل والده المريــض، فرأى (عمر) وهو يركــض مبتعداً، فتعرّف عليه في الحال ولكنه من شدة هلعه لاندلاع الحريق وامتداده آثر ألا يلحق به إنما أسرع ليطلــب نجدة الفلاحين بعد أن تعالت ألســنة النيــران وبدأت تتراقص كأفاعٍ فرّت من الجحيم وأخذ فحيحها يدوي وحسيسها يتعالى.

هب الجميع لإطفاء الحريق بكل همة وأصواتهم تصدح بعبارة: الله أكبر.. الله أكبر.. يا لطيف.. يا جبار

وكان هذا من حسن حظ الحارس المسكين الذي كاد أن يموت وهو محاصر بين النيران بعد أن حاول أن يطفئها بيأس حين أيقظته حرارة لهيبها.

اجتمع الفلاحون بكل ثبات وسرعة وهم يسعون بكل جهد أن يطفئوا النيران وألســنة اللهيب التي كانــت تتراقص كالمرأة الماجنة غير آبهة ببراءة من حولها..

وأخيراً وبعد معركة شرسة مع الزمن والنار انطفأت النيران بجهود أولئك الرجال المخلصين الذين هوَوْا على الأرض تعباً يكسو وجوههم هباب النيران والســخام ومسحة من فرح على نجاحهم في إطفاء النار وعلى ســلامتهم أجمعين، ما عدا حــارس الأرض العم وليد الذي كان أكثر ضرراً والذي تم نقله إلى المستشفى لمعالجة حروقه.

وبعد ذلك بعدة أيام.

ــ أريــدك أن تودعــه الســجن لأطــول فتــرة ممكنــة ذاك الجاحد الفاسق.

– ســيدتي ســأعمل المســتحيل من أجل تحقيق ذلك إذا كان هذا ما يرضيك.

جلس المحامي أمام السيدة فريال ليحاورها بتفاصيل الحادث.

كانت فريال تتأجج من الغضب وبنفس الوقت كانت تعيش حالة من القلق ســببها المخاوف والهواجس التي ولّدهــا عدم الثقة بذاك الطائش (عمــر)، ذاك الفلاح الأصفــر الوجه الأرعن ابــن ذاك الفلاح الطيب القلــب الدرويش الحاج توفيــق، الذي أفنى عمره في خدمة العائلة وفي فلاحــة الأراضي بكل صدق وأمانة وضميــر حي وخوف من الله، إلا أن هذا المســكين لم يسـلم من ابتلاء الله له إذ رزقه ابناً عاقاً ماجناً همه الأكبر أن يعيش مُتَعَه بغض النظر عما سيكلف ذلك أهله من ألم وعدم استقرار وقلق.

قال الســيد كمال بعد أن اتخذ لنفسه مقعداً مريحاً جلس في مواجهة مع السيدة فريال:

– الآن سيدة فريال من فضلك أود أن أتحدث مع الحاج توفيق علّي أستطيع أن أعرف منه مكان ذاك الأرعن.

قامت الســيدة فريال من مكانها واتجهت نحو باب الفيلا الكائنة في المزرعة المجاورة للأراضــي الزراعية التي تمتلكها العائلة، وطلبت من سليم حارس الفيلا أن يستدعي الحاج توفيق.

راح الســيد كمال يتأمل بإعجاب قوامها الرشيق وخطواتها المفعمة بالثقــة وكأنهــا ملكة تســير على بلاطهــا.. أخذ تنهيدة طويلة وأشــعل سيجاراً فاخراً وجلس يتأمل الأشجار الممتدة أمامه محاولاً ألا تفضحه نظراته.

عادت فريال وجلســت بــكل وقار المرأة الأرســتقراطية أمامه، ثم أشارت إلى كأس العصير التي أمامه وقالت برفق:

– تفضل أستاذ كمال

– شكراً لك. في الواقع يبدو شهياً ولذيذاً.

قــال هــذا بنغمة تحمل الكثير من المعانــي مترافقة مع نظرة تحمل أكثر من الكثير..!!

بــدأت فريــال تحرك بعصبيــة واضحة أصابع يديها وســرعان ما اســتلت ســيجارة من ســجائرها، فما كان إلا أن هَبَّ مسرعاً لإشعالها وهو يحدق بثبات في عينيها الخضراوين، ومن ثَمَّ عاد إلى مقعده وهو يشعر بالمتعة لجلوسه أمام حضرة هذا الجمال.

بــدأت بتدخين ســيجارتها بعصبيــة واضحة متحاشــية النظر إليه واستمر هو في تأملها.

كان الســيد كمــال المحامي المفضــل للعائلة بســبب دهائه وحنكته وذكائــه، وكان هــذا الأخير لطالما أبدى إعجابه بالســيدة فريال والذي باءت محاولاته الشــتَّى بالتقرّب إليها بالفشــل بعــد أن وجد لديها وفاءً شديداً لذكرى الراحل زوجها (أياس).

ولكــن الرجل لم يفقد الأمل رغم الســنين الطويلــة، فقد كان يجدها امــرأة جميلة وذكية بالإضافة إلى تلك الملاييــن التي ورثتها، كل هذا دفعه للعمل بجد وإخلاص لعل هذا يكون جسراً للتواصل والمودة الذي يسعى جاهداً من أجله.

كان جوع المرأة للحب والحنان يحرك فيها أحياناً شهية التقرّب إلى رجل يحتويها بقلبه وحنان يديه، إلا أنها لا تستطيع أن تنتزع نفسها من ذاك الغلاف الذي أحاطت نفسها به بكل إصرار يوم فقدت فيه حبيبها وزوجها وأبا أولادها (أياس).

كانت رغم حاجتها الكبيرة إلى صدر دافئ يضمها ولأن تشعر بخشونة وجه يعانقها، هو وجه رجل تبادله الحب أو لأن تغمرها رائحة الرجل العبقة بعطر الشوق والرغبة.. إلا أنها اختارت أن تقبع في زوايا الذكرى تحتضن برد الوحدة وتشتمّ رائحة (أياس) الراحلة مع رائحة الموت.

جلس السيد كمال يتأمل بافتتان وجهها وجسدها المتناسق وأخذ يرقب آثار السنين عليها واستغرب كيف يمكن للسنين أن تزيد من جمال امرأة؟؟!! ثم وجد نفسه يتساءل هل يحبها حقيقة؟؟حتى يراها تزداد جمالاً في كل مرة يراها فيها، وحتى تستعر تلك اللمسة الحارقة من الرغبة لتلامس جسده..؟!

سألها فجأة وبدون تفكير:

– سيدة فريال هل أغرمت يوماً بأحد؟

– عفواً؟؟

– اعذريني على جرأتي ولكني أصرّ أن أعرف.

– طبعاً.. أغرمت وما زلت أغرم بزوجي الراحل عن الدنيا والذي لم يستطع حتى برحيله أن يرحل عني.

قالت هـذا بِتَحَدٍّ وباقتضـاب أصاب منه مركز الخيبـة بكل مهارة التسديد..!

لامَ نفسـه كثيراً على سـؤاله واتهم نفسـه بالغباء وهو الرجل الذي يشهد له الجميع بالذكاء وحسن التصرف، واعترف بأن الوفاء والحب اللذين يسكنان قلب تلك المرأة التي يفقد أمام جمالها وقار أي رجل كانا أشدّ إصراراً وثباتاً مما يعتقد..!

وتسـاءل في نفسه: ولكن لماذا أشـعر بكل هذا الانجذاب نحوها؟؟ أترانـي أحبهـا..؟ ولماذا أزعجني كل هذا القـدر جوابها.. لا، بل حتى أنني أحسست بالغيرة من ذاك الرجل الراقد سنين في قبره.. أأغار من رجل ميت؟؟

فجـأة أنقـذه دخول الحاج توفيـق من ارتباكه.. ومـن ذاك الموقف المحرج الذي وضع نفسه فيه فانبرى قائلاً:

ـ تفضل أيها الحاج.. اقترب اقترب.. لا تخف

قـال هذا السـيد كمال بينما كان الحاج توفيـق يقترب بتردد واضح وعلى وجهه المتغضن آثار السـنين مكسوة بالخجل والخزي مما فعله ابنه المغضوب كما كان يدعوه..

كانت عينا المسـكين جزعة وخائفة حتـى البكاء، مما رق لها قلب السيدة فريال فانبرت قائلة برفق:

ـ حـاج توفيق.. لا تخف فأنا أعرفك حـق المعرفة، وأنا كنت وما زلـت ممتنة لك ولإخلاصك في العمل، وكـن على ثقة أني لن أعاقبك بجـرم ارتكبـه ابنك.. ولكن صدقني أني أريد أن أمسـك به وأزجه في

السجن من أجلك ومن أجل عائلتك الطيبة حتى يتعلم من قسوة السجن قيمة الحرية وحتى يغدو رجلاً، لعل الله يهديه فيبتعد عن مجونه وسكره.

خرّ الرجل على قدمي السيدة فريال يدعو لها بطول العمر ويقسم لو أنه رأى ابنه لقتله بيديه عقاباً على جرمه وأنه قد تعب من لا مبالاته ومن سكره وعربدته.

بدأ السيد كمال باستجواب الحاج توفيق محاولاً أن يجمع منه أكبر قدر من المعلومات عن إمكانية وجود ابنه عمر ليقدمها إلى النيابة العامة.

أخيراً ودّع السيد كمال السيدة فريال متحاشياً أن يصافحها حتى لا تفضحه أكثر رعشة يده إذ يكفيه ما بدر منه من حماقة..!

لم يَطُلِ البحث عن عمر، فقد وجده رجال الشرطة بعد عدة أيام مختبئاً كالفأر في منزل أحد رفقاء السوء لديه وتمّ القبض عليه، وقد حاول جاهداً أن يستعطف قلب فريال إلا أن تلك الأخيرة أصرّت على حقها وذلك كي تؤدب به من تسوّل له نفسه الاعتداء على أراضيها أو أملاكها.

ارتاحت فريال كثيراً بعد صدور الحكم وشعرت بالأمان بعد أن أُودِع عمر السجن.

بعد يومين ذهبت إلى مكتب السيد كمال لتدفع له أتعاب القضية.

كان غارقاً بين أوراقه، وإذا بشذى عطر فرنسي ينتشله من استغراقه، فرفع رأسه... كانت السيدة فريال تقف أمامه بكل وقار..!!!!

فاجـأه جداً حضورها.. أسـند رأسـه بين يديه وجلـس متأملاً ذاك الحضور البهيّ.. لم يصدق أنها حضرت بنفسـها وبدأ شيء من الفرح والحبور يسري بكيانه تدريجياً.

سألته:

ـ ألن تدعوني للجلوس سيد كمال؟

استفاق من شروده وحرره صوتها من اعتقال تلك اللحظة المفرحة التي عاشها.. وأجاب بعد أن هب واقفاً لإلقاء التحية عليها:

ـ بالطبع.. بالطبع.. أنا.. أنا آسف.. أهلاً وسهلاً.. نوّرت المكتب.

ـ فـي الواقـع أردت أن آتي بنفسـي حتى أشـكرك علـى جهودك المبذولة بإلقاء القبض على ذاك الوغد.

ـ هذا من دواعي سروري طالما أنه يسعدك.

فتحت السـيدة فريال حقيبتها وأخرجت ظرفاً فيه أتعاب السيد كمال ومـدت يدهـا لتعطيه إياه.. ولكنه سـرعان ما أمسـك بيدهـا بكل رفق قائلاً:

ـ أرجوك سـيدة فريال.. اسـمحي لي هذه المـرة أن أعتبر أن تلك القضيـة هـي جزء من قضيتي أنا شـخصياً ولهذا لن أسـتطيع أن آخذ الأتعاب..

ـ ولكن..؟؟ لماذا..؟؟ وما دخلك أنت؟؟

ـ فـي الواقـع إن هذا الوغد قد اعتدى علـى منزلك أنت وتجرأ أن

يقتحـم مملكتك، وأنا أعتبـر أن كل اعتداء عليـك أو على مملكتك هو اعتداء علي أنا شخصياً..

– وكيف هذا؟

ابتعد عن طاولة مكتبه واقترب من الكرسـي الذي أمامها ثم جلس وحـدّق في عينيها محـاولاً أن يترك للغة العين فرصـة التعبير.. وأن يدع أحرفها الصامتة تنطق بما يشـعر.. لعلها تملك شـجاعة أكثر من الأحرف التي تنتظر على شـفتيه.. كانت لحظة طويلة بالنسبة له تمنَّى أن تطول حتى يغتسـل أكثر في انهمار الخضرة بعينيها.. ولكنه أردف قائلاً:

– لأن وجودك في حياتي يعني لي الكثير.

– أرجوك سيد كمال.. أنا لن..

قاطعها قائلاً:

– لا تقولـي شـيئاً.. أعلم أنك وفية لذكرى زوجـك ولكن ماذا أفعل أنـا بسـنوات خريفي الماضية نحو الشـتاء، والتي وجدت فيك شمسـاً دافئة..؟!

ماذا أفعل بومضات الفرح التي تحتل عيني حين أراك؟؟ماذا..

هبـت واقفة لتذهب، فأمسـك بيديهـا مانعاً إياها مـن الرحيل وهو يقول:

– أرجوك دعيني أكمل.. ارحمي اعتراف رجل يملؤه اليأس والحلم المسـتحيل.. أعترف بأن لقائي بك غيّر مـن طبيعتي.. أصبحت رجلاً

شـفافاً.. بعد أن كنت رجلاً مكابـراً وفظاً.. وحتى طماعـاً وانتهازياً.. ولكـن بعد أن عرفت مسـارات روحي دروبك.. تغير كل شـيء.. كل شيء حتى أني بدأت لا أعرف نفسي..

– سيد كمال.. ما بك؟ هل فقدت عقلك؟؟ أنت رجل متزن.. و..

– وأنت سيدة يفقد أمامها أي رجل وقاره.

– سيد كمال.. أنا لا أدري ماذا أقول.. ولكن بما أني أعرفك منذ زمن بعيد وأعرف أمانتك وإخلاصك للعائلة سـأتجاوز عن هذه التجاوزات التي سمحت بها لنفسك وسأحترم اعترافك كرجل يمر بخريف العمر

ويجوز أنه يشعر بالوحدة و..

قاطعها معترضاً قائلاً:

– لا.. بل لأنه يشعر بالحب..!

قال هذا ورفع يدها إلى شفتيه وقبلها بكل ارتعاشة الحب اليائس.

سـاد الصمت للحظة كانت بالنسـبة لهما عمراً.. هو يسـكنه الحب والأمل.. وهي يسكنها الوفاء وتقطن فيها الذكرى..!

سـحبت يدهـا برفـق والتوتـر يعتلـي كل ذرة منها، ثم اسـتأذنته بالانصراف وعندما وصلت إلى باب الغرفة استدارت ونظرت مباشرة إلى عينيه ودمعة مكابرة كانت تسكن عينيها وقالت:

– سيد كمال.... وداعاً.

(14)

جلسـت فريال تفكر بما جرى.. أحسـت برغبة في البكاء.. ولكنها لم تبك..!

جالت عيناها في ذاك المنزل الشاسـع المسـكون بالبرودة.. وحدها الذكريات مع (أياس) كانت تشـعل قناديل الروح لتبعث النور والدفء في ذاكرة تلك المرأة العاشقة

تساءلت.. هـل سـأجرؤ يوماً علـى أن أفقد ذاكرتـي بإرادتي كي أنساه؟؟

وكيف وأنا أستحضر ذكراه في كل ليلة..؟؟ أو لعل ذكراه هي التي تستحضرني لتبقيني حية..!

تتربصني ذكراه.. تثب على أيامي كلَبُؤة تريد اصطياد فريسة

لا أستطيع الهروب منها.. أستسلم لها وأنا سعيدة بالتهامها كياني.....

قبلات (أياس) وَشْمٌ على جسدي.. وعطره يسكن خلاياي.....

لم يشف بعد جسدي من لهيب عناقنا.. وهمسه الدافئ يرفض أن يغادر ذاكرة أذني...

ذكراه ستبقى صلاتي السرّية وسأتلوها أبداً ما حييت في محراب الذاكرة.

اتجهت نحو النافذة وأشرعتها وكأنها تبعث بذلك دعوة إلى طيف (أياس) بالحضور.. كانت ترغب بشدة لاحتضانه. ضمت يديها إلى صدرها واحتضنت وهماً معذِّباً مدركة أنها لم تحتضن سوى حقيقة تلاشيها عن واقعها..

فجأة أحست بشيء يشبه الخيانة؛ إذ سمحت لشفتي المحامي بتقبيل يدها دوناً عن إرادتها.. ذهبت لفورها واغتسلت لعلها تزيل إهانة قد تأنقت بفضيلة الحب، أو لتروي بالماء ظمأ جسد عاشق خذله القدر..!

قررت في الصباح أن تشكر السيد كمال على جهوده بكل وقار في رسالة متضمنة عبارات شكر مدروسة بعناية بالإضافة إلى كامل أتعابه وأرسلتها له عن طريق السائق، كما صرفت مكافأة لكل الفلاحين الذين ساهموا في إطفاء الحريق وأرسلت الحاج توفيق ومعه زوجته لأداء العمرة. أما حارس الأرض فقد صرفته من الحراسة وذلك لنومه أثناء العمل بعد أن صرفت له مكافأة مادية كبيرة وذلك لجهوده المبذولة لإطفاء الحريق وكتعويض له عن الحروق التي أصابته ليلة

الحادثــة، وكان التعويض كافياً بحيث مكّنه من شــراء كشــك يبيع فيه الخضراوات.

هكــذا هي الســيدة فريــال ذات قــرارات حازمة ولكنهــا في أغلب الأحيان حكيمة وعادلة.

وفي أحد الأيام بعد أن عادت الســيدة فريال إلى حلب فور انتهائها من حل مشــاكل الأراضــي والمحصول الزراعــي ورواتب الفلاحين تفاجأت برسالة من ولدها غيّاث يخبرها بأنه لن يحضر هذا العام وذلك لرغبته في السفر إلى روسيا كمنحة من الكلية التي يدرس فيها للتعرف على الطائرات الحربية والمدنية الموجودة هناك، واعداً إياها بمحاولة جادة للقدوم في حال توفر لديه الوقت الكافي.

شــعرت بحزن وبغصة ولكنهــا كعادتها المكابرة لــم تعترف بتلك المشــاعر، ومضت إلى منزل حماتها بعد أن ســمعت بتوعكها.. هكذا هي فريال سيدة الواجبات دون منازع.

وفي أحد الأيام بعد أن استعادت السيدة جليلة عافيتها.. سألتها بشكل مفاجئ:

– وماذا قررت بالنسبة لـ (يمان)؟

– وماذا عنها؟ما الذي تقصدينه؟

– أقصد هاهي قد نالت شهادتها فماذا عن مستقبلها المهني؟؟

– مســتقبلها المهني؟؟ عن أي شيء تتحدثين؟؟ ألا تدري يا حماتي العزيزة أنها ستدير الأراضي الزراعية منذ الآن فصاعداً حسب رغبة أبيها المرحوم.

ـ آه.. هممم.. وهل سألتها عن رغبتها هي..؟

ـ ولم السؤال طالما هي تعرف لماذا درست الهندسة الزراعية؟

ـ فريـال يـا ابنتي.. أنا أحبك لأنني أعلم كـم تحبين (أياس) ولذلك سأنصحك نصيحة لوجه الله.. تقرّبي من ابنتك أكثر.. وأكثر.. لا داعي أن تجعلي المسافة بينكما شاسعة.. اسأليها يا ابنتي. اسأليها حتى تشعر باهتمامك بها.

استمعت فريال لكلمات حماتها وأخذ يخامرها شـيء مرهق يشبه القلق.. عادت بعدها إلى المنزل و قد أرهقها سؤال واحد أخذ يدور من حولها بإلحاح:

ـ تـرى هل سـتخذلني (يمـان) ولا تحقق رغبة أبيهـا بالعمل في أراضينا الزراعية؟؟ ولكن لماذا درسـت إذن ونالت شهادتها؟ لا بد أن أعرف إلام ترمي السيدة جليلة خانم..

لم تسـتطع أن تخمـد صوت مخاوفها في داخلهـا فقررت أن تفاتح ابنتها بالموضوع.

وفـي المسـاء وبينما دخل طـلال ليدرس في غرفتـه بعد ملاحظة حازمة وشـديدة من والدته وبينما كانت (يمان) ترقب أختها هالة وهي تلعب بهدوء بدميتها وقد أخذت دور الأم بكل عناية سألت فريال ابنتها عن خططها المستقبلية بالنسبة لعملها.

فاجـأ السـؤال (يمان) فاتجهت نحو والدتها وجلسـت أمامها حائرة ضائعـة وفي أعماقها طيف رغبة حقيقيـة لأن تكون هي ذاتها.. لا أن تكون كما تريدها أمها أن تكون، وأن تتمكن في هذه المرة من أن تملي

إرادتهـا في اختيار مهنتها ببسـاطة وعفوية وأن يحتـرم قرارها وألا يحاصـر بأوامر أمها، ولكنها تعلم جيداً أن البسـاطة طريق وعر أمام قرارات والدتها التعسفية وطريقتها الاستفزازية في التعامل.

حدقـت بوالدتها بشـيء من الرعـب.. فهاهو قـرار جديد لمصير مسـتقبلها المهنـي سـتقلّبه أمها بيـن أفكارهـا وفجأة أحسـت (يمان) بالقشـعريرة تنتابها حينما تخيلت أن قرارها الذي سـتنطق به سـيكون حتماً كعصفور سجين في قفص (قرارات أمها).

فهي تدرك أن أي قرار شخصي لها لابد وأن يحظى حتماً باختلاف لإرادة والدتها.

– هيا (يمان) ما بك؟؟ أسألك ما هو قرارك؟

– أمـي تعلمين جيداً أنـي لم أرغب بمجال دراسـتي مطلقاً ولكني اخترته لإرضائك.

– لا.. توقفـي.. إنه لإرضـاء رغبة والدك المرحـوم.. أنا أعلم أن صوتـه مازال حياً في ذاكرتك وأنك ترغبين بشـدة أن تحققي ما أراده والدك المرحوم.

– أتعلمين شـيئا يـا أمي..؟ اليـوم وبعد أن كبرت عـدة أعوام منذ شـهادة الثانويـة أدركت أنني كنت مخطئة حين قـررت أن أحقق حلماً لإنسان ميت وأني ضممت نفسي إلى عالم الأموات بتحقيقي لأحلامهم واستجابتي لرغباتهم. واليوم أريدك أن تعلمي أني فكرت جيداً بطريقة عملـي وأنك لن تسـتطيعي أن تملـي علي مرة أخـرى إرادتك في أن أنصاع لأوهام من طواهم الثرى..!

– ماذا؟؟ ما هذه اللهجة؟؟

– أرجـوك دعيني أكمل.. فأنا أدركت في لحظة صحو أن الفرص الجيـدة تمرّ أمامنـا كعارضة أزيـاء تتبختر على ممـر الحياة بخطى سريعة وأنها تنظر إلينا بإغراء ثم تبتسم مودعة لحظة ذهولنا وانبهارنا وتمضي تاركة لنا الحسرة والخيبة على فقدان فرصة استيقافها، ولذلك وحتـى لا تضيع منـي تلك الفرصة فأنـا قررت أن أفتح بيتـاً زجاجياً أسـتنبت فيـه نباتات للزينـة وأن أزرع فيه أزهاراً نـادرة الوجود في بلادنـا.. فقـد قررت أن أجمع بين حبي للجمـال والفن وبين العلم الذي قـدر لي أن أحصل عليه من خلال دراسـتي الجامعيـة، ولن يردعني أي شـيء عن قراري وعن تحقيقه.. وإذا رفضت أن تموّلي مشروعي مادياً فسأجد من يقبل أن يشاركني في هذا المشروع.. أجل سأجد شريكاً وسأحقق مشروعي.

قالـت هذا بكل وضوح وتَحَدٍّ، وتركت لنفسـها فرصة التحديق في وجه أمها المذهول.

صمتت فريال وهي تحدق بذاك الإصرار الذي تجسد في هيئة ابنتها واستغربت لتلك النبرة الحادة في حوارها وآلمها بشدة تلك العدائية التي تختبئ وراء لهجة ابنتها.. استعادت للحظة كلمات حماتها.. (تقرّبي من ابنتك..!).

هالتها مسافة البعد التي بينها وبين ابنتها حين صدمت بتلك اللحظة المصيرية التي رغبت أن تكون لحظة مشاركة لا أن تكون لحظة تحد ومجابهة.

أشـعلت سـيجارة بعصبية أوقدت معها مخاوف (يمان) من رفض

أمها لقرارها.. أطرقت فريال قليلاً ثم رفعت رأسها لتملي قرارها هي أيضاً.

سألت باستغراب مترافق باهتمام حقيقي: و

– بيت زجاجي..؟ من أين أتيت بتلك الفكرة؟

صمتت قليلاً وبعد أن رشفت رشفة من فنجان قهوتها استطردت قائلة:

– في الحقيقة فاجَأْتِنِي بهذا.. لم أدر أنك تمتلكين أفكاراً مدهشة.. وجديدة..!!

أنا موافقة وسأدعم مشروعك الذي تتمنين بقوة، وسأعطيك كل ما تحتاجين لتحقيقه ولكن لي رجاء عندك وهو أن تعيري جزءاً هاماً من وقتك للأراضي الزراعية التي تركها والدك لنا حتى لا يستمر الآخرون بالنهش في خيراتها.. أريدك أن تكوني بعلومك الهندسية ذاك المحامي الذي يدافع عن حقوقنا يا ابنتي.. لا مانع لدي أن تحققي رغباتك ولكن من غير أنانية، وألا تنسي أنك لست وحدك وأنك جزء أساسي من عائلة تنظر إليك بعيون الأمل لتشعر بالأمان.. أرجوك كوني شاطئ الأمان لمن يحبك ولا تخذلي من انتظر نضجك ليكون كسفينة خلاص..!

قالت كلماتها هذه بهدوء حزين شعرت بعده (يمان) بالخجل من أسلوبها الاستفزازي وبالامتنان لذلك التفهم من قبل والدتها الذي احتوى رغبتها المستقبلية.. اكتشفت في تلك اللحظة أنها لم تعرف أمها كما يجب وشعرت برغبة لأن تضم أمها إلى صدرها.. أحست بعدها

ولأول مرة بالقوة وأن شمساً مضيئة قد أشرقت بداخلها في تلك اللحظة واستحالت خيبات السنين الماضية إلى أبخرة تتلاشى أمام قوة وحرارة تلك الشمس.. أحست بأهمية ذاتها وبنشوة القدرة على العطاء.. أحست بالفرح الحقيقي..

(15)

بـــدا البيـــت الزجاجي وكأنه نافذة أو شـــرفة تطـــل على واد أخضر وكان واضحاً جداً للعيان أن هذا البيت لا يعترف إلا بالربيع فصلاً..!

مئات العيون أخذت تتأمل بإعجاب تلك النباتات الخضراء والأزهار العجيبـــة النـــادرة الوجود في بلادنا – من قـــال إن العلم لا يحتضن بين طياتـــه إبداعـــاً وفناً؟؟! (يمـــان) كانت قادرة على أن تثبـــت هذا بعد أن اســـتطاعت أن تضفي لمسة من الجمال على دراستها حتى بدأت تحبها وتشـــعر بالامتنان لها بعدما أحست بعطاء الطبيعة من زخرف وسحر ألوان الزهور والنباتات.

لم توفر (يمان) أية فرصة لاســـتحضار أنواع الزهور من مواطنها الأصلية، ومن ثَمَّ محاولة إعادة استنباتها من جديد إن لاءمتها الظروف المناخية.

فهاهي زهرة (الفلامنجو) تشبه طائر (البشروس).

وهو طائر مائي جميل طويل العنق، ونبات (البيجونيا) ذو الأزهار الشتوية المشرقة، هذا النبات الذي يبرهن على إصرار مذهل بأن يعيش في أجواء بعيدة عن التلوث والدخان وكأنه بهذا يرفض اقتحام آثار ومخلفات المدنية المتمثلة بالغازات والدخان الصادرة من الأفران، وكأنه يعلن ثورة متمثلة بلغة رقيقة للرفض، لعل الإنسان يتعلم منها يوماً الرفض والثورة بصورة راقية.. جميلة.. مثلما يفعل هذا النبات المدهش.!

تحب هي زهرة (الكاميليا) التي تعبر في لغة الزهور عن الكبرياء وعفة وعزة النفس كانت تذكرها بعنفوان المرأة الحرّة، وكثيراً ما زرعت أحواض (المارغريت) المعبرة عن البراءة والطفولة.. هكذا هي (يمان) مزيج من أنثى ذات كبرياء وعنفوان ومن طفلة بريئة.. عفوية صادقة.

أبدعت (يمان) في تكوين ركن خاص للأزهار التي تعبر عن لغة خاصة تشكلت من رموز مختلفة لدى مختلف الشعوب، كانت أغلب هذه الرموز مستقاة من الميثيولوجيا. أما أزهار اللوتس فكانت لها مكانة خاصة في قلبها، فلزهرة اللوتس رموز كثيرة متعددة، فهي مرة رمز للحب الأسطوري الخالد ارتبط معها رمز المرأة والخصب والجمال والخلود منذ أيام الفراعنة؛ حيث أثبتت أن للمرأة سحرها وجمالها وقدسيتها، وأحياناً كانت رمزاً للحزن إذا كانت بتلاتها مقفولة، أو للفرح إذا كانت مفتوحة. وقد توّجت رسوماتها معظم المعابد خاصة في الأقصر حيث ؛ إن الكثير من قمم أعمدة المعابد المصرية أخذت

شكل أزهار اللوتس تشكيلاً لها، كما أن الفراعنة وجدوها تحاكي النيل في شكله، فقد اعتبروا أن أوراقها تشبه البحيرات المتفرعة من نهر النيل وساقها مجراه والزهرة هي دلتا النيل.

أما لدى البوذيين فتقول الحكاية إن زهرة اللوتس قد تكونت عند وطأة قدم بوذا، وهي لديهم عنوان لليقظة الروحية وللنقاء والطهارة ولذلك فهي الزهرة المقدسة لديهم..! كانت تقول لنفسها حقاً إن للنباتات عالماً خاصاً ولها صفات تذكر بصفات البشر وكأنها انعكاس أو امتداد لها، فمنها ما يوحي بالرقة والدعة التي تخشى عليها من لمسة يد، ومنها الوحشية الحضور الصارخة الوجود أو الشائكة الدامية والتي تخشى أن تمسك بك..!!

باتت (يمان) تعيش أغلب أوقاتها بين أزهارها وعوالمها النباتية تقص أوراق تلك النبتة وتزرع تلك البذرة وهي تستمع إلى موسيقى الفصول الأربعة لفيفالدي.. أو سيمفونية القدر لبيتهوفن، وهي لا تدرك أن القدر سيطرق يوماً بابها بقوة ليسرق منها فصولها وليتركها تعيش صقيعاً موحشاً من الذكريات والألم.

وفي أحد الأيام فتح باب البيت وولج منه رجل ذو قامة قصيرة.. نحيل الجسم دقيق القسمات.. يكاد لا يلفت النظر.. خجول النظرة حزينها، ثم بدأ بالتجوال في ردهة البيت وهو يتأمل بإعجاب واضح كل ما يرى من زهور ونباتات، حتى استقرت عيناه فجأة على وجه (يمان).. كانت تبدو شبيهة بزهرة الأوركيد بروعتها والآروم بأناقتها والغاردينيا بقوة حضورها.. توقف للحظة.. وساد الصمت... تأملته هي الأخرى بتعجب خفي من موقفه الفاضح ثم ابتسمت له وقالت:

ـ هل أستطيع أن أساعدك بشيء؟؟

ـ آه.. نعـم.. أجـل.. فـي الواقع كثيراً مـا مررت أمام هـذا البيت الزجاجـي الرائع وتسـاءلت مـن أي فردوس هبط؟ ولكنـي لم أدر أن بداخله حورية أيضاً..!

ـ شـكراً لمجاملتك.. ولكني أكرر سؤالي مرة أخرى: هل أستطيع أن أساعدك؟

استعاد توازنه من جديد وأجاب:

ـ في الواقع أريد أن أقابل صاحب هذا البيت.

ـ إنك تتحدث إليه

ـ أنت؟؟!!

ـ نعم.. وما العجب في ذلك؟

ـ لا.. لاشيء

ثم مد يده مصافحاً معرفاً بنفسه وقال:

ـ أنـا جابر مهندس ديكور، ويتضمـن عمليتصميم حدائق الفيلات والمنازل والفنادق، وأعتقد أنه بالإمكان أن يكون بيننا تعاون مشترك.

ـ بكل سرور، فكرة رائعة.

ـ هل تسمحين لي بمعرفة اسمك؟

ـ اعذر فظاظتي.. أنا (يمان) مهندسـة زراعية سـررت بالتعرف إليك.

ثم بدءا بالتجوال معاً لتشرح له عن النباتات الموجودة، واتفقا على أن يعود في الأسبوع المقبل لكي يناقشا خطة العمل المشترك.

ارتـدى جابر ثيابـه على عجل ولم ينـس أن يحمل معه مخططات الفيـلا المطلوبـة، وكان هذا الرجل رغم ضآلة حجمه يعطي إحساسـاً بالدفء والحنان.

أسـرع الخطى واستوقف أول سـيارة أجرة، كانت الساعة مازالت التاسعة صباحاً فتساءل في نفسه: أيمكن ألا تكون قد حضرت بعد؟ لَمْ يَدْرِ لِمَ أقلقه هذا الاحتمال..!

وصلت سـيارة الأجرة محملة بالراكب المحمول باللهفة وسارعت عينـاه تبحثـان عـن مدخـل المنـزل الزجاجـي وكله أمل بـألا يكون موصداً.

مَـدَّ يَـدَه وفتح البـاب فاسـتقبله صوت فيـروز الصباحـي العذب واستنشقت رئتاه عبق الزهور المنتشر في سديم ذاك المنزل الساحر.

رآها تقف بكل سـمو كتمثـال فينوس آلهة الجمـال لدى الإغريق، ولكنه كان هذه المرة مكتمل الأيدي فجاء أجمل بهاء وأكمل على الأقل بالنسبة له...! مدت يدها لتصافحه أو لتصافح الإعجاب والذهول اللذين سـكناه.. فأحسـت بيده دافئة وحانية ولكنها مرتعشـة.. أطال النظر في عينيهـا.. لم يدر ماذا حدث لـه، خُيِّلَ إليه فجأة أنه عاد مراهقاً رغم أنه قـد تجاوز الأربعين.. لم يسـتطع أن يتجاهل كل هذا الحضور الخاص لتلـك الشـابة الواقفة أمامه.. فكل ما حوله بـدا وكأنه لوحة فنية مكتملة الجمال والألوان ومتميزة برائحة عبير وعبق الزهور السـاحر.. بل..

ولرائحتها هي أيضاً.. رائحة الأنثى الفريدة.. وهو يعشــق الفن.. يهوى الجمال وأمامه في هذه اللحظة انسكب الجمال على هيئة كائن بشري.. فلم يملك إلا أن يصمت أمام حضور شعر بخطورة سطوته منذ اللحظة الأولى.

نظرت مباشرة إلى عينيه مستغربة وتساءلت:

ـ ما الأمر.؟!

انتبه لنفسه وقال:

ـ كنــت دائماً أعتقد أني أســتطيع أن أخلق الجمال وأن أحوّل حتى الخــراب إلى تحف فنية، إلا أني اليــوم أمام حضورك أيقنت أن هنالك عوالم من الجمال والســحر لم أعرفها من قبل، الحقيقة أشــكر الأقدار التي دفعتني للتجوال في جنة الأرض هذه و...

قاطعته بحزم وقالت:

ـ شــكراً لك مرة أخرى ولكن حذارِ مــن مجاملاتك فقد توقعك في شَرَكِ رفض التعامل معك.

ـ أعدك بأني سأمنحك صمتي حتى تمنحيني هبة الاستمرار بالعمل معك.

اتخذ جابر لنفسه مقعداً ثم جلس ليريها مخطط حديقة الفيلا.. وبدأت (يمــان) بإعطائــه بعض الأفكار عن طبيعة ونوع الأشــجار والنباتات الممكن زراعتها.. ثم استدارت فجأة وقالت:

ـ في الواقع يلزمني زيارة ميدانية لموقع الفيلا حتى أدرس تموضع

انتشار الشمس والظل فيها لأحدد نوعية النباتات الممكن زرعها بدقة، هـذا بالإضافة إلى أن رؤيتي للمكان يسـاهم أكثر فـي إنعاش ذاكرتي بأنواع النباتات.

ـ بكل سرور.. سأمر عليك غداً وآخذك لتعايني المكان.

ـ غداً؟؟ لا.. لا أستطيع. دعها في بداية الأسبوع القادم

ـ كل هذه المدة؟؟! ولكنا ما زلنا في بداية الأسبوع..!

ـ أعلم ولكنك فاجأتني بمشـروعك وأنا علي أن أسـافر إلى تركيا لأحضر بعض أنواع زهرة القرطاس.

ـ حسناً كما ترغبين.

خيل إليها للحظة أنه تضايق ولكنها لم تدر السبب الذي جعلها تؤجل الموعد، فقد كان بإمكانها أن ترجئ سفرها ولكنها لم تفعل.

بعد هذا ولأشـهر عديدة تكررت لقاءاتهما وازدهر العمل المشترك بينهما وراج اسماهما كعلامة مميزة للذوق الرفيع والفن الراقي.

كان جابر لا يضيع أية فرصة للقائها بل على العكس كثيراً ما ابتدع فرصاً من أجل أن يراها.

أما هي فقد سـعدت جداً بهذا العمل ولكنها قلقت لأجل شـيء آخر حاولـت جاهـدة أن ترفضه في أعماقهـا.. فقد بدأت تخشـى أن تتعلق به..!

إذ كان الحـزن فـي عينيه دعوة لها لأن تدخل مجـدداً في محراب الحب..!

خافت كثيراً من مشاعرها وهي التي وعدت نفسها ألا تستسلم لنداء العاطفة بعد تجربتها مع (يزن).

حاولـت أن تختصـر لقاءاتها بـه وأعمالها معـه متحججة بذريعة الوقـت وخاصـة إذ أدركت أن عقيدته مختلفة عن تلك التي تحملها منذ الولادة..!

لـم تكن تريد أن تقحـم روحها في متاهة الشـوق والحب من جديد وهي تعرف مسبقاً أنه لا أمل للقائهما وبقائهما معاً.

ولكـن الحـزن في عينيه أخـذ يمنحها إغراءً بدفء إنسـاني عذب ويعكس ظلال روحه الشـفافة المفعمة بالحنان كلهب موقد تلوح ظلاله على جدار غرفة باردة في ليلة شتوية كثيراً ما تساءلت:

كيف يمكن لتلك النظرات السـاهمة في عينيه أن يكون لها مثل هذا الحضور الآسر في نفسها..؟

دخلت دون إرادة منها مغارة التساؤل لتتساءل عن سرّ افتتانها بذاك الحزن البهي؟؟

وذات يوم قررت أن تنتقل إلى سـاحة السـؤال المباشر وسألته من غير أن تخفي ارتباكاً عربد فوق ملامحها الطفولية:

– جابر.. ما سبب هذا الحزن..؟

– حـزن؟؟ أي حزن هذا وأنا معك وأنت سـماء الفـرح، والحوار معك قطرات الحبور؟!!

– ذاك الذي يسكن عينيك.

ـ لا يوجد حزن طالما أنت وزهورك الرائعة من حولي

ـ لا تتهـرب ممتطيـاً كلماتـك العذبة وأنا ألمحه دائمـاً يتثاءب في عينيك.

هنا أشاح بوجهه بعيداً وتأوه آهة نفضت رواسب الألم المكدسة في أعماق روحه.

ـ أنا لا أريد أن أجرّك إلى عوالم الحزن في داخلي

ـ وإذا قلـت لـك بأني مفتونة به وأنه ينسـاب ببطء ليحتل مسـاحة الاهتمام لدي.

ـ (يمان) يا سـيدة الكلمة والجمال.. سـأبحر بك في بحري الكئيب لأطلعك على جزيرة حزني حيث ترسو مرساة ألمي وعليك أن تتحملي عواصف هيجاني وثورتي أثناء رحلة السرد.

قـال هـذا وراح ينظر بعيـداً وكأنه يقرأ تاريخه فـي صفحة الأفق الممتد أمامه وبدأ صوته يسكب مرارة أسراره.

منـذ خمس سـنوات وبعد أن عدت مـن غربتي الطويلـة في بلاد الضباب وبعد أن أشـرقت من جديد في عيني شـمس بلادي وانتشرت في روحي أشعة استعارت دفأها من دفء العائلة والوطن.

عـدت لأهلي ولإخوتي.. لتلك الحارة التـي طالما لعبت في زقاقها بالدحل والكرة وحتى المصارعة التي كثيراً ما كنت المهزوم فيها، ومع ذلك أصرّ بكل عناد الكبرياء أن أهاجم من هو أضخم مني وأقوى..

عـدت مـن جديد لحضـن الانتماء ألتمـس منه حنانـاً افتقدته زمن الغربة.

كانت فرحة الجميع بي نقية صافية صادقة مثل الدمعات المذروفة لحظة اللقاء..

كانت لهفتي تتمحور لحظة لقائي بأخي رامز.. صديقي وروحي المتجسدة في شخصه.. كان هو تاريخي.. فهو زمن الطفولة وضجيج المراهقة وحماس الشباب.. كل هذا الكيان كان ببساطة هو..!

كنا متلازمين بشكل دائم.. متفاهمين بإصرار.. متحديين لكل الصعاب..

هو مرآة عكست يوماً كل كياني..

وذات ليلة وبينما كنا في المنزل وفي غرفة الجلوس تحديداً نلعب الشطرنج دخلت جارتنا أم كريم ومعها صبية جميلة لتهنئ أمي بعودتي.

لم أعرف تلك الصبية في البداية.. فقد كانت طفلة حين غادرت الوطن وإذ بي أراها أنثى ذات جمال شرس يشبه غابة وحشيّة يتمنى المرء لو يبقى العمر يعدو فيها.

اقتربت مني وقالت:

– بالطبع لا تذكرني.. أنا سالي.. سالي الصغيرة التي كنت تمطرها بحبات الشوكولا والسكاكر

صحت بلهفة واستغراب:

– آه سالي. أيتها الصغيرة لقد كبرت بسرعة وسرقت كل الجمال ممن هن في مثل سنك.

ضحكت واتجهت نحو رامز تسأله من الرابح في اللعبة؟؟

أجــاب حينها أخــي رامز.. في لعبة الشـــطرنج لا بد لملك واحد أن يعيــش ولا مانـــع أن تموت من أجله كل الفرســـان وأن تهوي من أجله القلاع، وأنا اخترت الحياة لذاك الملك الذي هو أمامي..

ثم نظر إلي وابتسم بحب..

لم أدر وقتها أني سأُهزم.. بنصري..!!

تكررت زيارات ســالي لنــا كنا خلالها نلعب الشـــطرنج أو الورق أو نتحاور بقضايا شــتى، وكثيراً ما ذهبنا لدور الســينما، ما زلت أذكر كم اســتمتعنا بالجلوس في الكافيتريات وتلك الســاعات التي أمضيناها في التســكع فــي الحديقة العامة أو حتى للرقص فــي الحفلات التي كنا نحضرها.. كنا (ثلاثي رائع).. نتبادل الأفكار والهدايا و..الأوهام..!!!

و من دون أن أدري لففت وشـــاح الحب حولي وتعلقت بها ورحت أنســلخ عن توأم روحي رامــز، بل بدأت أضيق ذرعــاً بوجوده الدائم معنا.

أحسست فجأة بأني أريد أن أستأثر بتلك الكائنة الوحشية وأن أعدو معها في رحاب الأرض دون رفيق ثالث..

تصوري.. لم أعد أراه رفيق الدرب بل بدأت أحس بثقل وجوده إلى جواري وبوطأة حضوره، حتى بدأت أختلق المشاكل معه، بل وقادتني أنانيتـــي إلى افتعال الكثير من الخلافــات التافهة حتى أزيحه من درب الوجود معنا أنا وسالي..

غروري كان يضج بالتحدي والثقة بأنها ســتحبني أنا.. ولم لا وأنا

ذاك المهندس ذو الشـهادة القادمة من بـلاد الضباب الغارقة في جمال طبيعتهـا ورقيها..؟؟! أما هو فكان مجرد موظف بسـيط لدى صاحب معمل نسيج.

فهو لم يكمل دراسته من أجلي أنا.. أجل من أجلي أنا حتى أستطيع أن أسـافر لأصبح فيما بعد مهندساً يتبجح بكل غرور أمام ذاك النبيل، فقـد اختار أن يبقى هو للعمل وأن يسـاعد أبي فـي مصاريف المنزل وتكاليف دراستي.

يا لتفاهتي وحماقتي آنذاك.. ويا لشهامته إذ لم يجعلني حتى أن أتذكر تضحيته.. فقد نسـيتها أنا حين أقنعتني نبالتهُ أنه لم يعد يذكرها...... يا لنكراني للمعروف!!!

مرت الأشـهر وأنـا على هذه الحالـة لم ألحظ خلالهـا أن (رامز) قـد أخذ بالابتعاد تدريجياً وأنه كان يفضـل الجلوس في غرفته وحيداً، اعتقـدت حينها ولفـرط غبائي أنه قـد أدرك أخيراً أنه عليـه أن يُهْزَمَ أمامـي وأن يـدرك أنه آن له أن يمنحني مسـاحة حريتـي لأتفرد بتلك الرائعة المشتهاة... سالي.

لـم ألحظ من شـدة انغماسـي فـي أوهامي حينهـا أنه.. أنـه كان.. يحتضر..

أجل.. كان يحتضر..

امتلكنـي الإحسـاس بزهو الانتصار وخيل لي أن سـاحة الحب قد أصبحت ملعبي الخاص..

ذات يـوم.. كنت وسـالي في غرفة الجلوس نشـاهد فيلمـاً عاطفياً

وكانت أمي تعد العشــاء ورامز كعادته في غرفته.. كانت ليلة شــتوية باردة وقد أخذ لهيب المدفأة يعكس ظلالاً على وجه ســالي أشــعل فيه جمالاً وحشــياً وكأن قبيلة نســاء اســتيقظت لتوها حتى تقدم راكعة كل قرابين الأنوثة لتضعها عند قدميها.. بدت شهية إلى حد الجنون.. أخذت أتأمل وجهها بشــوق فنان مقطوع الأيدي لا يتقن الرســم إلا بشــفاهه.. كانت شــفتاها باباً مشــرّعاً للرغبة.. وأسنانها البيضاء مراكب من نور تدعوني للغوص في بحور امتلاكها.

اغتنمــت الفرصة بعد أن تملكتني رغبة ملحة لتقبيلها فاقتربت منها وأنا واثق من شدة غروري بأنها تمتلكها نفس الرغبة لتقبيلي.

ضممتها إلى صدري وبدأت أنقل بشــفاهي أمواج الرغبة الجامحة بهــا.. كانت قبلــة محمومة من طرف واحد.. دفعتنــي بقوة عنها بعدما اســتطاعت أن تفلــت مــن إعصار هيامــي صاحت بعدهــا في وجهي صيحة جذلة ملتاعة:

ـ ولكــن كيف؟؟ هل فقدت صوابك؟؟ كيف اســتطعت أن تفعل هذا بنا أنا ورامز.. رامز أخوك الحبيب؟؟ أي خائن أنت؟؟

استغربت كثيراً ردة فعلها وسألتها:

ـ رامز؟؟ وما دخل رامز بأن أقبلك؟؟

ـ ما دخله؟؟ أنت حقاً معتوه، ألا تعلم أننا في عداد المخطوبين؟؟

ـ أنت.. و.. رامز؟؟ مستحيل لا يمكن هذا

ـ كيف مستحيل؟! ورامز هو كل حياتي.. وحبي وسنين صباي

– كل حياتك؟؟ وأنا؟؟

– أنت؟ أنت أخوه الذي يحبه، وبما أني منه وهو مني فأنت أخي أنا أيضاً..

– هل تدركين ما تقولين؟ أخوك؟ أنا لا يمكن أن أكون أخاك أبداً وكل تلك الحرائق التي تشتعل في جسدي حين ألمح طيفك يمر أمامي أو أمام خاطري..

– نعم تلك هي مشاعري نحوك.. مشاعر أخوية صادقة.. أستغرب وأنت المتعلم المثقف كيف لم تلحظ حبي لأخيك وأنك لم تميز الفارق بين أخوية المشاعر وبين الحب والرغبة.. يا للعار كيف سأقص على رامز ما جرى دون أن أصدمه بأخيه الذي يعبده.. أنت حقاً إنسان أناني مغرور لا مبالي.. أنا أحتقرك.

قالت هذا وخرجت بعد أن صفقت الباب بقوة أمامي أنا الذي وقفت مذهولاً أمام حقيقة كانت واضحة كالشمس ولكن ضباب رغبتي وغروري حجباها عني

دخلت أمي مسرعة وسألت:

– ما الأمر؟؟ ماذا حدث؟؟ وأين سالي؟؟

أجبتها باستسلام مؤلم:

– رحلت....!!.أمي هل هي حقاً مخطوبة لرامز؟

أجابت بحزن:

– أجل يا حبيبي.. هما مرتبطان.

– ولكـن؟؟ لِـم لَمْ يذكر لي أحد هذا من قبل؟؟ كيف أمكنك أن تخفي عني أمراً كهذا؟؟ ولم لم يخبرني به رامز؟؟

– لأن هذه هي إرادة رامز.

– إرادة رامــز؟ ولمــاذا يريد أن يخفي عني أمر خطوبته؟ ألســت أخاه؟؟ ألست فرداً من هذه العائلة؟

فجأة انفجرت أمي بالنحيب والبكاء الهستيري ولم تعد تتمالك نفسها وراحت في شــبه إغماءة.. أرعبني هذا كثيــراً وهرعت لأجلب لها ما يساعدها على استرجاع أنفاســها المنتظمة، ورحت أهزها وأحتضنها بقوة قائلاً:

– ماما.. ماما ما بك؟هل أحضر لك طبيباً؟ أنت مريضة؟؟

لم البكاء أمي؟؟ ماذا يجري؟؟ أخفتني؟

نظرت إلي بعينين كان الألم والأسى قد استوطنا مقلتيها وقالت:

– أنا لا أحتاج لطبيب.. من يحتاجه فعلاً هو أخوك رامز.. لا بل أنه حتى لم يعد بحاجة إليه إنه بحاجة إلى معجزة.

– رامز؟ ما به رامز؟

– رامــز إنــه.. إنه يحتضر يا جابــر.آه يا ولدي أخــوك يحتضر.. يحتضر

– ماذا تقولي أمي؟ هل أصابك شــيء؟ إنه شاب في مقتبل العمر.. كيف؟

– جابر إنه مصاب بسرطان الرئة.

– سرطان الرئة؟

– نعم قال لنا الطبيب إن (رامز) وبسبب عمله في معمل النسيج والدباغة كان يتعرض لشم روائح كيميائية حركت الخلايا السرطانية لديه وبدأت بالانتشار السريع.. وأنه لا أمل لشفائه.. لا أمل.. لا.. أمل..

أحسست بالانهيار.. لم تعد قدماي تحملاني.. تذكرت جيداً.. أجبرتني ذاكرتي لأن أقطع تذاكر العودة لرحلة الزمن حتى أسترجع حواراً دار بين أبي وجابر لسنوات خلت..

– ولكن يا رامز يا بني كيف ستتوقف عن دراسة الحقوق؟

– لا عليك أبي.. المهم أن أعمل كي أساعدك في المصروف حتى يستطيع أخي أن يكمل دراسته في دولة راقية.. كإنكلترا أو إيطاليا

– ولكن؟؟ وأنت؟؟

– ماذا عني؟؟ أنا لا أهتم كثيراً بدراسة الحقوق.. المهم أن يدرس أخي ويحقق حلمه بأن يصبح مهندس ديكور مشهوراً.. أما أنا فأحلامي بسيطة مقارنة بحلمه الذي أصبح بالنسبة له هاجساً يؤرق نومه.

– ولكن ماذا ستعمل؟؟

– أحد المعارف عرض علي العمل في معمل نسيج ودباغة وأنا وافقت.

– وافقت.. هكذا دون أن تستشير أباك.. أو أن تأخذ موافقتي؟ كن

على ثقة أنا لن أقبل بتضحيتك من أجل أخيك.. عليه أن يدرس هنا.. أن يختار ما يلائم ظروفنا المادية.. لن أدع حلمه يسرق منك مستقبلك.

– ولكـن يا أبي أنا قررت ولن أتراجـع عن قراري فحلم جابر هو حلمي

وأنا أحترم خياره في اختيار شـهادة نـادرة الوجود في أيامنا هذه، والمسـتقبل ينتظـر قدومها نظراً لمـا تمر به بلدنا من تطـور بدأ يهتم بالنواحي الجمالية والحضارية.. وأنا واثق أن مستقبلاً مبهراً يقف على أعتاب الأيام يحمل بين يديه جائزة الإبداع لأخي جابر..

نعـم بابا حلم جابـر هو حلمي.. لن أتخلى عنـه، وأنا متأكد من أنه لن ينسـى يوماً تضحيتي التي تدل على مدى حبي له.. وحتى إن نسيها المهم أن تعرف ذاكرته روح الإبداع.

كنـت أسـتعيد الموقف ودموعـي نزف الألم تنسـاب مني.. تحرق ضميري.. تشعل نيران الندم.. تلسع كالسوط أنانيتي المخزية.

سـاحات الجامعة في عمري قابلتها سـاحة مرض قاتل كان ينتظر أخـي مختبئـاً بخبث في ذاك المعمل حيـث كان يعمل فيه لأجل تحقيق مزيد من الدخل لأجلي أنا..!!

لم تكتف أمي بهذا بل أمعنت بغرز سـكين الندم والخجل من نفسـي بداخلي إذ أفضت لي بقرار آخر لرامز جعلني أشعر بضآلتي حتى يوم القيامة..

– أجـل يـا بني إنها رغبة رامز.. لم يشـأ أن يدعك تتألم بل أرادك مسروراً وخاصة أنه شعر باهتمامك بسالي، فأراد أن يبتعد من أجلكما

وآثر العزلة والألم وحيداً حتى يفســح لكما المجال للتقارب أكثر.. أنتما الاثنان اللذان أحبهما أكثر من نفسه.. كان يبدو مطمئناً إذ سيترك سالي معــك.. مــن أجلك.. قال لي يومــاً إن الأقدار شــاءت أن تكون أحلامه فــي خزينــة أيامــك لأن الأقدار تعلــم أن خزائنه قد فرغــت من الأيام القادمة..!

جلست منهاراً.. لا أقدر على البكاء.. لا أقدر على التنفس.. لا أقدر على الحياة..!

كلمــات أمي واعترافاتها اخترقت وجداني وأمعنت بغرس الألم في صــدري.. نظرت إلى غرفة رامــز.. ذاك الذي يقبع فيها وحيداً إلا من ألمه ويأســه و.. عظيم تضحياته.. وأنا الجالس هنا على أعتابها أخشى الولوج إليها.. أحسست بصقيع الموت يحوم حولها.

بدأت خواطر مؤلمة تعتصرني.. وبدت أنانيتي تلوح أمامي محركة آهات خَجِلَة صاحت في أعماقي.. أردت أن أتبرأ من نفسي.. أن أنتفي مــن ذاك الوغد الذي كبر في أعماقي يوم ســمحت للغرور والزهو أن يســتوطناني حتى احتلا بقسوة مكان العرفان بالجميل.. فطرداه خارج حدود إنسانيتي..!

كيف لم ألحظ شــحوب أخي..؟ كيف لم أشــعر بألمه؟ كيف تجاهلت وهج الأخوة أمام وهم الحب والرغبة؟؟

كيف لم ألحظ شــقاء أمي وهمّها وعذاباتها؟؟ لماذا لم ألحظ دموعها الغافية؟؟ ودمــوع رامز المكابرة المختبئة خلف حنان الأخوة وكبرياء الرجولة؟ ألهذا الحد اســتأثرت بنفسي وانشغلت بتكوين مملكتها؟ حتى

رحت أحضّر مكتبي ومكان عملي وأخطط لمستقبلي وأحلم بحب جارف وامرأة شهية وعمل مشرق ومكانة لامعة.. وانهمكت بشق طريقي متجاوزاً من هم حولي دون أن أعيرهم ابتسامة شكر أو نظرة امتنان؟! ألهذا الحد استسلمت لنرجسيتي؟

أحسست بأني لن أقوى على النظر في عيني أخي الذي لم يرض أن يكشف عن آلامه أمامي وقرر أن يواجه وحش المرض المفترس وحيداً بكبرياء حتى يبعدني عن ركن الكآبة والعجز المظلم.. أرادني أن أعيش سعيداً وقطع هو تذاكر رحلته في قطار الألم ليصل إلى محطة الموت المنتظرة..

أية نبالة تحلّى بها وأي جحود لطفولة وحياة مشتركة بل وأي تجاهل وأنانية قابلته أنا بها؟؟ تذكرت حينها قولاً لبلزاك: (إن للنفوس النبيلة حياء يمنعها أن تبدي آلامها أمام من تحب).. حقاً كان هو ذاك النبيل وأنا ذاك النذل الأناني.

مرّت ليالٍ وأنا مزروع أمام غرفة رامز.. لا أجرؤ على الدخول إليها؛ فقد كان الخزي والعار حارسين شرسين لها يتربصان بكل رغبة لي بدخولها..

وفي أحد الأيام وعند الفجر تحديداً.. حين أهدت الشمس أولى خيوط الدفء والحياة.. سمعت تأوهات أخي وصراخ ألمه.. ركضت مسرعاً متجاوزاً كل خجلي وفتحت باب غرفته وركعت بجانب سريره ودموعي تسابق كلماتي..:

– رامز.. حبيبي.. أخي الغالي.. روحي فداك

نظــر إلي بحنان ممزوج بالحنيــن.. أجل الحنين .. فأنا ابتعدت عنه زمن جبني وأنانيتي.. يا لحقارتي..!

نظر إلي وقال بصوت موهن:

– جابــر.. هل عرفت؟؟ أنا لم أكن أريــدك أن تعرفـ..الآن أصبح الموت أشد ألماً وبشاعة.. أنا أريدك سعيداً فرحاً كعادتك.

– رامز.. أنا..

– لا تقل شــيئاً.. أنا ســعيد من أجلكما.. سأموت مطمئناً إذا استطاع الحب فعلاً أن يجمع بينكما..

قال كلماته وأخذت أنفاســه تشق طريقاً وعراً في دروب رئتيه التي احتلها ذاك المرض الخبيث.. نظر إلي مجدداً وتابع حديثه:

– جابــر كن متأكداً أنه حتى لو لم يكن الموت ضيفي ورفيقي كنت سأبتعد عنها من أجلك.. لا يمكن لأية امرأة أن تباعد بيننا.. كيف يمكن لامــرأة أن تزاحم الماضي وليالي الأســرار والمغامــرات والأحاديث التي بيننا؟؟ هل يمكن لامرأة أن تنافس التاريخ؟؟

جابر.. أنت هدية الزمان لي وأنا أهديك.. سالي

لم أســتطع أن أتفوه بحرف.. فقد لجمت عواطفه النبيلة كل الكلمات فبــدت تافهة أمام عظمة إيثاره واســتطاع نبل موقفــه أن يجلد ذاكرتي بقسوة لأستعيد معاً ضحكاتنا وأسرارنا..

تعب رامز من شــدة الانفعــال وآثر بعدها الصمت والابتســامة لم تفارق شفتيه..ارتاح قليلاً بعد أن أعطته أمي حقنة المورفين الذي كان

يأخذها سراً حتى لا ألاحظ ألمه وكي لا أسمع صراخ عذاباته.

جلسـت إلى جواره ثلاث ليال متواصلة.. كانت أمي المسكينة تبدو ملتاعة لذاك المشـهد الأليم..ابن يحتضر متحملاً عذابات مرض شرس يفترسه.. وآخر يفترسه عذاب الضمير.. والخجل.

كانت سالي تجلس إلى جوارنا وقد أكسبها الحزن جمالاً نبيلاً.

وفي يوم كئيب كنا نحن الثلاثة أمي وسـالي وأنا نرقب بألم رقصة الموت على جسـد أخي المرتعش وصوته الواهـن الضعيف يزيد من عذاباتنـا.. كان البرد ليلتها شـديداً والمطر يطـرق النوافذ بقوة.. كنت أشـعر بأن المطر جاء محمـلاً بماء الحزن، فقد بـدت قطراته وكأنها دموع تودع وجه رامز..

فتـح فجـأة رامز عينيه المغمضتيـن ونظر باتجاه النافـذة، ثم تمتم بكلمات مبهمة وسكت بعدها إلى الأبد..!

أخذت أصرخ بلا صوت وانفجرت بداخلي لوعة أحرقت كل الفرح الذي عرفته يوماً في حياتي

وأيقظ الحزن هذيان الروح.. نظرت من حولي غير مصدق.. رامز الآن جثة هامدة..!

رامز.. رامز.. رحت عبثاً أردد اسمه وأهز جسده الواهن علّي أعيد باهتزازاتي نبض الحياة.. لن أنسـى أبداً مسحة الحزن الإنساني النبيل علـى وجهه الغافي بين أحضان الموت، مازالت صورة النعش تلاحق ذاكرتي ومسحة ضبابية من حزن أسود يحتل زوايا الشوق إليه.

بعد أن تمت مراسيم الجنازة في الكنيسة أمسكت بيد أمي المنهارة وأنا أشد انهياراً.. لم أدر حينها أكنت أمسك بها أم تمسك هي بي؟؟ أم كانت عناية السيدة مريم وعطفها هي اليد الرحيمة التي أمسكت كلانا معاً..

تقدمت يومها سالي مني.. كانت لحظة متلبسة بالفجيعة تلك التي التقت نظراتنا فيها..

نظرت إليها وشعرت بأني إنسان مهترئ المشاعر.. هش.. ضعيف..

نطقت هي باسمي.. ثم سكتت..

كانت أنثى تتشح بالسواد وكان حزنها على رامز كهالة نور تحيط بها فبدت كقديسة تحمل قربان الألم..اقتربت مني وعلى شفتيها وصية رامز بأن تبقى إلى جواري أبداً.

لحظتها أثيرت عاصفة من ذرات الرفض تجاهها، ولدت كزوبعة شرسة في داخلي، أحسست أني آتي جرماً حين أنظر إليها ولاحت لي مذلة من قام بالخيانة ثم عرف الندامة والخزي بعدها، ووجدت نفسي أواجهها بما أشعر به، إذ اعتقدت حينها بأنني لم أحبها هي بل أحببت غروري ونرجسيتي فيها.

– سالي... موت رامز سلخ مني كل مشاعري تجاهك...

ستكون ذكراه حاجزاً أبدياً بيننا، وسأبقى مقيداً مرمياً في كهف الندم لأنني من بين كل النساء أحببت حبيبة أخي... يا لحقارتي..!

لـن أعيش ممزقاً بين الرغبـة والندم.. أعلم أن (رامـز) أرادنا أن نكون معاً وأعلم أن وفاءك وحبك لرامز سيدفعانك بالقبول بي إرضاء له، ولكن وفائي له سيمنعني من أن أضمك إلى صدري أو أن تتلامس شـفاهنا يوماً.. أحس بأني أصبحت الآن أسـيراً لأسـاي المفجع بفقدان رامز.. وأنا واثق بأني لن أسـتطيع يوماً السـير في دروبك بعد الآن.. وداعاً سالي .. فحبي لأخي أقوى من رغبتي بك..

أطـرق جابر وهو ينظر بثبات نحـو الأرض وكأنه يقرأ ذاكرته ثم استرسل قائلاً بعد أن أطلق زفرة مكتومة:

بعدها بفترة قصيرة بعت المنزل واشـتريت منزلاً آخر سـكنت فيه مـع أمي كنت أريد أن أهرب من أيام سـكنت ذاك المنزل اسـتطاعت بسوادها أن تشوه بياض الذكريات الحلوة..

كنت مرتاحاً لأنني ابتعدت عن سـالي.. حتـى لا تبقى في ذاكرتي كضوء قطار قادم من بعيد لابتلاعي..

هذا هو سر حزني (يمان).. موت أخي وقتل حبي.

ارتعـش صوت (يمان) وهـي تحاول أن تمنـع انتفاضة دموع في عينيها..

– جابر.. كم عانيت أيها العزيز..!

(16)

مر شهران على رحلة اكتشاف الأعماق.. سعى خلالها جابر جاهداً قدر الإمكان أن يبقى إلى جوار (يمان)، فهي هدأة روحه واستكانة سرّه ورعشة نبضه.

أما هي فقد كانت تسعى للهروب منه.. فقد بدأت مشاعر الحب تزحف نحوها.. وأخذت تشعر بأن (جابر) أصبح نافذة روحها التي أغلقتها في وجه رياح الحب.. ولكن.. كيف يمكن لها أن تحبه؟؟ كيف؟؟

وفي أحد الأيام رن الهاتف في البيت الزجاجي

– آلو.. من.. جابر..؟ صباح الخير

– صباح الخير والورد والجمال.. كيف حالُكِ؟؟

– الحمد لله وأنتَ؟

– أنـــا بحاجة ماســة لرؤيتكِ التي تحرمينـــي منها في كل مرة.. هل أراك اليوم؟

تســارعت ضربات قلبها.. ورغب شوقها إليه أن يجيب بنعم وألف نعم.. ولكن إجابة مصطنعة على شكل سؤال بارد كان ردها:

– آه.. ولماذا؟

– فــي الواقع أريـدك أن تتطلعي على أرض هــي أحوج ما تكون للمساتك الساحرة حتى تصبح جنة الله على الأرض.

لم تدر (يمان) أنه كان يقصد نفسه..!

– حسن ومتى سأراك؟

– الآن إذا شئت؟

– لا.. لا.. فلَدَيَّ عمل كثير

– ألا تلاحظيـن معي أني في كل مرة أطلب فيها أن أراكِ تحاولين أن تطيلي المســافة الزمنية بيننا..؟ لمــاذا تجعلينني أنتظر؟ لم كل هذه القسوة؟

– لا، أنــت مخطئ، وما الذي يدفعنــي لهذا؟؟ فنحن كل ما بيننا هو العمل وأنا حريصة على العمل معك.

– العمل؟؟

– أجل العمل.. وهل هناك شيء آخر؟ ثم إني فعلاً مشغولة..

– حسناً.. سآتي لأساعدك

– ولكن.. آلو.. آلو

أقفل جابر الخط وفي داخله إصرار عنيد للقائها.

بقيت (يمان) تكتب لائحة لدلالات الأزهار أوجدتها من خلال قراءاتها للميثيولوجيا.. وبدأت تكتب بخط جميل لغة الأزهار:

التوليب: رمز الاستقامة

الآروم: رمز الأناقة

الأضاليا: الاعتراف بالجمال

الليليوم: قلبي الطاهر لك

عصفور الجنة: الحب بلا حدود

وهنا اقتحم عليها جابر المكان بصوته الدافئ.. إذ لم تشعر بدخوله لشدة استغراقها في الكتابة..

– (يمان)..

– جابر:؟! أهلاً بك.

دخل تحمله لهفة اللقاء ورغبة البوح المنتظر، اقترب منها تلاحقه أنفاسه المتقطعة.. فجأة أمسك بيديها وسألها بإصرار:

– لم تحاولين الهروب مني؟

أشاحت بوجهها بعيداً حتى لا تنظر في عينيه، ولكنه احتضن وجهها بيديه قائلاً:

– (يمان).. مثلما تولد الزهرة بصمت وسكينة وُلِدَ حبي أنا إليك.. أحبك (يمان).. أحبك.

قطف وردة بيضاء ووضعها على شعرها الطويل وقال بحب:

– (يمان) أنا لا أتقن فن الغزل والكلام، ولكني أعرف حقيقة واحدة هي أني أحبك.. فهاهي وردة بيضاء أقدمها إليك لونها من بياض قلبك وصوتها من جراحات صمتي.. أحبك جداً والألم يعتصرني لأني أعرف أني أخرج خارج حدود اتزاني وسيطرة عقلي، ولكن حواسي ما عادت تحت سيطرتي، فأنت أغنيتي وأنت سمائي.. فيك سُمُوُّ الملائكة.. وجمال الحياة.. أنت دفق العشق وسر الحب.. أراك دائماً في كل الأمكنة.. في أصابعي في ملامحي.. أراك تتجولين في أحداقي أسمعك لحناً يحرك عذاباتي ويثير حماقاتي.. أترنم باسمك يا امرأة أشعر معها بابتداء الحياة وابتداء الأحلام.. يا امرأة أشتاق إليها.. أشتهيها أنت وحدك الحلم الصعب.. تنهمرين بداخلي كمطر غزير يسقي كل هزياني وهيامي.. حين أراك.. أو حتى حين لا أراك تخرج من مساماتي الرغبة لأَنْدَهَ اسمك بقوة.. لأضمك.. لأشبع شوق شفاهي لك.. يا امرأة استعبدني كل ما فيها... أحبك.. أحبك.......................

استطرد قائلاً:

– كان يوم لقائنا.. يوم عذابنا.. أعرف أنه كان علي أن أبتعد.. ولكن للحب سطوة تجبرنا على الخضوع..الحب حالة تمتهن التطرف.. لا تعرف الوسطية.. لا تتأرجح بين المنطق والجنون..الحب إما أن يكون أو لا يكون .. وأنا حين أحببتك أدركت معنى أن أكون..!

ثم ضمها إليه بقوة واشتعل الشوق إلى تقبيلها وعناقها وراح

يمطرها بقبلات استعارت لهيبها من أتون الحب.. تنقل إحساسه بالحب الحقيقي والرغبة الصادقة..

استسلمت شفاهها البكر لأول قبلة من رجل يعرف كيف يكون الحب.

كادت أن تتلاشى في سديم عذب لم تعرفه من قبل.. ولكنها أبعدته عنها وصاحت:

- هل جننت؟ ماذا دهاك؟

- أجل جننت.. جننت يوم أحببتك ولكن ألم يقل زرادشت: (إن في الجنون شيئاً من الحكمة..؟؟)

وأنت هي الحكمة كلها.. أنا أحبك.. أحبك لا أستطيع أن أهرب من ذاتي.. قدري أن أحبك.. أنت قدري.. عيناك موطني.. وصدرك انتمائي..

افهميني.. وارحمي حبي لك..

راحت تستمع إليه وصوته الحزين يذكرها بأصوات أجراس الكنائس، وصدى صمتها بابتهالات المآذن الشجية.. أدركت هذا التناغم الرائع لكلا الصوتين ولكن.. مستحيل.. مستحيل هذا اللقاء

نعم صوت السماء يجمعهما ولكن الأرض تباعد بينهما..

فصاح صوت العقل بداخلها يلوح بالمستحيل راية منكّسة حزناً على حب كتبت له الأديان الهزيمة والانكسار..!

قالت له:

– أنا لا أحبك.. ولا أستطيع أن أحبك

– غير صحيح... أنت تحبينني أشعر بهذا.. لم تحاولين الهروب؟

– مخطئ جداً.. أنا لا أحبك وأرجوك لم أعد أرغب برؤيتك بعد هذا اليوم أبداً..اخرج من حياتي وانس أنك قابلتني يوماً..

– أنسى..؟؟ (يمان) أنا أحبك وأنت تعلمين هذا.. أحبك

اقتـرب منها مجـدداً محاولاً أن يضمها بيـن ذراعيه فصرخت في وجهه:

– ألا تفهم؟؟ أنا لا أحبك.. هيا ارحل من هنا.. ارحل.. أرجوك.

ابتَعَدَ عنها جابر.. مصدوماً.. مهزوماً.. وقال بكبرياء مجروح:

– حسـن كمـا ترغبين.. أنا أحتـرم قرارك.. أحترم قـرار إعدامك لي..

لعل ذنبي – في أن أحبك – يستحق الإعدام..!! مل بغأضور

خـرج بعدهـا.. ولـم يعد أبـداً.. وكذلـك هي لـم تعد كمـا كانت.. أبداً...!!!

بكت (يمان) بحرقة في يوم اسـتلمت منه رسالة يقول فيها إنه قرر الهجـرة من وطن لا يعترف بحب قـد ولِدَ رغم اختلاف الأديان.. وأن هـذا الحب هو تماماً كوليد مصاب بالتوحـد كتب عليه أن يعيش واقعاً لا يفهمه ولن يعرفه أحد سـواه.. ولذلك سـيكون سـبباً في تعب وشقاء أقرب الناس إليه.. وأنه ينوي أن يسـتقر في إنكلترا، فهو لم يعد يحتمل

فكـرة العيش فـي بلد واحد معها وهو ممنوع مـن رؤيتها احتراماً منه لقرارها.

كان يعرف جيداً أنها ترفض البقاء معه بسبب دينه..

لم يستطع أن يأتي لوداعها.. فنحن لا نقدر أن نودع من نحب حقيقة حتى نستمر في وهم أنفسنا بأننا لم نغادره أبداً..

وأوضح لها في رسـالته.. أنه وضعها في حقيبة سفره..التي تمشي وتتنفس معه.. إنها في ذاكرة الروح.

ذات يـوم ذهبت مدفوعة بإحسـاس يسـبقها للقاء طيـف من انتماء جابر..!

قادتها خطاها إلى الدير..

توقفت أمامه.. وكأنه صرح اعتراف بانتمائها هي أيضاً وبإيمانها.

دخلت سـاحة الدير.. لم تعد تراها كالسـابق.. مجرد ساحة مزدانة بالزهور.. شـعرت أنها ملتصقة بحجـارة ذاك الدير.. تنام على أرض ساحته.. رأت ملامحها مرسومة على جدرانه.. أحست بالحنين يسري فيها، ولأول مرة أحست كم هو قريب منها.. راحت تشم رائحة الإيمان الساكنة في زواياه.

سارت في أروقته.. شعرت بعواميده وبلاطه كعيون ترقبها بصمت يأسى ليأسها الملتاع.. دخلت قاعة باردة.. جلست على مقعد طويل من الخشب وقد اكتسى سطحه لوناً عسلياً يوحي بالدفـء والبوح الصامت.. اجتاحتها رغبة ملحة للكتابة.. عندما همت بالهروب من سواد ألمها إلى

بيــاض صفحــات الكتابة وهــي تلفتت وراءها بحرص من يخشــى أن يُضْبَطَ مُتَلَبِّســاً اعتقلت لحظتها السـرية هذه حضــور راهبة تهتف من بعيد:

ـ (يمــان).. أهــذه أنــت؟ أين كنت طــوال هذه الفترة؟ اشــتقت لك كثيراً.

حولت (يمان) كلماتها إلى لحظة عناق تخبئ حنيناً غافياً واحتضنت الراهبة وهي تستنشق في ذاكرتها رائحة انتماء وعقيدة.. وحب.

لم تستغرب الراهبة موقفها، فهي تعلم جيداً من هي (يمان) وتعرف تلــك الروح الطاهرة التي تســكن تلك الشــابة ولكنهــا وبفطنة الإيمان والحكمــة اللذيــن تتحلى بهمــا أدركــت أن (يمان) في حالــة صعبة.. نظرت مباشرة إلى عينيها.. وكانت نظراتها علامات استفهام لا تنتظر جواباً..!

ربتــت برفــق على كتفها لتمنحهــا دعماً وفهماً خَفِيَّيــن.. ثم تركتها لوحدتها وانسحبت وعلى وجهها شبح ابتسامة.

عــاودت (يمان) الجلوس على ذاك المقعد الخشــبي الذي كاد يبوح بأسرار من جلسوا يوماً عليه.. فكرت بانبهار:

كــم هي عجيبــة متناقضات الحيــاة!! أتراها تمتلك قــوة أم ضعفاً؟ وحدها ردود أفعالنا تحدد ذلك..!!

أخرجت من حقيبتها دفتراً وراحت تخط عليه.. رسالة لجابر..

امتلكها الإحساس بوجوده وراح الحنين يسارع نبض الشوق لديها..

هرعت لذاكرتها احتضنتها وتكوّرت فيها كالجنين تستمد الحياة من كلماته..

أحست حينها أنها تعيش في رحم الذاكرة تمسك بحبلها السرّي بقوة.. كانت لا تريد الولادة.. أو لعلها خافت من إجهاض حلم مستحيل..!

طيفه يؤرّقها.. يسكن لحظاتها.. لم تستطع الهروب منه فكل ما حولها يسكنه ذكراه.. وكل الموجودات تستحيل فجأة إلى وجود واحد.. وجود جابر.. وحده..!

كان أصعب المعادلات.. عبثاً حاولت الهروب منه.. أو من مشاعرها تجاهه.

أخذت تذكر كلماته.. حركاته.. نظراته.. وقبلته اليتيمة.. كيف تنسى رجلاً وَشَمَ بشفتيه أول إحساس حقيقي بالأنوثة..؟

جلست تكتب:

جابر..

إنها أولى رسائلي إليك.. وأعتقد أنها الأخيرة..إنه القدر...!!

أكتب إليك من الدير الذي تابعت زمناً تعليمي الفرنسي فيه.. وأمامي تمثال العذراء وفي صدري قلادة خطت عليها آية من آيات القرآن الكريم..

كل هذه التناقضات تزيد من عذاباتي وألمي.. لا أدري من أين أبدأ..؟

ذات يوم قرأت رائعة تولوستوي (أنا كارنينا) وفي أحد المواقف قال

أحد أبطال الرواية لمن أحبها بصمت طويلاً: (أحبك.. ولكني ملحد)

فقاطعته وهي المؤمنة والملتزمة بشدة قائلة:

(وأنا عندي من الإيمان ما يكفي لاثنين..!!)

ثم تعانقت نظراتهما في عناق فريد أبدي..

يومها بكيت بحرقة.. فالموضوع لديهما أبسط بكثير.. فهو ملحد ولعله يؤمن..

أما أنا وأنت فلكل منا عقيدة راسخة في نفسه لا يمكنه الاستغناء عنها عاشت فينا منذ الولادة وعشنا فيها ولها..

جابر.. يكفيني أنك في خلايا عمري روح لا تموت، وأنك صلاة مشاعري..

تماماً أنت كالأمنية الرحيمة التي حملها القدر إلى أعلى ملكوت في السماء.. ونسيها هناك..

لقد اتسعت في داخلي حتى أصبحت العالم كله.. لن أرسل إليك رسائل.. وتذكر أن كل زهرة تولد في الصباح هي رسالتي إليك.. واعلم أنه في مرفأ ذاكرتي ترسو سفن لقاءاتنا..

جابر.. أنت الذاكرة.. وأنا زمنك الماضي فيها..!

جابر.. يا حبي.. سأقول وداعاً.. ولكن.. هل يمكن أن نقول للذاكرة وداعاً..؟؟

(17)

عندمــا عــادت (يمان) إلى المنزل بعد أن ألقت استسـلامها لقدرها على هيئة رسالة مرسـلة في صندوق بريد الحياة، فوجئت بخبر جديد في المنزل ألا وهو قدوم أخيها غياث من السفر بعد أن أنهى دراسته.

طارت من الفرحة وأخذت تقبله وهي تقول:

– اشتقنا لك أيها الشقي.. لم غبت كل هذه المدة؟؟

– ألا تدرين لماذا؟؟ الأمر بسيط حتى تشتاقي إلي.

ضحـك الجميـع.. كانـت فرحة فريـال لا توصـف، فهاهي فرحة عمرها تسير أمامها وتجول بين غرف المنزل والحديقة.

أخذت سـهراتهم الليلية تطـول وغياث يحدثهم بحب عن دراسـته

الطيران وعن جولاته وتحليقه في السـماء.. كان يعشق الزرقة.. يحس بالانتماء إلى السماء.

الجميع تحلق من حوله يستمع إليه بحب وشغف.. كانت هالة الأخت الصغـرى تجلس في حضنه وطلال ذاك الشـاب اليافع يجلس خجولاً ولكنـه بدا مزهـواً بعظمة شـخصية أخيه.. أما فريال فقد أخذ يسـري بهـا افتخار واضح بابنهـا البكر ممزوجاً بخيبة رغبـة لم تتحقق. هي لو أنـه درس الزراعة عوضاً عن أخته الغارقة بين أزهارها ونباتاتها العجيبة.. وأحلامها.. ثم سألته عن قراره بشأن عمله:

ـ والآن ماذا تريد أن تفعل؟؟

ـ سـأحاول أن أتقدم بطلب لمؤسسـة الطيـران المدنية كي أصبح كابتناً.

ـ رائع وسـتجلب لي في كل مرة تسـافر فيهـا هدايا من كل أنحاء العالم أليس كذلك؟؟

قالت هالة هذا وهي تصفق فرحة فأجابها مؤكداً:

ـ أكيد.. أكيد.

أما فريال فقد قالت:

على كل حان الوقت كي أفرح بك.. حاول أن تجد لنفسـك عروسـاً تليق بك وبعائلتنا، فأنا أريد أن أضم إلى صدري أحفادي.

ضحك غياث قائلاً:

ـ أنت شابة كفاية حتى تصبحي جدة..!

– كفـاك مراوغــة، شـابة كنـت أو عجـوزاً أريد أن أفـرح، هل فهمت؟

توالـت الأيام والليالي والأسـرة مجتمعة يـدور ليلها من حولها في سـهرات طويلة وضحكات أطول، إلى أن طرق يوماً الباب رجل ببزة عسكرية وبيده ورقـة فيها بـلاغ التجنيد الخاص بغيـاث وبضرورة التحاقه بخدمة العلم، تسلمتها فريال بعد أن أخذ قلبها يطرق بشدة.

كان التوقيـت صيفاً في أوائل شـهر حزيـران.. حزم غياث حقائبه وعاد مودعاً أهله.. قبل يدي جدته وأمه.. نظر إليها وقال:

– يبدو أن قدري لا يرضى لي بالبقاء إلى جانبك أمي، ولكن اعلمي أني أحبك..

ثم ألقى نظرة أخيرة على الجميع و.. رحل.

أخذت رسائل غياث طريقها إلى المنزل تتوالى.. كان يرسل رسائل بكثرة حتى أن فريال تسـاءلت في نفسـها عن سـبب ذلك فقد كان في السابق في الغربة ومع هذا لم يرسل رسائل بهذا الكم!؟ ولكنها مع ذلك سعدت بها وكانت مصدر اطمئنان عليه..

ومن بين الرسائل تسلمت يوماً (يمان) رسالة من جابر..

هرعت إلى غرفتها لتقرأها بشـوق بالغ.. كانت رسالة مقتضبة بدا واضحاً فيها أن من كتبها لا يقوى على الكلام أو الاسترسـال.. بسـبب تعب وإرهاق نفسي.

جـاء فيها عرض بالقدوم إلى إنكلتـرا للزواج زواجاً مدنياً من حق

كل طـرف فيه أن يحتفـظ بعقيدته.. وأن يترك للأولاد مسـتقبلاً حرّية الخيار في الانتماء الديني.

فكـرت (يمـان) بعرضـه جيـداً وتأرجحـت رغبتها بيـن القبول والرفض.. لم تكن تدري كم كان يلزمها من الإيمان حتى تلجم نداء أخذ يصرخ بداخلها كي تلحق به.

الإيمان..!! سـيد المواقف..الآمر الناهي، ذاك المدافع الشرس عن عقيدة استيقظت ذات صباح لتجدها مكتوبة على هويتها مقرونة باسمها وتاريخ ميلادها.....

تساءلت في نفسها وهي تريد بشدة أن تصرخ بأعلى صوتها:

هـل وُجِـدَتِ الأديان لتفرّق بيـن بني البشـر أم لتوحدهم وتجمعهم بالمحبة والإيمان؟؟

هـل وُجِدَتِ الأديـان لتقيِّد الإنسـان بحقائق محـدودة..؟ أم وجدت لكشـف آفاق لا يحدها فكر أو منطق؟؟ أينتهي الحب عند حوار الأديان والعقائد؟؟ أم يبدأ بها؟؟

أو ليست الأديان دروب الصدق؟؟ والصدق مع الذات أليس هو من أشـجع وأشرف أنواع الصدق؟؟ والحب الحقيقي أليس هو حالة صدق مجسدة؟؟

كيف إذا تطلب من أن نتجاهل صدق رغباتنا.. وحقيقة انتماءاتنا؟؟

انتبهت إلى نفسها.. خافت من استرسالها بالتفكير.. وراودها سؤال صعب:

ما أشرس الحلم الذي يوقظ فينا الرغبة في الجنون؟

عــادت إلـــى واقعيتهــا وأدخلتها عنــوة إلى كهف الاقتنــاع بحقائق مفروضة ترفض الجدلية والحوار.. إذ أدركت أن طرح جابر بالزواج هو طرح ناقص مبتور النتائج.. فالدين حين حرّم على المسلمة الزواج ممن هو على دين مختلف كانت الغاية من ذلك مصير الأولاد وتشتتهم بين عقيدتين مختلفتين بســبب عــدم وضوح الانتماء الديني، كانت هذه هــي قناعتها الشــخصية أرادت حينها أن تفتش عن الأســباب الحقيقية التي تمنعها من الزواج من مســيحي ولكنها اســتبعدت الفكرة واكتفت بقبول واقع مفروض عليها كلَوْنِ عينيها وبشرتها.. شرحت هذا لجابر.. واختارت أن تبقى بعيدة عنه.

مرّة أخرى اختارت (يمان) الـ (لا إبحار)..!!

بدأ الخريف يرمي بأوراقه الصفراء على أرصفة الشوارع لتمارس مــع ريح مباغتة خفيفة رقصة تذكر برقصات الغجر تدور فيها بحركة دائرية وكأنها تريد بها أن تفلت من زمن الموت..!

فها هو تشــرين الأول قد أقبل واســتقر جميع من في المنزل مشغولاً بعمله.. فطلال مشغول بالتحضير لنيل الشهادة الثانوية، وهالة تلك الطفلة المشاغبة قد بدأت هي الأخرى التحضير لنيل الشهادة الإعدادية.. و(يمان) تجــول بين الأراضــي الزراعية وفاءً منهــا بعهد قطعتــه لوالديها وبين أزهارها القابعة في المنزل الزجاجي الحالم وبين.. خواطر ذاكرتها.

بقيــت (يمان) تهوى المكــوث في منزل جدتهــا إلا أن الأخيرة بدأ جســمها يضعف أمام وطأة الســنين، فما كان من فريال إلا أن أصرت عليهــا بالقــدوم للعيــش معهم فــي المنزل حتــى تبقى تحــت أنظارهم للاطمئنان عليها.. وهكذا كان..

وذات يوم وتحديداً في السادس من تشرين الأول سنة 1973 أعلنت كل من سوريا ومصر حربها على إسرائيل.

جاء وقع الخبر كالصاعقة في نفس فريال.. أحسست بانقباض شديد في صدرها.

أما (يمان) فاستعادت ذاكرتها فوراً أيام حرب حزيران سنة 1967.

كانت آنذاك في السابعة عشرة من عمرها.. مازالت تذكر كيف قام الجميع بدهن نوافذهم باللون الأزرق حتى لا يتسرب النور من خلالها وذلك لتضليل الطائرات الإسرائيلية ولمنعها من قصف أهداف مدنية.. تذكرت الشموع المضاءة بتقنين، تلك الشموع التي كانت ترقب لهبها وانعكاساته على وجه أمها وجدتها القلقتين.. كان والدها (أياس) قد توفي منذ عامين وتركها وإخوتها في رعاية والدتها. بدأت تسترجع ذاك الدويّ الهائل للطائرات التي كانت تخترق مجال الصوت.. أحست هي الأخرى برعب حقيقي وخافت أن تعرف الهزيمة والنكسة مرة أخرى طريقها.

اشتد القلق على فريال رغم أخبار الانتصارات المفرحة التي كانت تذاع بالمذياع وعلى شاشات التلفزة.. كانت تمسك بقلبها كلما سمعت طائرة تحلق في السماء متسائلة: أيمكن أن تكون طائرة غياث..؟

أخذت (يمان) تقفز وتصفق فرحاً بأخبار الانتصارات على عكس جدتها التي بدت واجمة لا تعلق ولا تنطق بحرف.. حتى سألتها:

– جدتي ما بك؟؟ لم لا تشعرين بالفرح ونحن نهزم عدواً غاشماً

وجنودنا البواسل يسطّرون بوهج استبسالهم أجلّ تاريخ وأشرفه؟؟

أجابت الجدة بحزن:

– بعد نكسة حزيران يا ابنتي وعدت نفسي ألا أصدق ما يبث من أخبار.

صمتت (يمان) وأطرقت مفكرة وهي تهز برأسها موافقة تقول في سرها:

معك حق يا جدتي..! فقد جعلونا في ذاك الزمن البغيض أن نتجرع وَهْمَ انتصار أسكرنا، فقدنا بسببه وبسبب الخداع أرضنا وعزتنا.. ومعك حق أن ترفضي الدخول مجدداً إلى مصيدة الفرح الكاذب والخزي المغلف بغلاف العزة المزيفة.

لم تصدق الجدة ذاك الانتصار حتى رأت بأم عينيها القنيطرة على شاشة التلفاز وقد استرجعها جنودنا الأبطال.. حينها فقط زغردت بصوتها المتهدج كالتجاعيد المرسومة على وجهها.. وصاحت: عادت الكرامة العربية..(يمان) عادت..! وقامت من ركنها محاولة الرقص على أنغام ضحكات (يمان) وإخوتها.. وحدها فريال بقيت قلقة رغم الفرح..!!!

بعد الأفراح التي عمت الشوارع وهتافات النصر والأغاني الوطنية التي ترنمت بها كل الأفواه وبعد أن اكتست معظم المدن السورية ثوب البهجة بالنصر.. جاء ذاك اليوم الصعب..

سُمع طرق على الباب.. أسرعت هالة لتفتحه بخطواتها المرحة.. فاستقبلت عينها ضباطاً ببدلاتهم العسكرية وقفوا بكل صمت واحترام..

بادر أحدهم بالسؤال: أين صاحب البيت؟

سـمعت فريال الصوت وجاءت بخطوات متعثرة.. لقد عرفت النبأ قبل أن ينطق به هذا الضابط..

وقفت أمامهم شـاحبة.. منتظرة.. متأملـة نبأً مغايراً لذاك الذي كان ينهش خوفها..

قال الضابط بوقار: سـيدتي.. لقد قدم ابنك روحه للوطن فتقلّد بذلك العطاء وسام الاستشهاد..!!

سـقطت لفورها مغشـياً عليها.. حملها الضباط إلى أقرب مستشفى وسط ذهول وصدمة الآخرين المؤلمة.

(18)

ساد الحزن..! نعم كانت السيادة له دون منازع، وكيف لا وغياث.. ذاك الشاب الذي حمل حلمه على جناح طائرة لم يَدْرِ يوماً أن الأجنحة تتكسر..؟!!

وكأنه بإصراره على دراسة الطيران كان مصرّاً على حتفه..

لم يرضَ بالأرض ساحة لأحلامه فاستقبلته السماء..استقبلت روحه الطاهرة في أقدس عطاء ممكن..استقبلتها في صورة استشهاد.

أي فجيعة لأم انتظرت طويلاً..؟

الجميع يؤكد لها بأنه في الفردوس الأعلى.. كانت تهز رأسها بتعبير يوحي بأنها بفقدانه تعيش في الجحيم الأدنى..

لـم يجرؤ أحد على أن يواسـيها؛ فالفجيعة أكبـر حجماً من كلمات تقال.. أو من احتضان عابر..

أصابهـا نوع من الانهيار والكآبة فانزوت في غرفتها أغلب الوقت تتأمل صور غياث...

بـدت (يمـان) حائـرة؛ كيف تسـتطيع أن تخـرج أمها مـن دائرة العزلة؟

راحت تتطلع إلى طرق لإجبار أمها للعودة إلى التفاعل معهم ولكن دون جدوى..

فالمرأة المسـكينة كانت تستنشق الأمل بحضور غياث.. فهو يشبه والده كثيراً وأحب أولادها إلى قلبها.. كان يتمتع بالقدرة المدهشة على التحـاور معها وحتى علـى إضحاكها.. وهو رغـم غضبها من قراره بالسـفر كان قادراً على أن يتوّج أيامها بالحنان والسكينة.. وكأنه يملك قدرة التواطؤ مع مشـاعرها حتى أوجد ذاك التفاهم السـري الفريد بين أم وبِكرها.

مرّت الأشهر بطيئة كئيبة.. فالجميع يعيش كآبته على طريقته..

وفريال مازالت تصرّ على العزلة..

وجدت (يمان) نفسها المسؤولة عن كل شيء.. حملت هموم المنزل على عاتقها وقلبها يتفطر من فقدان كل من أحبته.. لم تَدْرِ المسكينة أن ما هو قادم.. سيصيبها بما هو أقسى من الحزن.

حاولـت الهـروب من ألمها بانغماس كبير في العمل.. حتى تنسـى (غياث) و(جابر)، كلاهما غاب ولكن كل واحد رحل باتجاه.. والنتيجة

واحــدة تدعى: الموت.. مــوت غياث والحكم بالموت على مشــاعرها بابتعادها عن جابر..

مرضــت الجدة كثيراً بعد وفاة غياث، فالمرأة لم تحتمل فقدان الولد وولد الولد..!

أي قســوة أيهــا القدر؟؟ حتــى تمعن هكذا بطعنــات موجعة لامرأة تجاوزت السبعين.

السبعون عاماً..!! كم تساءلت: لماذا أعيش أنا من عمر ولديّ؟؟

أتراني ســرقت دون أن أدري سِــنِيَّ العمر منهمــا؟؟.. يا ألمي.. يا وجعي.. يا أحبتي .. أياس.. غياث.. أين أنتما..؟

قلبهــا المتعــب لم يحتمل فراغاً خَلَّفه مــوت حفيدها.. فقرر الأطباء إخضاعها لعملية جراحية.. خطرة.

كانت أكثر الأيام قلقاً بالنســبة لـ(يمان) يوم العملية.. فتعلقها بجدتها كبير.. كبير.

وكانت بحدســها تشــعر بأن مكروهاً ســيحصل وأن غمامة الموت ستمطر على تلك السنديانة..

بعد العملية الجراحية.. جلست إلى جوار جدتها وهي تمسك بالقرآن تتلو بصمت وابتهال آيات منه علّ الرحمن يمنّ عليها بالشفاء..

تنظــر بين الحيــن والآخر إلى وجهها بعين دامعــة وغصة ملتاعة تتلهف إلى أمل واهن.. كان وجه الجدة المتغضن كتاب تاريخ تقرأ فيه تحت كل خط من خطوطه حكاية يوم ومعاناة عمر..

اقتربت منها ومسحت جبينها بيدها الحانية... تمتمت..

– آه جدتـــي.. عودي.. عودي من أجلـــي.. لا تتركيني أنت أيضاً.. فأنت شاطئ الأمان.. وأنت صومعتي.. كلماتك صلوات نفسي وسكينة روحـــي.. أنت من علمني الحب والحنـــان والعطاء.. أنت من زرع في روحـــي بـــذور الإيمان والالتـــزام.. أنت من نبهني إلى إشـــراقة الله في داخلي..

أرجوك افتحي عينيك.. كلميني..اشـــتقت لحكاياتك..اشـــتقت إليك.. افتحي عينيك جدتي...

فجـــأة فتحت الجدة عينيهـــا.. ونظرت إلى (يمان) نظـــرة مَنْ يودع الحياة أمانة لديها.. ثم رفعت سبابتها.. تمتمت بالشهادة وأغلقت عينيها إلى الأبد.

صاحت (يمان):

– لا.. لا..ابتعد أيها الموت..ابتعد كفاك تواطأً مع أحزاني.. لم تأخذ كل حبيـــب لـــدي.. لا.. لا... ألم يكفك ما أخذته مـــن عائلتي؟؟ أيها النَّهِم الذي لا يشبع إلا بالجثث.. أكرهك.. سأكفر بك.. سأكفر بك..

امتزج الحزن بالكفر بالجنون لديها.. لم تعد تدري ما تقول........

دخلت الممرضة والطبيب محاولَين تهدئتها.. ولكنها كانت في حالة ثورة وهيجان مما اضطر الطبيب لإعطائها حقنة مهدئة..

عـــادت الجدة إلى المنزل هذه المرة جثة صامتة.. تروي بســـكونها حكاية عمر كامل..

بكى الجميع عليها.. حتى فريال.. يوم استعادت دمعها لحظة وفاة ابنها بكتها هي الأخرى بحرقة..

(يمان) كانت تغسل بالدموع تلك الأزهار التي أصرّت أن تزين بها نعش جدتها الغالية.. فاستحال إلى صندوق مكلل بالزهر والورود البيضاء. أما كفنها الذي لف جسدها الطاهر فقد أمطرته بالروائح العطرة وبالعبرات الحارقة..

وارى جثمانها الثرى ووارى معه دفئاً كانت (يمان) تلجأ إليه..

بكت بحرقة.. أحست باليتم من جديد.. بالوحدة.. بالغربة.

(19)

مرت سـبع سنوات على استشهاد غياث وموت الجدة.. باهتة خالية مـن أي بريـق أو وميض لفرح خفي في نفس (يمـان).. أخذت خلالها تغرق نفسـها بالعمل وتولي أسـرتها كل اهتمامها محاولة أن تبعد ذاك اليأس الذي غرقت به فريال.

أما طلال الأخ الأصغر فقد تخرج طبيباً بدرجة امتياز وبدأ يراسل سراً العديد من الجامعات كي يتابع دراسته واختصاصه في مجال طب العيون.

وذات ليلة طرق باب غرفة (يمان) مستأذناً الدخول

ـ من؟ طلال؟ أهلا بك يا حبيبي

ـ شكراً

جلس على كرسي بمواجهة النافذة وأخذ يحدق إلى الخارج محاولاً إخفاء ارتباك البدء بحوار لا يعلم كيف يمسك بأول أحرفه..

قرأت (يمان) ذاك التردد والارتباك الباديين على ملامحه وانتظرت قليـلاً صامتة احترامـاً منها لمبادرة قد يبدأ بهـا، ولكنها وبعد أن طال الصمت بادرته هي بالسؤال:

– ها أنا أنتظر. ما الأمر؟

– أنا.. أنا.. في الواقع

– هه ما الأمر؟ هيا قل بسرعة؟ هل أنت عاشق؟

– لا.. لا لست بعاشق ولكن..

– ولكن ماذا؟ هيا قل ما الأمر؟

– في الواقع أريدك أن تساعديني في إقناع والدتي بموضوع سفري إلـى الخـارج لمتابعة اختصاصي، فقد راسـلت العديد مـن الجامعات وجاءني القبول من إحدى الجامعات في فرنسا.

– السفر؟ تريد أن تسافر أنت أيضاً؟ ما بال الجميع يغادرون؟

– ما بك (يمان)؟حتى أنت؟ نعم الجميع يسـافر وكل على طريقته، وأنـا أرغب بالسـفر حتـى أبني مسـتقبلي، فهلا سـاعدتني في تحقيق هدفي؟

فكرت (يمان) قليلاً واسـترجعت بذاكرتها سـفر غياث إلى إنكلترا ومن بعدها رحيله إلى السـماء.. ثم لاح لها وجه أمها الحزين.. وقالت وبدون وعي منها:

ـ انسَ..انسَ... طلال مستحيل أن توافق ماما على سفرك.

ـ أعلم هذا (يمان) ولهذا أناشدك أن تساعديني.

ـ ولكن..؟ مستحيل.. كيف يمكننا إقناع ماما؟ كيف يمكن إقناع أم مفجوعة بموت بكرها ورحيله عن هذه الدنيا بأن توافق على سفر ابنها الثاني؟ كيف؟

ـ لا أدري.. لا أدري ولكن كل الذي أعلمه بأني سأسافر فأنا لست مستعداً أن أدفع طموحي ضريبة لأحزان من حولي.

حسدته (يمان) في سرها على قوته وعلى تلك الأنانية التي يتحلى بها والتي تمنحه شجاعة الاعتراف برغباته وحقيقة وجودها، فطلال ليس هشاً ورومانسياً مثلها هي، تلك التي أضاعت حلم حياتها بسبب أحلام من حولها وأهمها حلم والدها الراحل.. تذكرت معاناتها وتذكرت لومها لنفسها سنين طويلة لأنها سارت حسب رغبة الآخرين ولم تتبع رغبتها الحقيقية، وهنا قررت فجأة أن تساند (طلال) بكل قوتها ووعدته أن تدعمه مهما كلّف الأمر.

وذات يوم كانت فريال تقرأ صفحات من المصحف الشريف حين اقتحمت عليها خلوتها (يمان) وفاجأتها برغبة طلال بالسفر.

ثارت فريال.. أغلقت المصحف الشريف وخلعت عن رأسها حجابها بعصبية، قائلة:

ـ ألن أنتهي من مسلسل الحياة؟ ما بالكم كل واحد يريد أن يفاجئني برواية ما؟

ألا تستطيع أيامي أن تمر بسلام.؟

– ولكـن ماما لماذا أنت ثائرة هكذا؟ أنا أعتقد أن خياره في السـفر صحيح كي يحصل على اختصاص جيد.

– ألا يستطيع أن يختص هنا؟؟

– تعلمين أن هذا غير متاح حالياً.

– ولكن كيف؟ كيف تريدين أن يسـافر وهو الرجل الوحيد المتبقي لدينا؟

– ماما هو مسافر ليبني مستقبله وليعود إلينا رجلاً مكتمل النضج.

– أنا لست معك، فأنا أراه الآن رجلاً ناضجاً وهو ليس بحاجة إلى السفر.

– مامـا أرجـوك بـالله عليـك لا تكوني أنانيـة، فمسـتقبله أهم من مشاعرك.

– كفاك استخفافاً بمشاعري، ما أدراك أنت بمشاعر الأمومة؟؟

جـاءت كلمـات فريال جرحاً فـي صدر (يمـان) المفعـم بالحنان والرغبـة بأن تصبح يوماً مـا أماً، ولكنها تعلـم أن رفضها المتواصل للعرسان سيحرمها من ذاك الحلم الحبيب.

أنهت (يمان) الحوار بأن غادرت الغرفة وسط ندم أمها الخفي على رمي تلك الحقيقة المؤلمة.

دخلت غرفتها تحاول عبثاً أن تقرأ كتاباً لطاغور.. حاولت أن تغرق

بين سطور فلسفته وحكمته، ولكن عبثاً فهي لم تستطع أن تمنع أصداء كلمات أمها من أن ترددها بين جدران الغرفة: وما أدراك أنت بمشاعر الأمومة..؟ الأمومة..الأمومة..!!!!!!!

تساءلت: إلى متى ستبقى في حالة رفض لكل من يطلب يدها؟؟

ولكن كيف لها أن تسلم روحها وجسدها لرجل لا تحبه؟؟ أتتزوج فقط من أجل الزواج؟؟ ومن أجل الإنجاب؟؟..

أخذ الصراع ينمو بداخلها كنبتة شرسة تحاول عبثاً أن تقتلعها.. فصراع القبول على مقاييس المجتمع والرفض لذلك القبول وذاك الواقع أتعبها زمناً طويلاً وخاصة أنها لم تنسَ يوماً مشاعرها الصادقة تجاه جابر، وأنها لم تصادف إلى الآن من يستطيع أن يحتل قلبها من جديد..

ولكن لقب عانس بدأ يلوح بالأفق وبدأ يخيفها.. يؤرقها حتى القلق فقد أصبحت في الثلاثين من العمر.

تدرك هي جيداً بأنها جميلة جداً وأن حضورها وشخصيتها المتوازنة ونجاحها في عملها كل ذلك يزيد في رصيدها بعيون المعجبين التي تترصد خطواتها وتشتهيها..

كانت جميلة وذكية.. ومثيرة بهدوئها ورقيها.. وصباها.. والكثير من الشباب أحبها فعلاً وتمناها بصدق واستمات البعض في محاولاتهم لكسب ودها دونما فائدة أو نتيجة.. وكثيراً ما كانت تشبه نفسها بقلعة مدينتها مُسَوَّرَة.. محاصرة.. محمية.. وكان حبها لجابر هو ذلك السور..!

ولكـن فـي تلك الليلة أدركـت أن كل ما تمتلكه مـن صفات والذي هـو بمثابـة أوراق رابحـة مقارنة لمن هن في سـنها سـيخذلها إذا ما مرت السـنون مسرعة.. فالرجل الشرقي دائم البحث عن المرأة الدمية الصغيرة السـن كي يسـهل له امتطاءها وقيادتها بدون أية عراقيل في البنية الشـخصية والسـلوكية لدى الفتاة الناضجة، فهو لن يأبه بكل تلك المزايا التي تتفرد بها (يمان) فيما إذا تجاوزت (يمان) السـن المناسب للزواج.

حاولت النوم.. لم تسـتطع.. أدارت المذياع علها تسـمع لحناً يغسل عنها هماً بدأ يشـارك وسادتها.. بقيت ساهرة.. فقد زاحم همها الوسادة وتركها بلا نوم.

بعد عدة أسـابيع وبعد مناقشـات حادة بين طلال وأمه وبمسـاعدة واضحـة من (يمان) ومعارضة من هالة الأخت الصغرى أذعنت الأم لرغبة طلال وانتصر الطموح أمام أنانية التملك.

بـدأت التحضيرات لسـفر طلال ولـم تنس فريـال أن تضع له في حقيبة السـفر القرآن الكريم وسـجادة الصلاة وصابـون الغار الحلبي وكيـس التدليـك، بالإضافة إلى الزعتـر الحلبي المشـهور وعلبة من الحلوى الشـرقية كالمبرومة وسوار الست والبقلاوة.. كان طلال عبثاً يحـاول أن يثنيها عن ذلـك وهو يحاول إقناعهـا أن لا حاجة لصابون الغـار في بلـد تنتج صابوناً معطـراً بالإضافة إلى أشـهر العطور في العالم، ولكنها أصرت على أن الصابون الحلبي هو العطر الوحيد الذي سيذكره بضرورة العودة إلى بلاده..

أمسك بيديها طلال قائلاً:

– أمــي ســتبقى رائحتك هي أغلــى العطور التي ســتدعوني دوماً للعودة إليها.

وســتبقى الحلــوى التي تصنعهــا يداك أطيــب مــن كل الحلويات الفرنسية..

قــال هــذا وضمها إلى صدره بعد أن ســبحت عيناهمــا في غمامة دمع..

بعــد عدة أيــام وبعــد أن انتهى (كرنفــال) التحضير لســفر طلال جاءت لحظة الوداع؛ حيث وقف الجميع في باحة الانتظار في المطار لتوديعــه.. راقبتــه (يمان) بصمــت.. راقبت قلقه.. لهفتــه.. فرحه.. ثم ابتسمت لانتصار إرادته.

رأت فيه نفســها التي كانت تتوق لأن تصبحها.. رأت حلمها الغافي وقد اســتيقظ في حلــة جديدة وقد ســكن روحاً أخــرى.. فها هو طلال يصبح ذاك الطبيب الذي لطالما حلمت هي أن تصبحه.

أفاقت فجأة من شــرود كاد أن يكــون مخفياً بحركات وردود أفعال تناسب الموقف بعد أن علا صوت المذياع ساحة المطار معلناً عن فتح البوابــة للطائرة المغادرة إلى فرنســا وعن ضرورة توجه المســافرين لإجراء إجراءات المرور استعداداً للمغادرة..

سحبت فريال شــهقة خافتة وأخذت تمسح بمنديل دموعها المنسابة بكبرياء، اقترب منها طلال وقد امتزج في عينيه فرحة المغادرة وأسى الوداع.. ضمها إليه بشــدة وعانقها بعد أن قبل يدها ثلاث مرات رافعاً إياها إلى أعلى جبهته مترجياً مباركة من أمه طالباً منها الدعاء بالتوفيق وسلامة الوصول.

جاء دور (يمان).. وقفت أمامه بكل حب قائلة له:

– طــلال حبيبي.. يا عيون أختك انتبه لنفســك جيداً وتحلَّ بالصبر والالتزام والمسؤولية.. واعلم أنك تبني مستقبلك هناك فلا تدع انبهارك ببريــق الحضارة في تلك البلاد أن يفقدك اتزانــك وإيمانك.. و(لا تكن متواكلاً أو مبتذلاً، واعرف كيف تختار الخط الفاصل بين الخط البارد والساخن في الحياة)... هي عبارة قرأتها ذات مرة لـ (بلزاك) أعجبتني واعتبرتهــا حكمة يجب العمل بها، وكما قال طاغور الحكيم ذات مرة: (تذكر بأن ســلة حياتك تبقــى فارغة إذا كنت تنتظر مــن يملؤها لك)، وعليك أن تفي بوعودك لنفســك تمامــاً مثلما يرغب الآخرون بأن تفي بوعودك لهم.

قاطعها طلال مازحاً وهو يقول:

– (يمان) حتى في لحظات الوداع الأخيرة تتمســكين برومانســيتك وبفلسفتك.. ألن ننتهي من محاضراتك أبداً.. ومن بلاغتك في الكلام.

ضحك الجميع.. وهم يمســحون دموعهم، فما كان من طلال إلا أن اقترب من أخته (يمان) وعانقها وهو يهمس في أذنها قائلاً:

– أيتهــا الغالية.. أنا مقدر لك كل ما فعلته من أجلنا.. مقدر رعايتك وحبك لنا.. لا تقلقي بشــأني واســمحي لي أن أجرؤ اليوم على أن أقول لك بأنه حان الوقت كي تقلقي بشــأن نفســك..! أرجوك امنحي لنفســك قليلاً من الحب..إنها بحاجة لك هي أيضاً..!!

علا من جديــد صوت المذيعة تَنْدَهُ بالنداء الأخير بضرورة التوجه إلى البوابة المحددة.. كان صوتها يقرأ في الحقيقة إعلان البعد والغربة المنتظر في نفوس من كانوا بالمطار..

عانق طلال من جديد أفراد عائلته بسرعة ثم قام بتفقد جواز السفر وأشــياءه بانهماك بالغ ثم مضى مغادراً وهو يلوح للجميع بعد أن وجه عبارة لـ(يمان) صارخاً من بعيد:

– لا تنسي (يمان) ما قلته لك.. لا تنسي...

غــاب بعدها عن الأنظار وعــاد الجميع إلى المنزل وأخذ كل واحد منهم يرتل أنشــودة الحزن الصارخة في نفســه كلٌّ على طريقته وهو يحاول أن يستعيد لحظات الوداع.

مرة أخــرى كان القدر بالمرصاد لـ(يمان) بــأن يغادرها من تحب سواء بالموت أو بالفراق.

(20)

تأملت نفسها بالمرآة.. هي تبدو جميلة في ثوبها الخمري بعد أن عكس بياض بشرتها بصورة ساحرة فكانت كلَوْحَةٍ فنية رُسِمَتْ في العصور الوسطى.. أو ككأس نبيذ شهية تنتظر من يرتشف منها الرشفة الأولى..

أخذت كل ثنية من ثوبها تعكس مفاتن جسمها المتناسق فجاءت أنوثتها طاغية وهي محاطة بهالة من كبرياء تتحلى بها وبمسحة جمال أخّاذة توّجتها بسموّ ملكي.

وبعد أن اطمأنت على مظهرها العام وأناقة وبساطة تجمّلها قالت في نفسها:

-عليّ ألا أتأخر.. فالليلة زفاف جارتنا سوزان وهي تنتظرني كي ألقي النظرة الأخيرة على زينة قاعة الزفاف.

دخلـت (يمان) قاعة الزفـاف التي قامت بالإشـراف على تزيينها وتنسـيق زهورهـا.. كانـت قاعـة ضخمـة في أحـد طوابـق الفندق السـياحي الكائن في إحدى أشهر سـاحات مدينة حلب ساحة (سعد الله الجابري) تلك الساحة التي شهدت الكثير من الأحداث سواء السياسية أو الاجتماعية؛ إذ كثيراً ما كانت سـاحة تجمع لمظاهرات ومسـيرات شـعبية أو احتفالات لمهرجانـات كمهرجان القطن الـذي تقيمه مدينة حلب فـي كل عام، حيث يتجمع حشـود من النـاس والأطفال يرقبون بفرح وإعجاب مواكب السـيارات المزدانة بالقطن والمشـكّلة للوحات تعبـر عن أهمية القطن عبـر التاريخ وذلك عبـر تصاميم رائعة، وقد اعتلى معظم تلك السـيارات فتيات يافعات من أجمل فتيات مدينة حلب وقـد أحاطت بهن أكاليل وتيجان من القطن، فكنّ أشـبه بآلهات الجمال لدى أساطير الإغريق.

بدأت (يمان) بالتجوال بين طاولات المدعوين التي وزعتها بشـكل متناسـق على حسـب الأعداد المدْعُوَّة وقد بدت تلك الطاولات بأجمل حلة بعد أن أبدعت (يمان) بتزينها؛ إذ توسطها إناء من زهور البنفسج الدافـئ اللـون وكأن تلـك الصبية المبدعـة أصرّت أن تمنح للبنفسـج الحزين فرصة فرح بتزيين قاعة زفاف..!

ولم تكتف بذلك بل أحاطت تلك الزهور بلآلئ ضخمة فبدت وكأنها أقمار تدور في فضاءات ليلية الأكوان. وقد توسـطت شـمعة أضاءت الإناء فتوهج بأنوار تتألق بالعذوبة والشاعرية..

ولـم تنسَ أن تلبس المقاعد وشـاحاً من قماش (السـاتان) المتدرج بألوان البنفسـج وقد عقدته من الخلف على شـكل فراشة مزدانة ببريق

أحجار ماسية مصطنعة أضافت رونقاً وبريقاً يشد انتباه الناظر إليها.

اطمأنــت على تَـمَوْضُعِ وتــوزع الطاولات والزهور ثم التفتت إلى (الكوشـــة) وقد أبدعــت بتصميمها فبدت وكأنها صـــورة حية من عالم خيالي؛ إذ جعلتها على شــكل محارة بحرية ضخمة بدا فيها العروسان أثناء حفلة الزفاف وكأنهما لؤلؤتان مشــعتان، وخاصة أن العريس في تلك الليلة قد ارتدى بزة بيضاء اللون نزولاً عند رغبة العروس بعد أن علمت بخطة (يمان) التصميمية.

أما الأرض أمام الكوشة فقد جعلتها كبركة مغلقة تسبح فيها الأسماك ونثــرت فيها نباتات طحلبية ومرجانية ولآلئ بأحجام مختلفة وأضاءت بداخلها الأنوار فبدت وكأنها عالم من السحر والخيال.

كان زفافاً خيالياً قياساً لتلك الأعراس التي كانت تقام في تلك الحقبة الزمنيــة والتي كانت تقتصر على أن تقام بدور الأفراح البســيطة التي كانــت معــدة خصيصاً لذلــك، والتي كانت تضم مئات من النســوة من مختلف الطبقات تبعاً لعلاقة أهل العروسين وكانت في أحسن الأحوال تضم حفلاً غنائياً تقوم بالغناء والإنشاد فيه امرأة تدعى (الخوجة) تمتلك صوتاً أقرب للنشاذ منه للطرب، يرافقها مجموعة نساء أغلبهن بدينات القامة مترهلات البدن ذوات شعر أشقر مصبوغ مشوب بحمرة غريبة أو بسواد فاحم مرعب أحياناً يتخلله بياض شيب عبثاً حاولن أن يخبئنه، وقد هززن رؤوســهن وبطونهن وهن يؤدين مهمة العزف على العود أو الــدف والقانون.. أما معظم المدعوات فلا همّ لهن إلا الرقص على خشــبة المســرح والتبختر بغنج ودلال أمام تلك الفرقة النسوية العجيبة وهن يتبارزن بهز أردافهــن وخصورهن المكتنزة ونهودهن البارزة،

فكانت تهتــز وكأنها تلال وهضاب فاجأتها هزات أرضية تتراوح بين العنيفة والبسيطة الشدة تبعاً لإيقاع الموسيقى المرافقة.

جميع النســوة والفتيات ارتدين أجمل ثيابهن بعد أن تبرجن بشــكل مبالغ فيه واســتخدمن أقلام الحمرة الصارخة على الشــفاه والوجنات، وبعــد أن غزا أعينهن ســواد كحــل زاد من جمالهــا. كان أكثرهن من الفتيــات اللواتــي دفعتهــن أمهاتهن إلــى الرقص متمنيــات أن يحظين بإعجاب الوالدات اللواتي يبحثن عن عروس جميلة لأبنائها.

كانت المبارزات الحامية تقام بين الســمراوات والشقراوات بعد أن تشــعل الخوجة نيران تلــك المعارك الحامية بغناء أغــان مأخوذة عن التــراث الشــعبي الحلبي، وبعدها تقــوم بدعوة إحدى الشــقراوات من الحضور إلى خشــبة المســرح وقد تجمع من حولها لفيف ممن أنعم الله عليهن بوســام البشرة الشــقراء، ذاك الوســام (بالمفهوم الحلبي) الذي تحلــم به كل أم حامــل وتدعو مبتهلة إلى الله لعلــه يمنحه إلى مولودها المنتظر!

تبدأ تلك الخوجة بالإنشاد والصراخ بكل حماس وهي تقوم بحركات بيديها تعبر عن الكلمات المنشدة محاولة أن تلفت انتباه الحاضرات إلى الأساور الذهبية التي تتقلدها بفخر وسعادة:

(اسمعوا قول المعنى.. ع السمر والبيض غنى

البيضا نقطة بمصاحف منشانا عملوا الملاحف *

والسمرا قشر السلاحف ع المزابل كبوا عنا)

لترد عليها فوراً إحدى السمراوات ومعها صديقاتها اللواتي مسحت

السمرة أجسادهن وغيّب حضورها في أوجههن بياض المساحيق المبالغ بها، فتتجه نحو منافستها الشقراء وهي تتبختر بكل ثقة وعنفوان و تهز معصمها ليسمع الحضور دندنة ورنين أساور الذهب التي ازدحم بها زندها الأسمر وهي تأمل أن يشعل بريق الذهب عتمة جلدها الخجول ثم تبدأ بالغناء:

(السمرة كبة بصينية بيتهادوها الأفندية

والبيضة شرقة لبنية ع المزابل كبوا عنا) **

فتتعالى الضحكات والغمزات والهمسات الساخرة وكان العرس يدوم حتى ساعات الفجر الأولى فهي الفرصة الكبرى للسيدات بأخذ مساحة من حرية وتتصل من مسؤولية الزوج والمنزل والأولاد الذين يتراكضون بكل حرية بين كراسي المدعوات وصوت صرخاتهم وضحكاتهم يتعالى أحياناً ويمتزج في أحيان أخرى مع بكائهم وعويلهم.. بعد أن ينهكهم السهر الطويل والركض المتواصل.. والجوع في كثير من الأحيان.

أما سوزان ابنة أحد أكبر أصحاب معامل النسيج في حلب ذلك الصناعي المشهور فلا يمكن أن يكون عرسها بمثل تلك الهيئة المتواضعة الشعبية، وخاصة أن المدعوين هم من أرقى عائلات حلب بالإضافة إلى بعض الشخصيات السياسية والعاملين في السلك الدبلوماسي والسفراء والقناصل وبعض الوزراء، ولهذا فلابد أن يكون ذلك العرس بمستوى يليق بمستويات تلك الشخصيات.

أخذت الموسيقى تعزف وبدأ المدعوون بالرقص بعد أن افتتح

العروسان الساحة برقصة فالس رشيقة عذبة كالحب الذي يجمع بينهما.

تأملت (يمان) ابنة جارتهم العروس سوزان وروحها تصدح بالفرح وقالت في سرها:

أخيراً يا سوزان تحقق حلمك وانتصر وتزوجت بحبيبك الذي انتظرته خمس سنوات..انتظرته فانتصر الحلم.. ورقص الحب في ساحة الفرح.

دون إرادة منها جالت دمعة كانت قد اختبأت في عينيها الفَرِحَتين الحزينتين..!

لقد تذكرت حلمها المهاجر – جابر – حلمها الذي لن يتحقق أبداً وقالت في نفسها:

حين يشيخ الحلم يصبح كابوساً..!

جلست ترقب ساحة الرقص وهي تغص بالثنائيات الراقصة وبمرح الشباب وغنج ودلال الفتيات الشابات شعرت بأنها عاجزة عن الفرح وأرادت أن تعود للمنزل ولكنها خشيت من لوم سوزان لها إذا ما غادرت حفل الزفاف قبل أن ينتهي.

دون أن تدري كان هناك من يراقبها من بعيد وهو يستمع إلى حوار دار بين مجموعة من المدعوين وهم يتحدثون عنها وقد ابتدر أحدهم قائلا:

– ولماذا تجلس هكذا بمفردها؟؟

رد عليه واحد ممن كانوا يجالسونه:

– ألا تدري لماذا؟ لأنها متكبرة ومتعجرفة.

– لا.. لا يبدو عليها هذا

– ولم لا؟ فهي من أسرة ميسورة والدها كان قاضياً معروفاً بنزاهته وذكائه الحاد بالإضافة إلى الأراضي الشاسعة التي ورثها عن أجداده.. وهي جميلة جداً مثقفة تحمل شهادة جامعية فهي مهندسة زراعية لا تنقصها الموهبة والإبداع

– ولكن أليس من الغريب أنها ليست مرتبطة إلى الآن؟

– سمعت أنه في السنة الأخيرة من سنواتها الجامعية كان هنالك مشروع خطبة لم يتم بسبب سفره إلى الخارج لمتابعة دراسته.

– أحسن.فهذا يتيح لنا الفرصة للتقدم والمحاولة

فانبرى صديقه ضاحكاً وقد أعجبته الفكرة وقال له:

– حقاً مال.. جاه.. جمال.. موهبة.. هيا لم لا تذهب وتسألها المشاركة بالرقص؟

– فكرة حسنة.

استجمع الشاب قواه وحسّن من هندامه واتجه مباشرة نحو (يمان) وأنظار الأصدقاء الشباب تلاحقه بفضول واضح.

اتجه نحوها محملاً بكل الثقة أنها لن ترفض طلبه خاصة أن نديمها الذي تجالسه اسمه (لا أحد..)!!

ـ آنسة (يمان). هل تسمحين لي بتلك الرقصة؟

انتبهت (يمان) من شرودها وقالت باستغراب:

ـ عفواً.

ـ أكرر طلبي آنستي وكلي أمل ألا ترفضيه. هل يكون لي شرف مراقصتك؟؟

ـ اعذرني فأنا متعبة.

ـ متعبة؟ ولكن السهرة في أولها.. هيا.. هيا شابة ومتعبة لا أصدق هذا.

تحدث معها رافعاً الكلفة فأجابته بتهكم واضح:

ـ ومن طلب منك أن تصدق تعبي؟؟

قالت هذا بجفاء وأشاحت وجهها بعيداً عنه.

شعر الشاب بالخزي من رفضها الجريء وعاد محملاً بالإحباط والخوف من تهكمات أصدقائه الذين راقبوا الموقف وعلت ضحكاتهم بعد أن عاد وحيداً.

بادر قائلاً:

ـ هي حقاً كريهة ومتعالية ومتعجرفة.

ـ هيا.. هيا لا تنعتها بمثل هذه الصفات لمجرد أنها رفضت الرقص معك.. يا أخي هي حرة.

لــم يَــدْرِ أحد أن ســبب رفضها للرقــص هو احترامها لمشــاعرها فهي ترفض أن يحيطها رجل غريب لا يعنيها بشــيء بذراعيه ويمعن التحديــق في عينيها وأن يتمايل جســدها الملاصق لجســده على أنغام الموســيقى الحالمة.. هــي تدرك أنها قد تبدو جافة وقاســية ولكنها على الأقل صادقة وواضحة.. ولكن أليس الصدق هو المتهم الأول بالفجاجة والقسوة؟؟

أخذت أحاديث الشباب تتجه نحو منحى آخر متناسين قصة الرقصة التي لم تتم.. إلا أن أحدهم كان يدخن ســيجارته بصمت وهدوء بالغين وهو يســمّر أنظاره باتجاه (يمان) وقد أخذ يرتشف كأسه بمتعة وزهو وهو يبتســم ابتسامة متعجرفة.. ومع أن الحضور قد بدأوا بالانصراف إلا أنــه بقــي حتى حان موعد انصراف (يمان) وخرج مســرعاً متابعاً خطواتها دون أن تشعر به حتى جاءت سيارة الأجرة لتقلها إلى منزلها، فلحق بها هو الآخر ثم انتظر حتى ولجت باب الفيلا وبعدها ابتسم وهو يتأمل تلك الفيلا الغارقة في الرُّقِيِّ.

عــادت إلى المنــزل بعد أن أنهكتهــا تحضيرات الزفاف والســهر والمشاعر المتناقضة التي عاشتها من ضيق وفرح ويأس وأمل وسخط ورضا.. فجأة سمعت صوت أمها يتساءل:

– (يمان)؟؟ هل عدت؟؟

أجابت بعد أن دخلت غرفة أمها:

– نعم ماما لقد عدت

– وكيف كان الحفل؟؟

ـ رائعاً

ـ ألم تلتق بأحد هناك؟

ـ ومن تقصدين؟؟

ـ اقصد أحد الشباب الراغبين بالزواج أولئك الشباب الراقين الـ..

قاطعتها (يمان) قائلة:

ـ أرجوك ماما أنا متعبة وأشعر بالنعاس. تصبحين على خير

دخلت غرفتها.. وألقت بنفسها على السرير متعبة من كل شيء.. متعبة حتى من نفسها..!

---

* الملاحف: نمط من لباس النسوة في الحارات الشعبية الحلبية في تلك الحقبة الزمنية، وهو لباس أسود اللون فضفاض يغطي كافة جسم المرأة ووجهها، والقصد هنا أن الفتاة البيضاء درة ثمينة يجب أن تخبأ ومن أجلها صنع هذا اللباس.

** لبنية: نوع من أنواع الطعام في المطبخ الحلبي مكوّنه الأساسي اللبن الأبيض، وهنا كناية عن الفتاة البيضاء.

(21)

فـي أحد الليالـي تعالت الأصوات في تلك الفيـلا فقد كانت (يمان) وأمها تتجادلان بعصبية كالعادة..!

كانـت (يمان) تلحق بأمها بخطوات متسـارعة وهـي عبثاً تحاول إقناعهـا وأمهـا غيـر مكترثـة بل راحـت تدخـن سـيجارتها بهدوء استفزازي..

– مامـا أرجوك أطفئي تلك السـيجارة اللعينة التي بدأت تنهش من صدرك كوحش يقتات من الهواء الذي يدخل رئتيك واسـمعيني جيداً.. أريد أن أسألك: ما ذنب هالة؟؟

– لا ذنب لها.. سوى أنك أختها الكبرى

– حسناً وهل هذا ذنب؟؟

ـ بالطبـع فأنا لـن أوافق على زواجها حتى تتـزوج أختها الكبرى أولاً.

ـ يـا الله على هذا المنطق..! وافرضي أني لا أرغب بالزواج.. أو أنني لن أوفق بالزوج المناسـب أو أن الأقدار لن تسـمح لي بالزواج.. فهل تبقى أختي بدون زواج؟؟

ـ نعم، فهذا مبدإي ولن أحيد عنه.

قالت الأم هذا بإصرار وهي تهز رأسها بالإيجاب.

ـ مامـا.. ماما ما هـذا الكلام بربك؟ لم هذا التعنت والإصرار على مبدأ سخيف؟؟

ـ بلغت بك الوقاحة أن تتهمي مبادئي بالسخف؟

ـ عفـواً.. لم أقصد.. ولكـن هذا مبدأ قديم ولا يليـق بامرأة خَبِرَتِ الحياة وفهمتها

ـ قولي ما شئت.

وخرجت دون أن تبالي بنداء ابنتها.

كانـت هالـة واقفة عند مدخـل الغرفة حين اصطدمـت بقامة أمها الغاضبة وهي تخرج من الغرفة والتي بادرت بالقول حين شاهدتها:

ـ لا يأتـي مـن وراء البنـات إلا المصائـب.. صحيح هـمّ البنات للممات.. اغربي أنت الأخرى عن وجهي.

حدقـت هالة بوجه (يمان) غاضبة ومعاتبة وهرولت مسـرعة إلى غرفتها.

لحقـت بها (يمان) محاولة أن ترطب خاطرها بكلمات رقيقة ولكن هالة بادرتها بعبارات هجومية انفعالية قائلة:

– ولكن لم لا ترغبين بالزواج؟؟ هه؟ لماذا؟

– لأنني لم ألتق بعد بالرجل المناسب

– الرجل المناسـب لك أنت (يمان)؟؟ وأين نجده هذا؟؟ في السماء؟ علـى سـطح القمر مثـلاً حيث ترفعيـن رأسـك أغلب الليالـي وأنت تحدقين؟؟

– لا تتواقحـي معي هالة.. أنا أحترم ردة فعلك العنيفة ولكن أرجو أن تتفهميني في الوقت نفسه وأن تحترمي رغبتي.

– كفاك أنت.. دائماً تحاولين فلسـفة الأمور وتُصَعِّبي على نفسـك قـرارات الحيـاة.. أنا بصراحة أريد أن أعيـش عمري.. أن أفرح.. أن أصبح عروساً.. أن ألبس ثوب الزفاف الأبيض.

قاطعتها قائلة:

– وهـل أمنعك أنا؟؟ هل أقف بطريقـك؟!! تزوجي وارتدي ثوبك الأبيض هذا.. من يمنعك؟

– أنت أنت من يمنعني

– لسـت أنا..إنها أمك التي تربط مصيري بمصيرك.. ناقشيها هي أنا ليس لدي أي مانع أن تتزوجي أولاً.

– تعلمين جيداً أنها لن تتراجع عن قراراتها أبداً حتى نخضع جميعاً لرغباتها

– حسناً.. تحلي بالصبر.. سأحاول إقناعها

– الصبر..؟ يعني الانتظار وأنا لن أنتظر لأن رامي لن ينتظر أختي العظيمة حتى تتزوج..آه لماذا يرتبط مصيري بمصيرك أيتها الغريبة الأطوار؟ أنت قد ترغبين بلقب عانس نوعاً من لفت الأنظار والمخالفة على مبدأ – خالف تعرف – أما أنا فلا.. لن أنتظر حتى يصبح هذا لقبي أنا أيضاً.

– اخرسي..اخرسي.. أنت قليلة الأدب.. وقحة.. أنانية.

خرجت (يمان) غاضبة وحانقة من غرفة أختها.. دخلت إلى غرفتها وأطبقت من ورائها الباب بقوة فأحدث دويّاً كان بمثابة الصرخة التي ودّت صراخها في وجه أختها التي لم تراع آداب الحوار أو الاعتبارات الأخوية.

أسندت رأسها إلى الباب وقد احتلت عينيها غمامة من حزن بَاكٍ.. أحست بجدران الغرفة تطبق عليها.. شعرت بأن الفراغ بدأ يبتلعها أحست بنفسها مضغة كريهة.. جالت بنظرها في الغرفة بعينين تنشدان الخلاص من واقع بات مؤلماً.. وقعت عيناها على المرآة.. حدقت فيها.. فجأة أحست برغبة في تهشيمها.. كانت تريد الصراخ غضباً من نفسها.. كانت تريد الخلاص من إحساسها بوجودها.. من نظرتها المختلفة للأمور.. أغمضت عينيها محاولة أن تنسلخ عن المكان والزمان علها تهرب من كلمات أختها.. عانس.. عانس.. عانس.

أحست بسنوات العمر وكأنها أذرع أخطبوط هائج يحيط بمستقبلها.. يحاول تحطيمه.. أحست بأنها تائهة في كهف العمر المظلم كلما أوغلت

فيه زاد في ضياعها.. شعرت بالحاجة للدفء للحنان للفهم ولكن.. أين هم الذين كانوا يمنحونها ذاك الحب.. ذاك الحنان..؟؟

فتحت أحد أدراجها وأخرجت صوراً لأبيها ولجدتها.. ومن بين تلك الصور لاحت صورة التقطت ذات يوم لها ولجابر في افتتاح أحد المطاعم الراقية.

أمسكت بها وضمتها إلى صدرها..اجتاحها الحنين أحست بالحرمان.. بالشوق.. قالت في نفسها وهي تحاور طيف جابر:

– أنا أهوي يا جابر.. أهوي في واد الوحدة لأني عشت الصراع بين الحب والعقيدة.. لأني لم أستطع أن أتمسك بحبك فحبي وولائي لانتمائي العقائدي كان أكبر.. وعندما اخترت انتمائي وعقيدتي أدركت أنني أيضاً حينها اخترت وحدتي وتعاستي في البعاد عنك.. وأنا اليوم أنتظر خلاصي من طيفك ومن حبك المستحيل.. أعلم أنني لن أعرف الفرح يوماً.. فقد أضاع الفرح طريقي.. تاه عن عنواني.. وشاخ الانتظار لمسافرة مازالت تنتظر الوهم حبيباً...!

فقد ولى زمن الفرح والأزمنة لا تعرف الانتظار..!

أعرف أني لن أكون يوماً لك .. وأني لن أعرف عالمك المحفوف بالحب والحنان، ولكنني في هذه الليلة أدركت بأنه علي اتخاذ قرار هو بمثابة قتلي لذاتي.. أجل.. قررت أن أقتل ذاتي بأن أكون قرباناً في مذبح الزواج التقليدي لأنني قررت أن أرتبط بأول طالب للزواج من أجل سعادة أختي، فأنا لن أن أقف حائلاً بينها وبين من تحب بسبب تعنت أمي وبسبب عدم مقدرتي على الشعور بالحب مرة أخرى بعدما

عرفت حدائق حبك، وإدراكي أن وهم أي حب قادم لن يكون إلا كنبتة صناعية ولذلك سـأقبل بأن أُحرق في أتون التضحية حتى لا أجعل من حلم أختي كابوساً.. هذا هو قدري.

ألقت برأسـها على الوسـادة بعدما سـمحت لأدمعهـا أن تجول في دروب روحها.

وبعدمـا سـكن التعـب كل أجزاء جسـدها وبدأ ت تستسـلم للحظة الراهنة.. للواقع.. نامت ودمعة مستيقظة ظلت تشاركها الوسادة.

(يمـان) اختارت أن تجول على شـواطئ الآخرين وهي ترقب من بعيـد بحر أحلامها يناديها عبثاً للإبحار.. مرة أخرى..(يمان) اختارت اللا إبحار......!!!!

(22)

خرجت من غرفتها في صبيحة اليوم الثاني وهي تعاني من صداع شديد ولكنها مع ذلك تحاملت على نفسها وأخذت تستعد للذهاب إلى العمل.

التقت على مائدة الفطور بأختها وبأمها .. كان الوجوم مسيطراً على الجميع.. شربت قهوتها بسرعة وبدون أن تنظر إليهما ألقت بقرار كان بمثابة حبل نجاة لهما.

– أنا.. أنا قررت أن أقبل بأول طالب للزواج.

كانت هالة تهم بوضع قطعة من الحلوى في فمها وعندما سمعت بهذا الخبر ألقت بها وصاحت:

– يحيا العدل.. يحيا العقل.

أما فريال فقد التزمت الصمت.. كانت مسـرورة ومنقبضة في ذات الوقت.. إذ أحسـت بمدى الحزن والاستسلام الذي نطق به قرار ابنتها (يمان) وهذا ما جعلها تقلق ولكنها في نفس الوقت كانت ترغب بشـدة أن تطمئن عليها في بيت الزوجية هي وهالة.

رمقـت (يمان) أمهـا بنظرة مملـوءة بالعتاب ثم ابتسـمت بمرارة وتنهدت تنهيدة خفيفة وبعدها انسحبت بهدوء من غرفة الطعام وفتحت باب الفيلا وخرجت دون أن تَتَفَوَّهَ بكلمة.

ذات يـوم، وبينما هي منهمكة بترتيب بعض الأحواض في المنزل الزجاجي دخل رجل يبدو أنه تجاوز الثلاثين من العمر ببضعة سنوات وتقدم مباشرة باتجاه (يمان) قائلاً:

– صباح الخير آنستي

– صباح النور. هل أستطيع المساعدة؟

– أجل في الواقع.. أرغب بشراء طاقة من الزهور الحمراء لأرسلها إلى المرأة التي أعتقد أنني وجدتها أخيراً

– جميل.. وأين العنوان.. وهل تريد إرفاق الباقة برسالة؟؟

– نعم.. ولكن هل تحضريها أولا؟

– حسناً..

بدأت (يمان) بتشـكيل باقة جميلة من الورود الحمراء وذاك الرجل يرمقها بنظرات فاحصة وكان يطيل النظر إليها متعمداً، ذلك حتى أنها التفتت إليه قائلة بانزعاج:

– عفــواً.. بإمكانــك أن تذهب وأنا سأرســل لك الباقــة إلى العنوان المحدد.

– لا.. لا شكراً سأسلمها باليد.

– حسنا:

تنهدت قائلة في نفســها: يبدو أنه علــيَّ أن أحتمل نظراته المزعجة حتى يرحل.

كانت شــاحبة ولكنها بدت جميلة بشــحوبها ومسحة اللامبالاة التي كانت تكتسي وجهها.. فجأة سألها الرجل:

– هل لاحظت أنك شاحبة؟

– الأمر يعنيني وحدي لو سمحت.

– لا.. مخطئة فأنا كطبيب لا أســتطيع أن أســكت عن حالة تبدو لي مرضية بشكل واضح.

– آه.. أنت طبيب إذن..

– أجل طبيب، وأنت حقاً تبدين شــاحبة وذابلة بالمقارنة لآخر مرة رأيتك فيها..

هنا التفتت إليه مستغربة وسألته:

– ولكن!! هل تعرفني؟ أين رأيتني؟؟

– أنا يا آنســتي رأيتك في حفل زفاف الآنســة ســوزان منذ حوالي أسبوعين.

ـ إذن كنت من بين المدعوين!

ـ نعـم، ولقد لفت انتباهي جمالك وسـحر أناقـة قاعة الزفاف التي قمت بتحضيرها.

ـ شكراً على لطف مجاملتك.

ـ لا.. لا داعـي لأن تشـكريني.. أنـا الذي يجب أن أشـكرك لأنك متعتنا بكل هذا الجمال.

ضحكت (يمان) ثم أردفت تقول:

ـ وطبيب بأي اختصاص؟

ـ أنا طبيب مختص بالقلب والأوعية الدموية.

ـ جيد.

أنهت (يمان) تنسـيق الباقة المطلوبـة بذوق رفيع وأناقة ثم أعطتها له.

ـ شـكراً... في الحقيقة هي أجمل مما تأملت ولكنها صدقيني ليست بجمال المرأة التي ستهدى إليها.

ـ هنيئاً لك بها.

أخرج من جيبه كارت زيارة مدوناً عليه اسمه ورقم هاتف وعنوان العيادة قائلاً:

ـ أرجـوك.. أرجوك أن تقومي بزيارة العيادة لأن وجهك حقاً ينبئ عن حالة صحية ليست جيدة.

– لا.. لا داعي للقلق.. أنا لم أنم جيداً البارحة.

– ولماذا؟؟

بدا عليها الانزعاج واضحاً مما دفعه للإسراع إلى القول:

– أقصد.. هل كنت متألمة أو منزعجة صحياً؟

– لا.. لا.. فقط انتابني شيء من قلق.

– حسناً.. أتمنى أن تكوني بخير.. واعذري تطفلي وفضولي المهني.

– لا عليك.. وشكراً لك.. وأرجو أن يعجبها الورد.

– هل أعجبتك أنت؟

– بالطبع، وكيف لا تعجبني وقد قمت أنا بتحضيرها..؟!

– شكراً لك.. لقد اطمأننت الآن..

خرج مسرعاً وهو يبتسم.

خامرها شعور غريب تجاهه لم تَدْرِ كُنْهَهُ، وسرعان ما شغلت نفسها بسقاية الزهور ومراجعة بعض الجداول الحسابية لأجور الفلاحين العاملين لديهم.

كان الوقت هو آخر ساعات عملها في ذاك اليوم.. شعرت بالملل وقررت أن تذهب للتريض قليلاً علها تُذْهِبُ عن نفسها ذاك التعب الذي أنهكها ليلة البارحة بعدما سهرت طويلاً وهي تقرأ، فهي منذ أن

أعلنت قرارها بدأت تنزوي في غرفتها تقرأ، أو تستمع للموسيقى ولم تعد تجالس أمها وأختها كالسابق، لا، بل حتى اتصالها بصديقاتها بدأ يخبو؛ إذ إن معظم صديقاتها قد تزوجن وأصبح لديهن هموم عائلية ومسؤولية رعاية منزل وأطفال..اللهم إلا من الحين والآخر تتصل بـ (ألما) صديقتها المفضلة التي تزوجت ورحلت بعد زواجها إلى السعودية.

همّت بالخروج ففوجئت عند مدخل الباب بباقة الورود الحمراء التي أعدتها وقد كتب على بطاقة كانت موضوعة عليها:

إلى الوردة الأجمل.. مع كل الإعجاب.

استغربت كثيراً من هذا التصرف الغريب القادم من طبيب ناضج.. ثم ألقت بباقة الزهور بعيداً وخرجت.

مرت على هذه الحادثة أكثر من عشرة أيام كانت (يمان) خلالها تغرق نفسها بالعمل خاصة أن أحد المحاصيل الزراعية كان أقل بكثير من المعتاد، وقد لامتها أمها على تقصيرها وقلة رعايتها للأراضي الزراعية.

وذات يوم وصلت رسالة من طلال استلمتها فريال بفرح ولكنها سرعان ما شعرت بضيق شديد في التنفس بعدما قرأتها بعد أن أعلن فيها عن رغبته بالزواج من فتاة فرنسية.. كانت هالة في غرفة الجلوس تجلس إلى جوارها وهي تراقب فيلماً على شاشة التلفاز حين لاحظت هذا الأمر على أمها.. ركضت مسرعة إلى غرفة (يمان) وطرقت بابها بسرعة مستأذنة الدخول

ـ تفضلي.. ما الأمر؟

– أسرعي.. ولكن لا أدري.. أعتقد.. أن ماما بحاجة إلى طبيب

– ماذا؟؟ ما بها..؟

ركضت مسرعة باتجاه غرفة الجلوس لتجد أمها وقد اعتلت الزرقةُ وجهَهـا.. والبرودةُ أطرافَها.. خافت (يمـان) كثيراً وحارت في أمرها لـم تدر بمن تتصل؟؟ ثم تذكرت فجأة الطبيب الذي احتفظت لسـبب لا تدري ما هو ببطاقته.

ركضـت باتجـاه غرفتهـا وأخرجت مـن حقيبة يدها بيـد مرتجفة البطاقـة وقامت باسـتدعاء الطبيـب الذي لم تكن إلـى الآن تتذكر أنها قرأت حقاً اسمه

– آلو

– آلو نعم.. من المتكلم؟

– هل الطبيب موجود؟

– نعم. ومن يطلبه؟

– قولي له (يمان) لو سمحت

بعـد أقـل من دقيقة سـمعت صـوت الطبيب على الطـرف الآخر يقول:

– يا لهذا اليوم.. أهلا بالآنسة (يمان)

– أرجـوك دكتور هل باسـتطاعتك الحضور بسـرعة لأن والدتي متعبة جداً والزرقة بدأت تعتلي وجهها

ـ ماذا؟؟ سأكون عندكم خلال عشر دقائق.

أغلقت (يمان) سماعة الهاتف ولكنها بعد ذلك تذكرت أنها لم تعطه العنوان وعندما عاودت الاتصال به كان قد غادر العيادة، انتابها القلق كثيراً ولم تدر ماذا تفعل.

دق جرس الباب بصوته الذي يشبه صوت أجراس الكنائس فأحدث صدى في باحة الفيلا وطرقات سـريعة في قلب كل من (يمان) وأختها اللتين كانتا في أشد الرعب على حالة والدتهما، واللتان حاولتا المستحيل لإنعـاش أمهما عندما قربا من أنفها ماء الزهر علها تصحو.. أو بفرك أطرافهـا الباردة وهمـا ترتجفان قلقاً وخوفاً مـن حدوث مكروه لأمهم الغاليـة.. وبكل قلق وأمل انتظرتـا الطبيب وأنظارهما وآمالهما متعلقة على عقارب الزمن.

هرولت الخادمة مسرعة لفتح الباب تبعتها (يمان) لاستقبال الطبيب بينما جلست هالة بجوار أمها ممسكة بيدها وفي عينيها دمع غزير..

استقبلت (يمان) الطبيب بابتسامة مصطنعة قائلة:

ـ أهلاً بك دكتور تفضل من هنا لو سمحت

ـ أهلاً بك.. أين المريضة؟؟

ـ من هنا لو سمحت

دخل الطبيب إلى بهو المنزل الفسـيح وهو يلقي بنظرة سـريعة في أرجاء المنزل أثناء مروره باتجاه غرفة الجلوس..

مـدد الأم على الأريكة وأخرج بسـرعة جهاز الضغـط.. بدا عليه

القلق بعد أن قام بقياس النبض وبعد أن فحص الصدر.. ثم بادر بالقول يجب نقلها فوراً إلى المستشفى

– إلى المستشفى؟؟ وهل الأمر خطير إلى هذا الحد؟

– لا أخفيك.. هو كذلك، فالوالدة لديها احتشاء واضح في القلب. هذا بالإضافة إلى سوء في عمل الرئتين.. هل الوالدة مدخنة؟؟

– نعم هي كذلك

الأفضل ألا نضيع الوقت سأحقنها الآن بحقنة إسعافية ريثما تأتي سيارة الإسعاف.

– سيارة الإسعاف؟؟

– لا تقلقي سأقوم بطلبها من المستشفى الذي أتعامل معه ولكن أين الهاتف لو سمحت؟

بعد ثلاثة أيام وفي المستشفى....

– هه؟؟ كيف أنت اليوم سيدة فريال؟

– أفضل والحمد لله والبركة فيك دكتور

– العفو.

نظر باتجاه (يمان) متأملاً ابتسامة عرفان..

ابتسمت في وجهه مجاملة وهي تعيد غطاء السرير على بدن أمها بعد أن قام بمعاينتها

ـ سـأتركك الآن كي ترتاحي ولكن بعد أن تحقنك الممرضة بحقنة ضرورية.

بعـد أن اطمأن عليها ذهب في جولة يتفقد بها باقي المرضى وعاد من جديد إلى غرفة والدة (يمان)

ـ هل نامت؟؟

ـ نعم

ـ هل بإمكاننا التحدث؟

ـ طبعاً.. طبعاً.. هل هناك من شيء؟؟

ـ لا.. لا تقلقي، أريد فقط التحدث إليك

ـ عن ماذا؟

ـ لا شيء محدد.. فقط أشعر برغبة في التحدث إليك، هل يضايقك هذا؟

ـ لا أبداً

سارا معاً في ممرات المستشفى الهادئة.. وبدت أصوات خطواتهما هي المتحدث الوحيد في ذاك السـكون والهدوء الذي تتسـم به ردهات المستشفيات عادة.

بادر الطبيب بالحديث بأن وجه ملاحظة لـ(يمان) قائلاً:

ـ تبدين متعبة

– طبيعي

– ولماذا؟

– لأن أمي مريضة

– لماذا تتحدثين إلي بأجوبة مقتضبة؟

– ولكن.. كيف تريدني أن أتحدث إليك؟

– لا أدري، ولكني أرغب أن يكون بيننا.. شيء آخر غير الأجوبة المقتضبة.

– لم أفهم؟؟

– ألم تلحظي بأني معجب بك؟

– عفواً؟؟

– ألم يلفت انتباهك بأني تعمدت أن أترك باقة الورد؟؟

– أية باقة؟؟ آه تذكرت الآن.. ولكن لماذا؟

– لأنك كنت أنت التي أنوي أن أقدم باقة الورد إليها.

– حقاً.. في الحقيقة اعتقدت أنك لم تعجب بها ولكنك لم تشأ أن تصفح عن هذا ولذلك تركتها ولم تأخذها.

– لا.. أبداً هي كانت لأجلك وحدك، وقد تعمدت تركها كرسالة إعجاب لك.

أطرقت (يمان) قليلاً ثم قالت:

– في الحقيقة هنالك سؤال يدور في خلدي

– وما هو؟

– أريـد أن أسـألك: كيف عرفت عنوان منزلي مـع أنني لم أعطه لك؟ لقد فاجأتني حين حضرت إلى المنزل على هذا الوجه من السرعة ومـن دون أن تأخذ العنوان إذ إنك قمت بإنهاء المكالمة دون أن تسـأل عنه وكأنك تعرفه مسبقاً.

– صحيح

– ولكن كيف؟

– فـي الواقـع حين غادرت حفل الزفاف قمـت بملاحقتك وعرفت أين تقطنين.

– لماذا؟

– لأنني.. لأنني.. أعجبت بك منذ النظرة الأولى

– دكتور.. أرجوك

– لا.. دعيني أكمل (يمان) أنت هي المرأة المنشودة

وأنا جدياً أريد الارتباط بك إذا لم يكن لديك مانع

فهل تقبلين بي زوجاً لك؟؟

– أنـت حقـاً تفاجئنـي دكتـور.. الآن.. وفي هذا المـكان؟؟ تطلب يدي..؟

– ولـم لا؟؟ خير البر عاجله. أنا رجل ديناميكي.. عملي.. لا أضيع الوقت.

– ولكن.. يجب أن أفكر..

– هـذا من حقك.. الأمر هام ومصيري وبحاجـة إلى التفكير لذلك سأتركك تفكرين.. معك دقيقتان فقط لإعطائي الجواب.

– هههه

– لقد ضحكت وهذه بشارة خير

– دكتور أرجوك

– أرجوك أنت.. ناديني باسمي فريد دون ألقاب

– لا أستطيع ذلك..

– بـل تسـتطيعين.. حاولي.. على الأقـل ومبدئيـاً الآن اعتبريني صديقاً.. هل ينادي الأصدقاء بعضهم بالألقاب؟

– حسناً.. فريد

– يا الله ما أجمله اسمي.. كيف لم ألحظ هذا قبلاً.. هو فعلاً فريد إذ نطقت به.. شكراً لك.. شكراً..

تركته (يمان) مرتبكة وغادرت باتجاه غرفة والدتها وهي مندهشة من مثل هذا العرض بمثل هذه الظروف

سمعت صوته من ورائها ينادي:

– أراك غداً.. سأنتظر الغد بفارغ الصبر.. سأنتظر ردك

وجاء الغد..

دخل الدكتور فريد إلى غرفة فريال بكل وقار ملقياً تحية الصباح.

قـرأ تقرير الطبيب المناوب.. سـأل الممرضة عـن بعض الأمور المتعلقـة بالمريضة.. ثم طلـب منها الانصراف، وبعـد ذلك بادر إلى الجلوس بجانب فراش المريضة وأمسك بيدها قائلاً:

– سـيدتي أستطيع أن أطمئن الآن بأن كل شيء بات على ما يرام، وأنك تسـتطيعين المغادرة، ولكن أرجو منـك أن تعتني أكثر بصحتك وألا تعـاودي التدخين؛ لأن هنالك خطراً حقيقياً على حياتك التي بدأت أعتبرها هامة جداً بالنسبة لي..

قال هذا وهو ينظر باتجاه (يمان) بنظرات ذات معنى.. ثم اسـتأذن بعد ذلك مغادراً.

لاحظت فريال نظراته واسـتغربت كلماته ولكنها لم تشـأ أن تتفوه بكلمة.. فآثرت الصمت.

اسـتعدت فريـال للمغادرة بعـد أن قامـت هالة و(يمـان) بترتيب الأغـراض.. نزلـت بعدها (يمـان) إلى غرفة المحاسـبة لتدفع فاتورة المستشـفى ولكنهـا فوجئت بسـداد الفاتورة.. وعرفت علـى الفور أن (فريـد) قـد قام بذلك.. غاظهـا جداً ما فعل.. بحثت عنـه ولكنه كان قد غادر المستشفى.

سـألتها أمها بعد العودة إلى المنزل عن قيمة الفاتورة فأجابت بأنها لا تعلم بعد..

– ولكن كيف لا تعلمين؟؟ ألم تذهبي إلى غرفة المحاسبة؟

– نعم فعلت ولكنني فوجئت بأن الفاتورة قد سُدِّدت.

– حقاً؟؟ ومن قام بذلك؟؟

– إنه الدكتور فريد

– الدكتور فريد؟؟ ولكن..؟ لم؟

– لا أدري

– كيف لا تدرين؟

– وبماذا تريدين أن أجيبك..؟ أنا لا أدري أسباب تصرفاته.

– بل تدرين ولكنك لا ترغبين بالإفصاح عنها

– ماذا تقصدين؟

– أقصد أنني لاحظت جيداً الطريقة التي كان يعاملنا جميعاً بها وخاصة التي يعاملك أنت بالذات بها.. ثم نظراته التي كانت طوال الوقت مسمرة عليك.

– حقاً..؟ وعلى ماذا يدل هذا برأيك؟

– أعتقد أنه معجب بك

– صدقت. هو كذلك ولقد فاتحني بموضوع الزواج

– الزواج؟

– أجل لقد طلب يدي

– أين؟؟ ومتى؟؟

– في المستشفى

– في المستشفى؟؟ ألم يجد مكاناً أفضل؟؟

– وماذا يهم؟؟ المهم أنه طلب يدي وأنا سأوافق

– ماذا؟ ستوافقين.هكذا ببساطة دون أن نعلم عنه شيئاً؟

هنا انفجرت (يمان) غاضبة قائلة:

– وماذا تريدين؟؟ ألست تريدينني أن أتزوج؟؟ ألا تريد هالة ذلك أيضاً..؟ هاهو عريس مناسب قد رضي أن يطلب يد فتاة عانس. عليك أن تكوني ممتنة للإله لأنه قد أرسل زوجاً لتلك العانس التي تقطن معك في المنزل.

قالت هذا وانسحبت إلى غرفتها.. ثم عادت وفتحت فجأة باب الغرفة وهي تصيح بصوت منفعل عالٍ:

– أجل.. لقد قررت الزواج به.. فافرحي أنت وابنتك المدللة هالة.

في اليوم التالي وعند الظهيرة قامت (يمان) بزيارة للدكتور فريد في عيادته..

كانت العيادة تقع في منطقة شعبية جداً تدعى (الشعار) وهي بحد ذاتها مدعاة للرثاء، فأثاثها رث متواضع ضمته غرفة انتظار بمساحة أصغر بكثير من عدد المرضى، مما اضطر بعضهم إلى الجلوس على الأرض أو عند مدخل الباب رغم البرد القارس الذي لم يحتط له ولو بمدفأة صغيرة.

سألتها الممرضة التي تخلت عن أي لباقة أو أسلوب حضاري في السؤال:

– معاينة أم مراجعة؟؟

– لا هذا ولا ذاك.

– وماذا إذن؟ هل قدمت لحضور فيلم سينمائي؟

– احترمي نفسك وادخلي لعند الطبيب وقولي له إن المهندسة (يمان) تنتظر خارجاً.

– حسناً

أجابتها الممرضة بعد أن رمقتها بنظرة مريبة وهي تمضغ قطعة لبان بشكل استفزازي وقح، وبعد ذلك قامت بتكاسل وبدا واضحاً لـ(يمان) أن ثوب الممرضة كانت تنقصه كل أسباب النظافة، لا بل وكان ممزقاً عند الكتف ومن تحت إبطه، وقد بدا واضحاً جداً أن بدن تلك الممرضة السمين الشره كان يرفض البقاء في ثوب واحد بل هو يبدو جشعاً شرهاً كجشع وشره صاحبته؛ يتطلب ثوبين اثنين..! ابتسمت (يمان) في سرها وتذكرت هوايتها القديمة في استشفاف تعابير الوجوه ودراسة الشخصيات بصمت وسرية..

ذهبت الممرضة لإخطار الطبيب بالآنسة التي تنتظر خارجاً، فما كانت إلا ثوان قليلة حتى ظهر الدكتور فريد والارتباك والحرج واضحان حد العري على ملامحه.

– من (يمان)؟؟ أهلاً بك.. أهلاً.. اعذريني ولكن كما ترين أنا مشغول جداً أنا أرغب حقيقة بالجلوس معك والحديث مطولاً، هل باستطاعتي أن أراك بعد دوام العيادة؟ ما رأيك مثلاً لو تناولنا الغذاء معاً في مطعم السترااند؟

– يعني حوالي الثالثة؟

– أجل.. الثالثة مناسب جداً

– حسناً سأكون هناك

جلســت (يمان) في المطعم الكائن المطل على الحديقة العامة، كان مطعماً هادئاً.. راقياً.. جدرانه توحي بالدفـء.. بالألفة وبالانتماء يدعى (الستراند).. مطعم راق من أشهر وأرقى مطاعم حلب.

مقاعـده الوثيرة تمنح إحساســاً عالياً بالراحــة.. واجهاته الزجاجية الواســعة النظيفة تســمح للعين بأن تنعم ببهاء وجمال خضرة الأشجار الممتــدة أمامــه والمطلة مــن الحديقة العامة.. وأجمل مــا فيه كان ذاك الانسياب العذب للموســيقى في داخل الروح.. فاختيارات ذاك المطعم الموسـيقية كانت دائماً غاية في الـذكاء الوجداني والذوق الرفيع الذي يحاكي أرق المشاعر

كان الفصل شتاء.. والثلج بدأ بممارسة رقصته الصامتة مع الريح

وأغنية tombe la nege للمطرب الفرنســي adamo قد رافقت تلك الرقصة.. شــعرت (يمان) في تلك اللحظة بحزن خفي يســري كالخدر في روحها والتمعت دمعة يشابه صمتها صمت الثلج.. باردة.. حارقة... صادقة.. حقيقية مثله تماماً.. صامتة ولكنها تنطق بالكثير.. أدركت آنئذ أنها ســوف تتلاشــى يوماً ما مثل الثلج ومثل دمعتهــا وأنها بعد دقائق قليلة ســتقبّل تاريخها قبلة الوداع.. استغربت مشاعرها تلك وشعورها بالتلاشــي ثم أخذت تسأل نفســها عن السبب الحقيقي الذي دفعها لقبول دعــوة فريد؟ هل هو مجرد تســديد لفاتورة أمها في المستشــفى أم أنها

ترغب حقيقة بالتعرف إليه أكثر حتى تقبل به زوجاً لها.. أم حتى توجد لنفسها ذريعة أو سبباً لرفضه..؟؟ لم تدر ماذا تفعل بذاك الإحساس بالضيق الذي بدأ يحتل رويداً رويداً صدرها تنهدت تنهيدة طويلة وتنفست بعمق علها تزيح غمامة الغم التي لاحت لها من بعيد.

بدأت تلهي نفسها لحين حضور فريد؛ فهي قد جاءت مبكرة بعض الشيء.. كانت دائماً لا تستطيع أن تخفي ذعرها من مرور الزمن ولطالما خشيت الدقائق التي تجبرها بأن تختلي بنفسها.. أخذت تمسك بالسكين الموضوعة أمامها إلى جانب الصحن وبدأت تتأمل لمعانها، فتبادر إلى ذهنها خادمتهم ليلى وإصرارها الدائم على تلميع السكاكين.. ولكنها سرعان ما انتفضت برعب حين جالت أمام عينيها صورة ليلى تلك التي بلغت من العمر أربعين عاماً ولم يلمس جلدها أنامل رجل، أو تعرف شفتاها حرارة قبلة.. كانت تتحرك في المنزل كتابوت متنقل ووجهها ككتاب تاريخ يبوح بخسارتها في الحياة..

وأخذت تتذكر حواراً دار يوماً بينها وبين أختها هالة تلك المتطفلة التي سألت:

– ليلى.. لم لم تتزوجي حتى الآن..؟

– إيه لأن النصيب لم يأت..

أجابت ليلى بعد تنهيدة طويلة

– النصيب؟؟ وما دخل النصيب..؟ هذا سخف

– لا أعلم ولكن في مثل هذه الأحوال تكون هكذا الأقوال.

ـ وماذا فعلت إذن..؟

ـ أعمل كما ترين

ـ لا.. لست أقصد هذا، أقصد ماذا فعلت بنفسك؟؟ بمشاعرك..؟؟بحاجتك إلى رجل يضمك.. أو ..

قاطعتها ليلى قائلة:

ـ آنسة هالة.. ما هذا الكلام.. لا أفهم عن ماذا تتحدثين

ـ كيف لا تفهمين..؟ في داخل كل واحدة منا رغبة حقيقية لتبادل المشاعر والأحاسيس.. ألم ترغبي يوماً بالإنجاب؟

ـ أنا.. أنا حياتي نذرتها لابن شقيقي، فأنا أعتبره كل حياتي.. هو طفلي وهو رجلي، لقد كنت محظوظة إذ سمح لي أخي بأن أقوم بتربيته.. كان كرم أخلاق منه بعد أن شعر بوحدتي، فتكفلت أنا بكل مصاريفه وحاجاته ورعايته.. لم أبخل عليه يوماً بشيء فأنا أخبئ له كل ما يمكن أن يبعث السرور في نفسه، أحرم نفسي الكثير لأجله، من أجل ضحكة من عينيه أو من أجل أن يبتسم بوجهي.. كبّرته وأنا أدرب نفسي أنه سيغادرني يوماً دون أن يسأل عني.. ولكنني مع هذا ممتنة وراضية وسعيدة لوجوده في حياتي.

ـ ولكن ألم تشعري بالحب أبداً..؟

ـ لا، فأنا امرأة عاقلة أخاف الله

ـ الله..! وهل يمنعنا الخالق من الحب..؟!!

– لا أدري.. ولكـن الجميـع قد أثنى على أخلاقي حين رفضت ابن عمـي إكراماً لأخي الأكبر الـذي كان على خلاف مادي معه، رغم أن ابن عمي كان راغباً بي كثيراً وقد علمت هذا من خلال الرسـائل التي كانت تبلغني بها شـفهياً أخته حين كانت تأتي لزيارتنا، ولكني رفضته كي لا أخسـر أخي، ويومهـا أثنى الجميع على رجاحـة عقلي وكوني فتاة عاقلة ترعى مصالح العائلة وتبقي على صلة الرحم وتؤثرها على مصلحتها الشخصية..

– ولكن ألم يكن هنالك رجل في الدنيا غير ابن عمك هذا..؟

– بلى في قريتنا الصغيرة كان هنالك الكثير من شباب القرية وقتها ولكن لم يجرؤ أحد على التقدم لخطبتي بسبب شراسة ابن عمي وتهديده بقتل أي شـاب يرغب بالزواج بي، كان يقول إما أن أزف إليه أو إلى رجل ميت.. وهكذا بقيت بلا زواج.

يومها فكرت (يمان) بمدى شقاء تلك التَّعِسَة ليلى..

كانـت تعيش أكبـر كذبة في حياتها بوهمها أنها وجدت نفسـها من خلال ابن شـقيقها وهـي لم تدرك بـأن أخاها قد حـول انتباهها لذاتها وشـعورها بأنوثتها إلى مجرد خادمـة أو مربية ترعى ابنه، وهي تقدم له المال والحنان، وتسـاءلت في نفسها هل العقل سجّان القلب..؟ وهل تطلق صفة المرأة الفاضلة أو العاقلة على تلك التي تنسـى أو تتناسـى أنهـا امرأة..؟ هل تطلق صفة المرأة المطيعة على تلك التي ترضى أن تستسلم لاعتبارات الآخرين ولأمزجتهم..؟؟!!

استغربت وبشـدة كيف استطاعت ليلى تلك بسـذاجتها أن تروض

رغباتها ومشاعرها وأن تخضعها لسوط الواجب..؟ كيف صبرت على جوع روحها وجسدها بأن تكون امرأة.. أن تكون أماً..؟ هل كان الخنوع ملتفاً في تلافيف دماغها أو في أشرطتها الوراثية..؟ هل خافت حقاً من فقدان احترام الناس والأهل من حولها فيما لو صرحت بمشاعرها..؟ هل تجاهل الأحاسيس والرغبات يزيد فعلياً من أرصدة الاحترام لدى بنك القبول لدى الآخرين..؟

لاشك أن الجميع قد بارك لها تضحيتها ولكنهم كانوا في الحقيقة يباركون عانساً ورغباتها المدفونة وقد أهدرت وتحولت إلى شكل عطاء لا محدود لطفل لم يولد من رحمها .. والأدهى من ذلك بأنهم أقنعوها بأنهم قد قدموه لها مكافأة جزاء على وعيها المتمثل في الانصياع لرغباتهم.

يبدو أن الجميع تصرف بعفوية وأنانية، فالأمر لا يحتاج لثقافة أو دراسة وتخطيط أو حتى دراية في النفس البشرية..الأمر جاء هكذا تلقائياً وعفوياً وغريزياً تماماً مثلما يرضع الوليد من ثدي أمه الذي يمثل له العطاء والغذاء بعد الولادة فالجميع كان ممتناً لما يحدث، فالأخ وزوجته حصلا على مربية محبة وحنون، بالإضافة إلى مال يهدر بسخاء من أجل طفلهما. أما ابن العم فقد أخذ يجول متبختراً في القرية وكأن عدم زواج ليلى كان بمثابة وسام له على سطوته وجبروته وتعنته رغم أنه تزوج ثلاث مرات وأنجب أكثر من عشرة أولاد..

أما المسكينة ليلى فقد بقيت تعيش أكذوبة فرح الامتنان لأنها حظيت برضى من حولها وشرف رعاية ابن أخيها وهي مقتنعة تماماً بأن الله قد عوضها بذلك عن عدم زواجها واستحالة أن تكون لهذا السبب يوماً ما أماً.

فجـأة عـادت (يمان) من رحلـة التفكير بعد أن تناهى إلى سـمعها صوت فريد قائلاً وهو ينفض الثلج من على معطفه:

ـ ما أغلظ الشتاء..! يربكنا دائماً بتبعاته التي لا تنتهي.

ثـم مد يده البـاردة مصافحاً يدهـا بحركة روتينية تخلـو من لباقة الموعد الأول..!

سـحب الكرسـي وجلس بعد أن خلع معطفه وبدأ يفرك يديه وبادر بابتسامة المنتصر قائلاً:

ـ أهلاً بآنستي الغالية.

ـ أهلاً دكتور فريد

ـ عدنا لقصة دكتور..؟

ـ طبعاً.. هل تستطيع أن تنفي عن نفسك ذلك اللقب..؟

ـ لا وأنـا فخور به ولكن معك أنت بالذات لا أرغب أن يكون بيننا ألقاب

ـ ولكـن في النهاية أنت الطبيب الذي عالـج والدتي.. ثم إنك قمت مشـكوراً بدفع فاتورة المستشـفى وأنا هنا في الحقيقة كي أسـألك عن قيمتها لأقوم بسدادها لك.

ـ مـاذا؟؟ وأنا الذي اعتقدت بأنك حضـرت لرؤيتي لنتحدث بأمر مستقبلنا معاً.

أبدى فريد انزعاجاً واضحاً ثم مد يده إلى جيب سترته وأخرج منها

علبة سجائر سحب منها سيجارة وبدأ بطرقها على الطاولة عدة طرقات متتابعة ووضعها بعد ذلك بين شفتيه المرتجفتين ثم أشعلها بولاعته الفخمة التي لم يخف على (يمان) أنه حاول أن يلفت انتباهها إليها رغم انزعاجه الظاهر، وبدأ يدخن بعصبية، ثم التفت إليها فجأة بعد أن صمت لبرهة من الزمن وقال بعد أن أطلق سحابة دخان صغيرة:

– (يمان).. بدون مقدمات.. أنا أكرر طلبي وأتمنى سماع رأيك الآن فوراً

سكتت (يمان).. لم تدر ما تقول.. تشابكت أفكارها.. حدقت عبر الزجاج تنشد الراحة من مساحة النور التي احتلت الواجهة الزجاجية.. تراءى لها طيف جابر.. رغبت أن تصرخ وتقول لا.. لن أتزوج منك فريد.. ولكن صورة أختها الغاضبة الثائرة ووجه أمها المترجي ووجه فريد المتأمل وصورة ليلى ولقب العانس كل ذلك دفعها لقول شبه مخدرة وباستسلام:

– حسناً.. أنا موافقة

(يمان)..اختارت اللا إبحار مجدداً لتغرق في وحل التلاشي...

(23)

جلست السيدة فريال في مواجهة الدكتور فريد في غرفة الضيوف..

كان هادئاً تماماً.. واثقاً من نفسه يبتسم بغطرسة مفضوحة وبفوقية... عبثاً حاولَ أن يُلبِسها قناع التواضع..

بادرت السيدة فريال بالتحية وقالت بوقار: أمٌّ تستقبل خاطباً لابنتها:

ـ أهلاً دكتور فريد..

ـ أهلاً سيدتي..

ثم ابتسم وأردف قائلاً بعد لحظات حرج صامتة:

ـ أعلم بأن (يمان) أخبرتك عن سبب زيارتي وأرجو أن ينال طلبي القبول والرضا لديك

ـ نعم بلا شك أخبرتني.

صمتــت قليلاً وبعد أن جالت عيناها في غرفة الضيوف مســتغربة قدومه وحيداً قالت:

ـ ولكــن يا دكتــور ألا تعتقد أنه من الأصول أن يأتــي أهلك للقيام بطلب يد ابنتي.

تململ في مقعده قليلاً ثم سعل سعلة مصطنعة وأردف قائلاً:

ـ طبعاً.. طبعاً.. أنا لم أنس هذا الأمر، ولكني آمل أولاً بأن أتشرف بقبولي لديك، وبعدها سوف أرتب الإجراءات اللازمة..

ـ أنا في الواقع لا أعرفك بالشكل الكافي ولكن من خلال الظروف التــي جمعتنا تبيــن لي أنك رجل رصيــن متزن وقــادر، وأنك توحي بالاطمئنان.

ـ شــكراً لك ســيدتي على إطرائك وأنا سأحاول أن أبقى عند حسن ظنك.. هل نقرأ الفاتحة؟

أطرقــت قليلاً وفكرت هل عليهــا أن توافق؟؟ ولكن هاهي ابنتها قد تجــاوزت الثلاثين ولــم تتزوج بعد وابنتها الصغــرى تترقب فرصتها بالزواج.. ولكن.. فريد ليس بالعريس الذي طالما حلمت به لابنتها.

تــرددت كثيــراً بالإجابــة وحاولــت أن ترجئها حتى تقــوم (يمان) بواجب الضيافة تجاه ضيفها.. تأملت (يمان) وهي جالسة أمامها.. قالت

في نفســـها.. بكلمة واحدة مني ســأقدم ابنتي لهذا الرجل؟ هذا القادم من درب القدر الذي لا تحمل ملامحه الاجتماعية ســحنة مشابهة لسحنتنا؟ و(يمان) ابنتي الشفيفة الرقيقة.. لا أدري لم يخامرني الشعور بأن فريد ليس هو بالشخص المناسب لها..

أفاقت من شــرودها علــى صوت هالة التي دخلــت مُرَحِّبة ومهللة قائلة:

_ أهلاً.. أهلاً بصهري العزيز

_ أهلاً بك هالة.. سعيد أنا بهذا اللقب رغم أني لم أسمع بعد الإجابة على طلبي من والدتك.

_ ماذا..؟ لا، هي موافقة حتماً؛ فأنت الرجل الذي أنقذها من الموت ومنحهــا فرصة العيش والاســتمرار بالحياة من جديد طبعاً بعد الخالق عــز وجل، فكيــف ترفض لذلك الطبيب البارع طلبــه بأن يكون زوجاً لابنتها.. أليس كذلك يا أمي..؟

قالت هذا ثم نظرت باتجاه والدتها مسمرة عينيها في عينيها وكأنها تُقْرِئها رسالة تترجاها فيها بالقبول.

أما (يمان) فكانت تتأمل المشهد بلا مبالاة وباستسلام تام وكأن الأمر لا يعنيها.. وبدت عيناها ساهمة.. شاردة مع مسحة حزن باهتة..

وجدت الســيدة فريال نفســها محاصرة بنظرة هالة المترجية وبنظرة فريد المترقبة ونظرات (يمان) التائهة.. تمنت للحظة من كل قلبها لو كان زوجها اليوم حاضراً ليحمل عنها ثقل هذا القرار.. أو كم تمنت أن تسمع صوت حماتها القادم من أغوار الحكمة لتدلي بنصيحة نفيسة قيمة..

سمعت صوت فريد يسألها قائلاً:

ـ أنــا ما زلــت أنتظر جوابك ســيدتي.. أم هل أعتبر أن الســكوت علامة الرضا..؟

وجدت نفسها تجيب باستسلام:

ـ حسناً بالتوفيق إن شاء الله.. ولكن متى سيحضر الأهل؟

ـ قريبــاً.. قريبــاً جداً.. وأنا ســأعتبر قراءتنا للفاتحــة بمثابة التزام بيننا.

جلســت (يمان) بينهما غير مصدقة أن أهم قرار في حياتها وأخطر درب في عمرها يقوم بشــقه الآن كل من أمها وذلك الشــخص الغريب عنها!!!

لم تدر هل تفرح.. تســاءلت هل عليها أن تبتســم..؟ استنتجت أنه لا مفــر من ابتســامة رضا تطمئن بها تلك النظــرات التي كانت تبوح بها عيون والدتها وفريد.. ثم نظرت إلى هالة.. فابتسمت..!

مــر أســبوعان على قــراءة الفاتحة كان خلالها فريد قد أشــاع بين كل المعــارف والأصدقاء خبر الخطوبة.. وبدأت التهاني تنهال عليهما وأصبح أمــر الخطوبة أمراً واقعاً.. وفريــال مازالت تنتظر قدوم أهل فريــد.. وهو في كل مرة يتهرب، إلى أن ســألته (يمان) بصراحة عن السبب؟

ـ فــي الحقيقة (يمان)..إن أهلي أناس بســطاء جداً وأخاف ألا تقبل بهم والدتك..

– مـــا هذا الـــكلام؟ هم في النهايـــة أهلك وعلينـــا أن نتعرف عليهم ويتعرفوا على خطيبة ابنهم.. أم أنك لا تهتم برأيهم؟

– في الحقيقة لا أهتم.. فهذا اختياري أنا وهم لا شأن لهم به.

أعجبها جوابه واسْتَشَفَّتْ منه ثقة بالرأي وقوة بالشخصية. تابع فريد حديثه واعداً إياها بقدوم أهله في يوم الخميس المقبل.

جـــاء اليوم المنتظر.. بدأ الاســـتعداد لمقابلـــة الأهل..ارتدت (يمان) ثوباً أنيقاً وتبرجت بشكل لطيف وأخذت في أعماقها تتأقلم على دورها الجديـــد في الحياة وعلى كونها فتاة مخطوبة. حاولت أن تســـعد نفســـها بالفكرة وبالحالة التي تحلم بها كل فتاة.

رن جـــرس الباب.. جـــاءت اللحظـــة المنتظرة.. ودخـــل أهل فريد وكانت الصدمة..!

تقلصت عضـــلات وجه فريال وحاولت جاهدة أن تبتســـم في وجه أهل عريس ابنتها.. مدت يدها لتصافح يد أمه فما كان من تلك الأخيرة إلا أن شدتها إلى صدرها وأخذت تقبلها بصوت مرتفع قبلات متلاحقة، تحمل من رذاذ لعابها ما تحمل.. ثم التفتت إلى (يمان) قائلة:

– أهـــذه هي العـــروس..؟ حلوة والله قمر مصـــور.. وأردفت وهي تطلق ضحكة بصوت مجلجل.. والله مزوق يا فريد.. تعالي كي أقبلك.. وأمطرتها بقبلات شـــبيهة بتلك التي منحتها لفريال إلا أنها أطالت أكثر في المدة الزمنية وفي العدد..!

كانت أمه ســـيدة بدينة قصيرة القامة تميل في مشيتها على الطرفين كالبطة بسبب أوجاع في ركبتيها خلّفها مرض الروماتيزم.. ترتدي ثوباً

فضفاضاً مزركشــاً بورود ضخمة ذات ألوان متداخلة وغير متناغمة، أمــا حذاؤها فكان صغيراً يمســك بشــدة على قدمها وقــد وضعت في مؤخرتــه من الداخل محارم ورقية كي تمنع ارتطامه المســتمر بقدمها السمينة.

والد فريد بالطبع أسعفته ذاكرته في اللحظة الأخيرة أن يضع ملمع الشــعر حتى بدا وكأنه قد عاد للتَّوِّ من مســيرة تحــت المطر.. ورائحة عطره الرخيص كانت ســائدة بشــكل كبير بسبب مبالغته في سكب كل زجاجــة العطر على ما يبــدو على يديه ووجنتيــه.... راح يتلفت يمنة ويسرة متأملاً المنزل وهو يردد: ما شاء الله ما شاء الله.. ثم همس فرحاً في أذن فريد قائلاً:

– وقعتك محرزة يا ابني.

ســاد ضجيج وصخب أثناء تلك الزيارة ســببها صياح أخوات فريد وإخوتــه وأصواتهــم المتعاليــة وضحكاتهم التي لم يكــن لها أي مبرر ســوى الســعادة العفوية بخطوبة أخيهم وركضهم في المساحة الواسعة فــي بهو المنزل.. والتي عبروا من خلالها عــن بيئة تختلف تماماً عن تلك التي نشأت عليها (يمان).

أما وجه فريد أثناء ذلك فأخذ يتقلص ويتمدد، وعيناه كانتا تجولان في رحــاب ذلك المجلس العائلي وقد أخذت عضلة وجنته بالارتجاف وهو يرقب طريقة تناول أهله لقطع الحلوى المقدمة إليهم، محاولا أن يخفي ارتباكه من تلك الأصوات الصادرة من أفواههم وهم يحتســون شراب البرتقــال الطازج بأن كَلَّفَ نفســه مزيداً من مظاهــر الثقة واللامبالاة، وبأن تحدث عن عملياته الناجحة وعن تفوقه على باقي زملائه.

فجـأة وبدون أية مقدمات مد فريد يده إلـى جيبه وأخرج منها علبة وفتحهـا، وإذ بخاتم الخطوبة يلمع ويعلـن عن حضوره البراق.. وقف فريد أمام (يمان) قائلاً:

– هل تسمحين؟

ودون أن ينتظر.. سَـحَبَ يدها ووضع الخاتم في إصبعها ثم أخرج خاتمه..

فما كان من (يمان) إلا أن فعلت الشـيء نفسـه بشـكل تلقائي وهي مذهولة من تصرفه المفاجئ..

نطقـت فريال بكلمة لكن..! ولكن..(لكـن) تلك ضاعت بين أصداء الزغاريـد التي أطلقتها كل من أم فريـد وأخواته.. وأصوات المباركة والقبلات العجيبة.

وهكذا تمت خطوبة (يمان) بدهاء ماكر بدا وكأنه عفوية مطلقة..!

بعـد رحيل أهل فريد.. وبعـد العودة إلى الهـدوء الهارب من ذاك الصخب الغريب جلست فريال و(يمان) وهالة في غرفة الجلوس معاً.. وكانت كل واحدة منهن تفكر بصمت..

فريال مصدومة بذلك النسب المترهل الذي فاق كل خيباتها.. وهالة فرحة بزوال العقبة من أمامها. أما (يمان) فقد امتطت أرجوحة المشاعر بيـن الأنا أو الآخر.. بين الأخذ أو العطاء.. بين الوجود أو التلاشـي.. بين السـذاجة أو الذكاء.. بين الكينونة أو عدمها.. ثم أخذت تفكر بوجه الشـبه بينها وبيـن خادمتهم ليلى.. كلاهما أذعـن لأكذوبة رضا الأهل وارتضى أن يلحق بمركب التضحية ولكن بفارق بسـيط وهو أن ليلى

حصلت على لقب عانس، أما هي فستحصل على لقب (زوجة فلان).. مفارقة غريبة ووجه شبه مع كل الاختلاف..!

مر شــهران على الخطوبة، كانت خلالهما (يمان) تحاول جادة أن تتقبل (فريد) على أنه قدرها المنتظر..

بعـد قـرار أخذته ذات لحظــة اعتبرتها لحظة واقــع في أن ترتدي وجهاً ملائماً لكرنفال الحياة..

فهاهي بعد أيام قليلة ستصبح زوجة الدكتور فريد بحسب الأعراف المتبعة.. وشـيئاً فشيئاً وبالتدريج سينســى الآخرون ملامح تلك الشابة الرقيقــة المفعمة بالجمال الروحي والشــفافية، وســتحل مكانها ملامح جديدة يتطلبها دورها الجديد في مسرحية الحياة لتكون لها ملامح امرأة ناضجة تودّع معها وإلى الأبد حدائق الطفولة في عينيها..

هذه المرة ســتتحول حقاً إلى مساحة بيضاء تماماً كاللون في أساس لوحــة، وتترك للأيام مهمــة تلونها بلون الحياة.. تمنــت صادقة لو أن حياتها مع فريد ستحمل لون الفرح..

لقــد اقتنعت أخيراً بأن للحياة خطاً آخر غير ذاك الذي كانت تســير عليه مشــاعرها.. فهي لم تعد شــابة صغيرة وعليها أن تقرّ بأن الواقع هو الحقيقــة الحاضرة، وأن لا مكان لمســاحة الخيال ضمن التفاصيل اليومية التي تخلقها إرادة الحياة والقدر.. وفريد الآن هو خطيبها ورجل أيامها، وهو من سيمثل الأمان لها.. تذكرت أغنية لفيروز: الآن يسكنني الأمان..ابتسمت وتمنت أن يكون فريد هو أمن وأمان أيامها القادمة.

أمــا فريــد فقــد كان مشــغولاً بتحضير عــش الزوجيــة بالصورة

والإمكانات المتاحة لديه مع أمل كبير في المستقبل المرتبط بعروسه (يمان).

مرت أيام الخطوبة خالية من أي ألق مفترض.. أو بهجة كتلك التي تخلقها لحظات الحب المسروقة من بهجة الحياة.. فقد اتسمت معظم أيامها بالواجبات.. وشراء الحاجيات، كان خلالها فريد يحاول جاهداً أن يبدو أمام (يمان) ووالدتها بأنه رجل يملك حدس وذوق العائلات الكبرى.. وأن يلبس ثوب العراقة الذي لم يخف يوماً على (يمان) أنه يبدو مضحكاً به.. طبعاً كان واضحاً بأنه رجل عملي.. لا يهتم إلا بكونه الطبيب فريد، وأن عليه واجبات مهنية كثيرة.. ومستقبلاً ينتظره.

افتقدت (يمان) لألق المشاعر والكلمات الممهورة بالحب.. لا، بل إنها كثيراً ما استغربت عدم محاولة فريد اصطياد الفرص الكثيرة السانحة لهما بالتقرب والتودد إليها.. أو حتى تقبيلها..!

كانت أيام خطوبتهما تفتقد بريق اللهفة وشموع الشوق.. أيام مرت كواجب وكطقوس معتادة على المقاييس العائلية.. لا، بل حتى الهدايا كانت شحيحة ونادرة وكثيراً ما كان يحضر بدون ورود بحجة أنه لا يجوز أن يحضر وروداً لمن تتاجر بالورود..

كثيراً ما كانت تثير غضبها هذه الكلمة: تاجرة ورود..!

كان ثمة ذعر حقيقي يزحف إلى أعماقها حينما كانت تشعر بحجم الفارق الفكري والوجداني المتربص بحياتها القادمة.. وحده كان فرح هالة الأخت الصغرى هو البريق الذي كانت تسرّ (يمان) لأجله.. خاصة بعد إعلان خطوبتها هي الأخرى.

أحست حينها أن من بوابة عطائها وتضحيتها ستدخل مركبة فرحة أختها الهادرة بالحياة، وتمنت في سـرها لنفسها ولفريد ألا تكون خيول مركبة حياتهما المشـتركة.. ضعيفـة.. هزيلة، وأن تقودهما في دروب الحياة بسلام دون أن تتعثر.. أو أن تتوقف.

ولكـن كانت عبثًا تحـاول ألا تنصت لذبذبات القلق المسـتعر التي كانت تنتشر في سديمها في حضور وفي غياب فريد معاً..!

(24)

انتهى حفل الزفاف البسيط والذي اقتصر على وجود أهل الطرفين فقط.. لم يكن هنالك أحد من الأصدقاء أو الأقارب، فقد تعمدت فريال ألا يكون حفلاً كبيراً كي لا تُحْرَجَ أمام كبار العائلات والأصدقاء بذلك النسب الذي اختارته الظروف لابنتها..

بدت (يمان) كبجعة بيضاء في ثوبها الأبيض وقد أضفت سمة البراءة على وجهها فيضاً من نور.. لم تكن هنالك ثمة حاجة إلى تقنيات التجميل المعهودة لتتجمل بها، فقد كان صفاء قلبها وروحها وبياض ثوبها أروع من كل المستحضرات.. فمسحة الفرح الحزين على مُحَيَّاها بدت وكأنها لوحة فريدة المعنى والجمال..

أما فريد فقد تألق بنظرة متخمة بالنصر..! لم يكن الفرح عبير روحه وحدها، النشوة بالإنجاز كانت عطره المنتشر..!

(يمان).. لقد تمكن ذاك الثوب الأبيض من جعلك أسيرة داخل مظهر احتفالي لمفاهيم عامة بزواج سعيد، ولكن أليس في أسره ذاك اعتقال لجسدك الذي تحترمين..؟ أليس في بريقه ضياع لبريق قيم ومشاعر كنت بها تتألقين..؟

الناس (يمان) غارقون في برك الوحل.. ووحل الوهم أشده اتساخاً.. وثوبك الأبيض سيغرق..

ويغرقك بذاك الوحل.. أنت التي عشقت البياض..

ولكنك أنت أيضاً التي احترفت اللا إبحار..!

ستدركين يوماً أنك تعيشين فجيعة حياة أصابها لغم السذاجة.. حينها فقط ستتحاشين النظر في مرآة الذات كي لا تعيشي في كل مرة ألم النظر إلى تشوهاتك من جديد.. (يمان) الواهمة.. هل تدركين أن الملامح التي نفقدها برسم خطوط مغايرة لها تبدو طاعنة في الزيف..؟؟

فتح فريد الباب وأشار بيده لعروسه بالدخول.. كان يبدو واثقاً من نفسه، إلا أنه في الحقيقة كان بالكاد يخلو من الارتباك..ارتباكاً أشبه بإسفنجة تبدو في الظاهر جافة لكنها في الحقيقة تنوء بثقل ماء مخبوء في جوفها.

دخلت العروس منزلها الزوجي فاصطدمت بذبذبات خفية أشبه بتلك الذبذبات المنتشرة في الأماكن المسكونة بالغربة.. ذبذبات حركت في نفسها الضيق والقلق شبيهة بتلك التي يتركها فينا أثر زمور خطر في توقيته التجريبي.. قلق لا مبرر له ولكنه حاضر الوجود.. ينبئ عن مجرد احتمال لغارة جوية تتربص بنا في المستقبل..

أزعجها شعورها هذا.. أخذت تلهث بسرعة وهي تحاول أن تتماهى مع حقيقة كونها سيدة هذا المنزل المتواضع وعروسه الحاضرة قادتهما خطواتهما إلى غرفة النوم.. بقي للحظة يتأملها ثم قال:

– وأخيراً..(يمان) هي زوجتي.

ابتسمت بحياء وقالت:

– وهل (يمان) حلمك المنتظر؟؟

– أنا أدرك جيداً قيمة أن تكوني زوجتي..

تساءلت في دلع أنثوي مستفسرة:

– قيمة أن أكون زوجتك؟؟

– لو تعلمين أهمية وقيمة وجودك في حياتي..

نظـر إلى عنقها ثم مد أصابعه وهو يتلمس عقد الماس الفاخر الذي أهدتها إياه والدتها كهدية زفاف.. تأمله قليلاً ثم لمع في عينيه بريق بدا مبهماً بالنسبة لها مثل الابتسامة التي ارتسمت على شفاهه.. أدهشها بشدة أن تمتد أصابع رجل في ليلة زفافه لتلمس برودة الأحجار الماسية متجاهلة دفء عنق امرأة تنبض بالنضارة والحياة..!!!!!!

سألها إن كانت ترغب بشرب شيء بارد؟ سعدت لسؤاله؛ فقد أحست بالعطش منذ دخولها إلى المنزل.. سارع نحو المطبخ ثم عاد بكأسين من النبيذ.. سألته باستغراب:

– ما هذا فريد..؟

ـ قليل من الخمر ينعش الفؤاد

ـ ولكن..؟ هل تشرب الخمر؟؟

ـ أكيد وما المانع؟؟

ـ لا أدري.. كيف تسـأل.. أجل هنالك الكثير من الموانع بالإضافة إلى أنني لا أحب رائحة الخمر و أنفر منها بشدة.

ـ ستعتادين عليها مع مرور الوقت.

شرب كأسه دفعة واحدة ثم رفع الكأس الثانية وهو يقول:

ـ واضح أنك لست بحاجة لها ثم سكب ما فيها في فمه بِنَهَمٍ.

اقترب منها متناسـياً عطشـها..اقترب بهدوء وبصمت.. كل ما فيه كان صامتاً.. كان صامتاً حتى من اللهفة والشغف.!.

بـدأ بطبع عدة قبلات، سـافرت بسـرعة على وجههـا وانتهى بها المطاف إلى شـفتيها المرتجفتين.. لم تهزه تلك الارتجافة بل بدا وكأنه معتاد على شفتيها رغم أنها كانت قبلتهما الأولى..!!!

أخـذ يضمهـا ورغم نفورها مـن رائحة الخمر التي كانت أنفاسـه تضج بها أخذت تترقب لهفة من يديه أو نظرة شوق من عينيه أو زفرة حارة من أنفاسـه تدل على مدى شـوقه.. راحت تبحث بالتياع ممزوج بالخجل عن تعبير حب تمنت لو أنه نسـيه على خطوط وجهه أو على عروقه النابضة..

حاولـت أن تبتعـد قليلاً بلطف وحياء لتفسـح مكانـاً لزمن الرغبة بينهما..

ولكنــه بدأ ينزع عنها ثوبهــا كأرعن راح يمزق غلافاً لهدية جاءته خطأً.

ســقط ثوبها على أرض الغرفة محدثاً جلبة في نفســها أحست معها بتحطم كل المساحات البيضاء في ذاكرة وجدانها...

بدا ســريره متواطئاً معه في القســوة والشراســة.. ســرير قد ضم شراشف احتضنت برودة تشبه برودة لامبالاته بارتباكها وخجلها..

أغمضت عينيها.. حاولت أن تسترخي ولكن أحلامها البكر تحالفت عليها بعدما أرهقها ذلك الجسد المتهالك فوقها الذي لم يتقن إلا الشراسة فنــاً.. كانت ليلتها عصيّة على الاستســلام.. مما دفعه للصراخ بوجهها وهــو ينهرهــا ويؤنبها بصرامــة.. لم تدر لـمَ أحســت فجــأة بالعبودية وأحســت بأنوثتها تنتهك بشفاه باردة وصوت ذكوري جليدي مزمجر.. لــم تدر إن كانت رائحة الخمــر هي بطاقة الدعوة لحفلــة الغثيان التي أخذت تضج في حلقها أم رائحة الذكر الجِلْفِ الذي راح يتناول أنوثتها كمضغة سريعة..؟

آلمها أنهمــا قريبان وبعيدان في نفس المســاحة الزمنية والمكانية، شــعرت بالهوة الكبيرة الفاصلة بينهما رغم التصاق جسديهما.. حاولت يائســة أن تلفت انتباهه لأحاسيســها ومشــاعرها فهتفت برقة بصوتها الأنثوي:

– فريد.. أرجوك إنك تؤلمني.. تمهل قليلاً

فانشــغلت شهوته عن الاســتجابة لألمها... مع كامل إصراره على إنهاء مهمته كرجل في ليلة زفافه..!

أطلقت صرخة بألم.. جاءت صرختها لتعلو على تنهيدة آهة نشـوة أطلقها هو بنصر..

ابتعد جسـده عن جسـدها الغارق بالشـعور بالمهانة وبأنها أنثى قد اغتصبت في ليلة زفافها واستلقى باستسلام ولا مبالاة على الفراش بعد أن أنهكته مهمة إثبات فحولته التي أنهاها بسـرعة قياسية.. أخذ صدره العاري إلا من غابة شـعر أشعث ينتفض بسرعة وهو يعكس ضربات قلبـه المتسـارعة، أما على وجهه فقد ارتسـمت ابتسـامة بعد أن نجح باحتلال جسد عروسه العذراء..

لم يكلف نفسـه عناء الالتفات نحـو (يمان) ليحدثها أو ليحضنها بل أخذ ت عضلاته بالاسترخاء شيئاً فشيئاً، ومن ثَمَّ غَطَّ في نوم عميق.

أما تلك الأنثى المتهالكة على الفراش فقد تكورت كجنين خرج للتو من رحم أمه وقد نزف بعد قطع حبل الخلاص.

تسـاءلت دموعها بصمت.. أهذه حقاً هي ليلـة الزفاف..؟ وتراءى في مخيلتها مشـهد نعجة مذبوحة تنزف ببطء وعيناها تحدقان بسكون فـي وجه من أغمد سـكينه فيها.. بعد أن حدّقت فـي وجه فريد الغارق في النوم..!

أحسـت بضيق مفاجـئ حين تذكرت أنها قـرأت ذات مرة في أحد كتب علم النفس بأن ليلة الزفاف هي الانعكاس الحقيقي لطبيعة العلاقة الزوجية في المسـتقبل وهي المؤشـر لسـلوكية الزوجين.. خافت من غبار الأنانية القادم..استسلمت للنوم بعد أن أغلقت عينيها بشدة.

ليلـة زفافـك (يمـان) هل فقـدت فيهـا عذريـة الجسـد أم عذرية الروح؟؟

وأي نزف سيبقى يشعل ذاكرتك أبداً؟؟ ألا تدرين أن للأرواح أيضاً نزفاً.. هو نزف الخسارة..!

انبلج الصباح عن ليلة أشبه بكومة دخان تكومت عند مدخل مدينة كانت تريد لأضوائها أن تتحدث عن أفراحها فاحتلها عوضاً عن ذلك دخان أضاع ملامح البهجة والفرح.

كان صباحاً قاتماً رغم الشمس.. حاولت (يمان) فيه أن تبدو ابتسامتها مشرقة عبر ضبابية الامتعاض..

– أسرعي بالنهوض ولا تتكاسلي كي لا يفوتنا موعد إقلاع الباص.

قال فريد هذا بعد أن خرج لتوه من الحمام ممسكاً بمنشفة راح ينشف بها وجهه على عجل.

حسناً.. ولكن أين صباح الخير..؟

هيا.. هيا.. لا تهتمي للشكليات.. وعلى كلٍّ صباح الخير فأنت عروس وتستحقين قبلة سريعة.

طبع قبلة سريعة على وجنتها وهَمَّ بارتداء ملابسه بسرعة وهو يصفر فرحاً.

نهضت من السرير بتثاقل محاولة أن تستدعي ابتسامة حقيقية من أعماقها لتلون بها وجهها المقطب من أثر ليلة خاصة عرفت جيداً أنها لن تمحى أبداً من ذاكرتها، ثم راحت تفرك عينيها وأخذت تتثاءب..

– هيا (يمان) لا تتأخري أنا لا أحب الانتظار

ـ ولكنني متعبة جداً ولا أقدر على السفر

ـ ماذا؟ وشـهر العسـل؟؟ ألا ترغبين أن نسافر بعد أن حجزت في الفنـدق ودفعت تكاليف الإقامة فيه.. لا أفهمك.. لا بد أنك تمازحينني.. وهذا ليس وقت المزاح.. ماذا سيقول الناس عني إن لم نسافر..؟

ـ لا أدري ولكنني أشعر بأنني متوعكة.. ولكن.. حسناً.. معك حق سأجهز نفسي.

وصـلا إلى الفندق في مدينة اللاذقيـة.. كان فندقاً متواضعاً مقارنة بتلك الفنادق التي اعتادت أن ترتادها أثناء سـفرها مع عائلتها، ولكنها مع ذلك خرجت إلى الشـرفة لتستنشـق رائحة البحر محاولة أن تغمر رئتيها بالنسيم القادم منه ولتترك العنان لعينيها المتعبتين فرصة التحديق فـي المـدى الأزرق الممتد أمامها.. أطلقت زفـرة طويلة وكأنها تطرد معها مخاوفها وهواجسها، وحاولت أن تبتسم فرحة للأمل المرسوم في أيامها وحياتها القادمة.

أفاقت من شرودها على صوته وهو يقول:

ـ جميلـة الغرفة أليس كذلـك؟؟ صحيح أنني دفعـت مبلغاً إضافياً بسبب الإطلالة الرائعة ولكن المنظر يستحق هذا.

ـ أجل.. هـي جميلة.. شكراً لك..

مدت يدها لتمسـك بيده لتعبر عن امتنانها ولكنه سرعان ما استدار غير آبه بها وشغل نفسه بإشعال سيجارة.

جلسـا معاً على الشـرفة وأخذ يحدثها بتبجح واضح أو لنقل فاضح

عن نجاحاتــه بالعمل وعن غيرة باقي الأطباء منه ومحاولاتهم الدائمة لتحطيم نجاحه.. نظرت إليه (يمان) وهي غير مصدقة نفســها تتساءل: هــل هذا حقاً هو اليوم الأول من شــهر العســل.. فجأة شــعرت برغبة بالبــكاء.. راحت تبحث في عينيه عن شــعور إنســاني تتطلبه مثل هذه المواقف.. عن دفء مودة.. عن حرارة ارتباط.. عن اشــتعال رغبة.. عن رجفة ارتباك.. عن مراوغة خجل..

هل هي حقاً عروس في شهر العسل..؟ أم أنها امرأة قد مرّت على زواجها عجلة السنين فشوهت أكثر اللقاءات الحميمة..

ذعرت من برودته.. من صلفه وجفائه ومن انعدام اللباقة لديه.. من نرجسيته وغروره وغطرسته.. من دائرة الأنا التي يدور حولها..

أخــذت تنتظر كلمة يعبر بها عن فرحه لكونهما معاً وتحت ســقف واحــد أو نظــرة يتأمــل بهــا وجهها أو تفاصيل جســدها أو أن يشــعر بارتجاف صوتها.. ولكن..!

(25)

مرت الأشهر الأولى من الزواج تخللتها زيارات عدة من المهنئين والمباركيـن، تعرفت من خلالهـا على العديد من أصدقـاء فريد ومن أقاربـه.. أما فريد فقد كانـت تصرفاته تربكها وتثير القلق لديها خاصة إذا ما بـدت (يمان) متألقة.. جميلة.. متحدثة، أو إذا ما اتجهت الأنظار إليها لتحيطها بالإعجاب والإكبار.. فكثيراً ما كان يفاجئها بطلب ما منها بصورة مهينة أو اسـتفزازية خالية من أية مراعاة لأصول اللباقة.. بل حتى أنه لا يتوانى عن السخرية منها في أحيان كثيرة أو الاستهانة عن عمد بآرائها.. كانت المسكينة من اللطافة والتهذيب والذكاء الاجتماعي بحيث تحول المشـهد إلى مشـهد كوميدي، مضيفـة إليه بعض النكات والضحكات لتخفي بذلـك ألمها وحرجها من تصرفه الهزيل وجدانياً.. وكثيراً ما كانت تنسـحب إلـى الحمام لتخفي دموعهـا ولتخبئها وراء

غصة حرقة في حلقها لتعود بعدها مرة أخرى إلى ضيوفها وهي تدعي الفرح.

لم تنس أبداً ذات ليلة حين جاء لزيارتهم لفيف من أصدقاء ومعارف فريد، وصادف أن جاءت فريـال وبصحبتها أحد أصدقاء والد (يمان) القدامى وبصحبة ابنهم الشـاب حسان وزوجته، ذلك الطبيب العائد من إنكلترا بعد تخصصه في الجراحة القلبية وقد أصر على الذهاب لمنزل (يمـان) والمباركة لها خاصـة وأنها كانت رفيقة الطفولة ولم يكن لديه الوقت الكافي مما اضطره للحضور في تلك الليلة بالذات..

كان ذا حضـور لافـت للانتبـاه وقد أخذ يتحدث مـع فريد في آخر الأبحـاث والمؤتمـرات الطبيـة وبـدا واضحـاً بأنه طبيـب ناجح ذو شـخصية تتألق بالوعي والفهم وتتكلل بالثقافة الرفيعة المسـتوى.. وما أن بدأ بالتحاور مع فريد حتى تكشـفت بصورة واضحة تلك المسـافة الواسعة بين مسـتوى المعلومات والكم الهائل من الخبرات والتجارب التـي حصدها أثناء تواجـده مع أمهر أطباء لندن في أفضل المشـافي والمصحـات وبيـن المعلومات الضحلة التي كان فريـد يباهي بها، أو من تلك المحاضرات التي توهم أو ادعى أنه ألقاها في مدن عدة.. كان فريد أثناء الحوار كثيراً ما يدعي اعتذاره عن حضور تلك المؤتمرات التي أشـار إليها الدكتور حسان – والتي في الحقيقة لم يُبلَّغ عنها بل لم يكن مَدْعُوًا إليها أبداً – بحجة انشغاله بعمليات جراحية هامة في القلب أثناء انعقادها.

– دكتـور فريد.. بالطبع سـمعت عن هذا المؤتمـر وما أحدث من ضجة علمية بسبب آخر الأبحاث بشأن زراعة القلب.

– بالتأكيد ولكني لم أتمكن من الحضور كما قلت لك بسبب العمليات التـي كان علي إجراؤهـا رغم أن القائمين على هـذا المؤتمر أصرّوا على حضوري بشدة واعتبروا غيابي خسارة حقيقية لهم.

قال هذا وهو يبتسم ابتسامة تكاد تفضح عقده النفسية، وبعد أن رجع بمقعده قليلاً إلى الوراء ليترك مجالاً لنفسه كي يجلس جلسة أكثر خيلاء وزهواً ممسكاً بسيجاره الفاخر الذي أخرجه من مخبئه بعدما شعر بقوة حضور حسان فكان ذاك السيجار بمثابة عكاز يتكئ عليه نقصه....!

أما الدكتور حسان فقد ابتسم ابتسامة ذكية نظر بعدها باتجاه (يمان) وهو يهز برأسه هزة تنم عن أسف وخيبة، فقد اختلق فكرة ذاك المؤتمر الذي لم يوجد في الأصل، وكل ذلك ليؤكد صدق إحساسـه بكذب فريد وادعاءاته، ثم نهض فجأة وبدون مقدمات بعد أن استأذن كلاً من والده وزوجتـه وبالطبع والدة (يمـان) وطلب منهم بلطف بالغ المغادرة لأنه متعب، مذكراً إياهم بأن عليه أن يستيقظ باكراً ليسافر في الصباح.

مد يده مصافحاً (يمان) ثم اقترب منها وقال بصوت خافت:

– (يمـان).. كوني حريصة.. وانتبهي جيداً لعمرك القادم.. أرجوك حاولي أن توجدي طريقك بذكاء.

صافحتـه مودعـة بعدما شـعرت بأنـه الصديق الذي قـرأ عنوان تعاستها.

انتهـى حفل العشـاء الفاخر الذي أعدته (يمان) بنفسـها والذي نال إعجاب واستحسـان ذائقة الحضور، اسـتأذن الجميع بالذهاب متمنين للعروسين حياة هانئة وسعيدة .

أغلـق بعدهـا فريد البـاب بعدمـا ودع زواره بابتسـامة مصطنعة كان عبثاً يحاول أن يرسـمها على وجهه المرتجف الوجنة بسـبب تلك الحركـة العصبية التـي كانت ترافقه دائماً في حالـة التوتر، حينها بدأ بالسـباب والشـتيمة والهزأ بكل ما قدمته (يمان) على مائدتها، بل راح يهزأ من ضيوفها المتعجرفين الفارغين المغرورين البرجوازيين على حد تعبيره.

ـ أنا لا أفهم لم تصرّ أمك على إحراجي أمام ضيوفي..؟

ـ أمي؟؟ وما دخلها..؟

ـ نعـم أمـك المحترمة.. تحـاول أن تقلل من قيمتـي أمام معارفي وأصدقائي حتى اصطحبت معها ذلك المتبجح الدكتور حسان..

ـ لا أفهمك.. وكيف تم إحراجك..؟

ـ طبعاً لا تفهمينني وهل أنت بمستوى الحوار والفهم والمناقشة..؟ ما أنت إلا غبية تافهة لا تستطيع فعل أو فهم أي شيء.

ـ أنا لا أسمح لك بإهانتي..

ـ إهانتـك؟ ومن أنت لتسـمحي لي أو لا تسـمحين؟؟ أنا هنا سـيد المنزل وأقول ما يحلو لي.. ولكن كل الحق على أمك الشحيحة.

ـ كفاك إهانات.. لا أسمح لك. يبدو أنك متعب ولا تدرك ما تقول.. أرجوك هدئ من روعك.

حاولـت (يمان) جاهـدة أن تهدئ من ثورة غضبـه التي لم تعرف لها سـبباً رغـم أنها كانت في منتهى اللباقة وحسـن التصرف مع كافة

الضيوف ومعه هو بالذات، ولكنه استمر بالصياح ثم ذهب إلى غرفة النوم وأغلق الباب وراءه بشدة وتركها مذهولة تنظر باتجاه المائدة التي غادرها روّادها بعد أن تركوا الصحون تنطق عن صخب زوار ليلة ضمت معهم الكثير من المتناقضات والمشاعر وأحياناً عدم الانسجام.

أحست حينها بأنها تشبه إلى حد بعيد تلك المائدة المهجورة....!

(26)

ـ لا أصدق.. هل حقاً ما تقولين..؟

ـ أجل ماما وطائرته ستصل غداً صباحاً في تمام الساعة العاشرة والنصف.

ـ يا الله كم اشتقت له!!!

ـ نعم وأنا أيضاً.. لا أصدق أن (طلالاً) ذلك الشاب الخجول الانطوائي الهادئ اختار وبإصرار طريقه ليكمله في دراسة الطب بعيداً عن محيط العائلة وعن رائحة البلد والوطن! لكم أنا معجبة به! ولَكَمْ أحبه.

ـ نعم يا ابنتي والله يوفقه رغم أنني أعاني من بُعده عني.

ذهبت (يمان) ووالدتها إلى المطار بعد أن اعتذر فريد عن الذهاب

معهما بسبب انشغاله في العيادة.. كان الانتظار صعباً بالنسبة لهما خاصة وأن الطائرة تأخرت لأكثر من ساعتين..

وأخيراً هتفت المذيعة تعلن عن وصول الطائرة، فاندفع جميع المنتظرين إلى بوابة القادمين وكلهم شوق وأمل للقاء أحبتهم..

– هاهو ماما هاهو..

– أين؟؟

– هنالك ماما يرتدي قميصاً أزرق اللون.. لقد لَوَّح لنا بيده..آه يا حبيبي كم اشتقت لك.

هرع طلال باتجاه والدته وهمّ بتقبيل يديها ووجنتيها بسيل من القبلات وهو يردد ماما ماما اشتقت إليك، ثم سرعان ما التفت نحو (يمان) قائلاً:

– (يمان) عروستنا الغالية.. لكم أنا سعيد من أجلك.

ثم راح يقبلها بفرح، لم تلحظ كل من (يمان) ووالدتها الفتاة الشقراء التي كانت تقف إلى جوار طلال؛ فلهفتهما منعتهما من ملاحظتها، فما كان إلا أن ابتدر طلال بتقديمها قائلاً:

– أقدم لكما (هيلدا)..زوجتي!!!

كانت الصدمة كبيرة، فقد قدمها طلال بدون أية مقدمات.. كانت هيلدا تلك الزوجة القادمة عبر القارات بمثابة قدر قاسٍ اغتال حلم أم كانت تنتظر بشغف أن تكون أولى الحاضرات في زفاف ابنها.. صعقت فريال بذاك التقديم وسألت باستهجان مترافق بغصة ألم:

ـ زوجتك؟؟

ـ أجل زوجتي وأنا واثق بأنكما سترحبان بها.. هيا هيلدا تعالي وقبلي حماتك.

لم تستطع فريال أن تمنع نفسها من الصراخ محتجة:

ـ كيف حدث هذا..؟ ابتعدي عني أنا لا أريد تقبيل أحد.

حاولت (يمان) تدارك الموقف وبدأت بالترحيب بهيلدا معتذرة عن تصرف أمها.

طوال طريق العودة احتل الوجوم ملامح فريال عوضاً عن الفرح. أما (يمان) فكانت تسترق النظر إلى وجه هيلدا وتتأمله معجبة بذلك الجمال الأوروبي وتقول في نفسها: هل قلت أنا عن أخي طلال شاب خجول انطوائي؟ ثم ابتسمت وهي تبارك له اختياره متأملة أن يكون مصدر سعادة له.

أما طلال فقد انشغل بتعريف معالم الطريق والبلد لهيلدا التي بدت مفتونة وسعيدة لكونها جاءت إلى بلد من بلاد الشرق، تلك البلاد التي قرأت عنها في كتب ألف ليلة وليلة.

وفي اليوم التالي..

ـ ولكن كيف سوّلت لك نفسك أن تفعل هذا بأمك..؟

ـ وماذا فعلت ماما؟؟

ـ ماذا فعلت؟ تزوجت دون أن تأخذ موافقتي و...

قاطعها قائلاً:

– إنها حياتي أنا.. وخيار زواجي ملك لي وحدي.

– وهل المجتمع الأوروبي أفادك بتلك الميزة؟ وأين تربيتنا الشرقية؟ أين تعاليم ديننا الإسلامي؟ ألم تفكر بطريقة تفكير المجتمع والبيئة التي نشأت فيها؟ هل هانت عليك كل سنوات العذاب والتضحية التي قضيتها من أجلك ومن أجل إخوتك حتى تكافئني بزواج من أجنبية؟؟

– ماما مسألة التضحية وسنوات العذاب هذا كان قرارك وخيارك ولذلك لا تحمليني وزر تضحيتك، وأنه يتوجب علي أن أعاملك بالمثل.. أنا ببساطة اخترت حياتي مع المرأة التي أجدها مناسبة لي ولا شأن لسنوات عذابك بهذا أبداً، بل كنت أتوقع أن تكون مفاجأة سارة لك بأن يصبح لديك (كنّة)، أرجوك ماما حاولي أن تتعاملي مع الموقف بعقلانية فالأمر قد تم ، وهيلدا الآن زوجتي وأنا سعيد معها وهي تناسبني تماماً وصدقيني بأنني لم أفكر يوماً بالزواج من فتاة عربية، فأنا لا أجد نفسي منتمياً إلى طرق تفكير الفتاة الشرقية ولذلك فأنا مرتاح لاختياري، وأرجو منك ماما أن تباركي لي زواجي.

قال هذا وأخذ يقبل وجنتيها.. فما كان منها إلا أن قالت:

– حسبي الله ونعم الوكيل..

دخلت عليهما فجأة هيلدا وعلى وجهها ابتسامة مشرقة، ثم قالت لحماتها بلغة عربية ركيكة:

– صباح الخير ماما.. كيف أنت؟؟

جلست بعدها إلى جوارها ممسكة بيدها وقالت لها بطفولة محببة:

ـ هـل تعلمين.. كم كنت أنتظر لحظة لقائي بك، فطلال كان طوال الوقت يحدثنـــي عنك.. هـو يحبك كثيراً وأنا أحببتك لأنه يحبك كل هذا الحب..

ـ هه حقاً؟؟ ولماذا تفعلين ذلك؟؟

ـ بسيطة ماما لأنني أحبه فأنا أحب كل شيء يحبه..

تأملتها قليلاً ثم التفتت إلى طلال قائلة:

ـ أتعلـم طلال أمك جميلة جـدا؟ ولديها ذوق رفيع في اختيار أثاث المنزل وأنا سعيدة جداً لأنك أحضرتني للتعرف عليها.

شعرت فريال بالإطراء وقالت في نفسها:

ـ ليست سيئة هيلدا تلك..! تبدو حقاً لطيفة.

انشــغلت (يمان) فرحــة بزوجة أخيها وراحــت تطلعها على معالم حلب وأماكنها الأثرية، فأخذتها إلى قلعة حلب الشــامخة بعظمتها، تلك القلعة التي جال فيها كل من الحوثيين والآراميين والسلوقيين والرومان والبيزنطييــن، والتــي تعلو أربعيــن متراً عن المدينــة التي تحلقت من حولهــا، وقد فصلها عن القلعة خندق يحيط بكافة جوانبها بعمق ثلاثين متراً، مازالت أســوار تلك القلعة قائمة وأبراجها التي يعود بعضها إلى عصــر نــور الدين زنكي، وبعض أهم أقســامها يعود إلــى عهد الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي سنة 1190م.

وقــد اصطحبت (يمان) هيلدا إلى الأســواق القديمة (المدينة) وإلى

الجامــع الكبيــر؛ ذلك الجامع الــذي أقيم في العهد الأموي ســنة 716 م والــذي يدعى أحياناً بجامع ســيدنا زكريا بســبب دفن قطعة من جســد سيدنا زكريا فيه.

مر أكثر من أســبوع وجــولات (يمان) وهيلدا في شــوارع وأزقة حلب باتت جزءاً من روتينهما اليومي.

كانت هيلدا في حالة إعجاب ممزوج باستغراب كبير خاصة حينما تجولت في سوق (الجديدة)، وتساءلت بدهشة واضحة عن سبب وجود محلات الجزارة والبقالة والخضروات ومحلات السمك جنباً إلى جنب ولا يبتعــد عنها ســوى أمتار قليلــة بائعو الصاغة والذهب والأقمشــة والصوف..!

كان الطقــس ربيعيــاً وســرعان مــا هطلــت أمطار مفاجئــة بللت الأراضــي والناس، عَبَرَتْ كل من هيلدا و(يمان) الشــارع تحت رذاذ المطر وتحت ما تتكرم به المزاريب المتدلية من الأســطح والشرفات، وأخذت هيلدا تســير فوق الوحل الممزوج بقذارة الشــارع وغطســت قدمهــا لأكثر من مرة في برك صغيــرة وكبيرة من ماء مطر قد تجمع بســبب سوء التصريف في المجاري التي غالباً ما كان انسدادها بسبب تلك الأوســاخ الملقاة في الشــارع، مما سبب اتســاخاً واضحاً لحذائها وبنطالهــا الثمينين، ولكنها رغم هذا كانت مســرورة ومنتشــية برائحة المطر التي امتزجت برائحة الخبز الســاخن المنبعث من فرن قد مرت بجواره، مما دفعها للتوقف حتى تتأمل أرغفة الخبز المنتفخة الصغيرة ولم تمنع نفســها من ســحب شــهقة ممزوجة برغبة جامحة لتذوق هذا الخبز الشهي وراحت تردد بعربية مكسرة:

ـ ياي.... ما أجمل شكله.. ولعله شهي أيضاً.!

تعجب الفَرَّان من ذهول تلك الأجنبية الشقراء لمرأى رغيف خبز طازج قد خرج لتوه من الفرن ثم سأل (يمان):

ـ ما بها؟ ألم تر في حياتها رغيف خبز؟؟

ابتسمت (يمان) قائلة:

ـ لا، فهي أجنبية كما ترى، وفي بلادهم لا يباع الخبز ولا يصنع بمثل هذه الطريقة.

ـ ها، الآن فهمت.. هل تسمحين لي بأن أقدم لكما بعض الأرغفة مجاناً

ـ شكراً.. في الحقيقة هذا لطف بالغ منك.

فما كان منه إلا أن أعطى كل واحدة منهما رغيفاً تناولته هيلدا بسرور بعد أن شكرت ذلك الفران بابتسامة ظلّ يتحدث عنها لأهله وأصدقائه لأسابيع طويلة.!

سارتا معاً بعد أن التهمتا رغيف الخبز الساخن وهما تتأملان واجهات المحال..

ـ ألا ترغبين بالعودة إلى المنزل؟؟

ـ لا.. لا.. أنا مسرورة جداً

ـ ولكن ألا يزعجك المطر؟

ـ لا، على الإطلاق

ثم وقفتا معاً تتأملان التحف الشرقية وصناديق الفسيفساء والنجفات والثياب العربية المزركشـــة، تلك التي اعتادت النسوة السوريات على أن يسمينها بـ(الجلابية).

ـ هل ترتدون تلك الثياب في الكرنفالات؟؟

ـ لا.. هـهه... أبداً...الكثير من النســوة يرتدينها في المنزل لسهولة الحركة بها.

ـ ســهولة الحركة..؟ وكيف وهي طويلة تصل إلى الأرض وكذلك أكمامهــا طويلة وعريضـــة؟؟ أنا أعتقد أن ســهولة الحركة بأن ترتدي المرأة سروالاً قصيراً وقميصاً قطنياً خفيفاً وبسيطاً.

ـ هـذا فــي بلادكم.. أما هنا فلا يجوز للمرأة أن تظهر مفاتنها حتى أمام أولادها الشباب أو أبيها وإخوتها.

ـ هل أنت جادة؟؟

ـ نعم كل الجد.

ـ أهي أعرافكم قاسية إلى هذا الحد حتى تمنع المرأة من ارتداء ما يناسبها حتى داخل منزلها؟؟

ـ لا، وإنما هو ما يأمرنا به ديننا، فالحشمة واجبة على المرأة حتى داخل منزلها، وأنا شــخصياً لا أجد في هذا قســوة وإجحافاً بل أجد فيه حكمة وبُعْدَ نظر.

ـ حكمة؟؟ أنت تمزحين ولا شك.. وكيف ذلك؟

ـ عزيزتــي لا مجــال هنا للتحدث عــن حيثيات ومفاهيــم مختلفة

وثقافـات لحضارات وتعاليم دينية مختلفة.. دعينا نسـرع الآن حتى لا يقلق طلال.

ـ لا.. ولكنني أريد أن أفهم.

ـ حسناً.. أنا أعتقد أن من بين الأفكار المتعددة حول هذا الموضوع، ضمـن معتقداتنا وثقافاتنـا، أن فكرة اعتياد المرأة على الحشـمة وهي داخـل منزلها سـتعطيها فكرة التأقلم مـع الحجاب وارتـداء المعطف الطويل بصـورة أكثر مرونة وتقبل وتأقلم، وهـذا بالإضافة على أنها حيـن تتجمل وترتدي الملابس المكشـوفة أمام زوجها وحده سـتجعل كلاً منهما يشـعر بأنها الأنثى الوحيدة على الأرض التي تغمر زوجها بكل أسـاليب الفتنة والإغراء التي تتميز بها حواء.. وسيعطيها هذا ثقة في النفس أكبر وسـتغدو أكثر جمالاً واعتداداً بنفسها، أما هُو فسيغمره الغرور بأن كل هذه المفاتن لم يرها أي رجل في حياته سواه، وسيجعل هذا كلاً منهما يشعر بأنه ملك في ساحة حلاله.

ـ منطـق غريب..! ولكنه جديـر بالتمعن فيه.. يبدو أنني سـأفاجأ كثيراً بمعرفتي لمجتمعاتكم.. وعاداتكم ومفاهيمكم.

(27)

أخذ جرس الباب يرنّ بإلحاح.. هرولت (يمان) مسرعة لفتح الباب بعد أن غسلت يديها على عجل من آثار جلي الصحون، فقد كانت تعد مأدبة صغيرة بمناسبة قدوم طلال وزوجته إلى منزلها، وإذ بفريد على الباب وهو يشتم ويلعن وأخذ بتوبيخها على عدم الإسراع لفتح الباب ودخل إلى المطبخ مسرعاً ليضع بعض الأغراض، وأخذ يلعن تلك المشتريات التي منعه حملها من إخراج مفتاح المنزل من جيبه، مما اضطره لانتظار بليدة مثلها لتفتح له الباب، وخرج بعدها باتجاه غرفة الجلوس ليشعل سيجارة بعد أن تهالك بتعب على الأريكة.

صدمت المسكينة من كلماته ومن طريقته ووقفت في وسط المطبخ لا تدري أي كائن بشري هذا الذي تعيش معه..

تبعتــه إلى غرفــة الجلوس لتعتــرض على طريقــة معاملته الجلفة الفظة:

ـ فريد استمع لي جيداً، أنا لا أسمح لك بـ..

ـ ماذا..؟ لا تسـمحين لي..؟ ومن تعتقدين نفسـك حتى تسمحي أو لا تسمحي؟

ـ كيف..؟ ألسـت زوجتك؟؟ أليس لي حق حسن المعاملة..؟ لم هذه الزوبعة وهذه المشكلة لمجرد أنني ولو فرضاً تأخرت بفتح الباب..؟

ـ هيا.. هـيا اغربي عن وجهي فأنت لا تدركين ما تفعلين، أنسـيت البارحة تجاهلك وتجاوزك لوجودي؟؟

ـ وماذا فعلت البارحة..؟

ـ حين كنا في المطعم وسقطت الشوكة من يدك وطلبت من النادل أن يحضر لك شوكة أخرى.

ـ وبعد؟؟

ـ كيف وبعد..؟ كيف تسـمحين لنفسـك أن تتجاهلـي وجودي أمام النادل وتطلبين أنت منه..؟ ألست أنا الرجل الذي يجلس أمامك؟

ـ هل أنت جاد حقاً فيما تقول..؟

ـ طبعـاً هذا منتهى الامتهان لكرامتـي ولوجودي كرجل... أنا في الحقيقة أجد منك تصرفات تنم عن قلة اعتبار لزوجك.. فمثلاً الأسبوع الماضـي عندما عدنا من زيارتنا وجلسـنا في سـيارة الأجرة وطلبت

من السـائق أن يخفض صوت المذيـاع لأن لديك صداعاً لقد تصرفت وكأنني لا أجلـس إلى جوارك، لا بل أكثر من هذا طلبت منه أيضاً أن يغلق النافذة التي إلى جواره لأنك تشعرين بالبرد...

– أنا.. لا أصدق ما أسمع..! وماذا في كل هذا؟ هل نحن في عصر الجواري..؟ أليس مسموحاً للمرأة بالتحدث إلى رجل غريب.. أنسـيت أنني امرأة حاصلة على شهادة جامعية وأنني من بيئة منفتحة وأنني إذا ما كنت تذكر كنت أعمل كمهندسة زراعية وأن لي حضوري وكياني في المجتمع كامرأة عاملة.. وأنت.. أنت رجل متعلم.. جامعي.. طبيب.

أم أنني اليـوم ودون أن أدري أجد نفسي تحت إمرة رجل رجعي لا يحـق لـي الكلام أمامه أو الاعتراض أو التعبير عـن ذاتي أو عما يضايقني أو يزعجني..؟؟ كان عليك يا عزيزي أن تتـزوج بامرأة مختلفـة ومن بيئة متخلفة لا تعترف بالمرأة كائناً حراً بل كائناً تابعاً أو مأجوراً لا يحق لها التعبير أو الكلام.. بل لا يحق لها أن يكون لها زمام المبادرة بطلب أبسـط الأمور.. يا إلهي لا أصدق ما يجري أمامي! هل أنا مجند أمام ضابط عليه تنفيذ كل أوامره...؟!

– كفـى.. كفـى.. لا أرغب بالجدال معك فأنا متعب وأرغب في النوم.

– ولكن.. أنا لم أُنْـهِ حديثي بعد..

– وأنـا قلت لك أريد أن أنام. ألا تفهمين..؟ اغربي عن وجهي أريد أن أسـتلقي قليلاً على الأريكـة هنا، وحاولـي ألا تزعجيني بأصوات الطناجر والملاعق.

قال هذا بعد أن رمى بمنفضة السجائر بكل قوة على الأرض وعيناه تشتعلان بحمرة الغضب.

خرجت (يمان) من الغرفة ودموعها تسبقها حائرة مما رأت ومما سمعت.

دخلت غرفة النوم.. استلقت على الفراش البارد صامتة تفكر:

ـ لماذا يعاملني بمثل هذه المعاملة..؟ ماذا فعلت له..؟ هل هو حقاً كذلك..؟ كيف لم ألحظ بأنه متخلف ورجعي لهذه الدرجة..؟ كيف لم أكتشف مدى تشابهه وتطابقه بشخصية الـ (سي السيد)..؟ هل يجدني حقاً تابعة له..؟

أخذت تتذكر ازدواجيته في التصرفات وكيف كان يسعى جاهداً ليبدو أمام الآخرين بأنه ملمٌّ بكل القواعد السلوكية الحضارية؟ وكيف أنه أمام أصدقائه يحاول أن يكون (جنتلماناً) حقيقياً ولا يتوانى للحظة عن مساعدتها في خلع معطفها أو أن يسحب لها الكرسي لتجلس عليه، وأن يبقى واقفاً لحين الاطمئنان على جلوسها.؟ أو أن ينسى ولو لمرة أن يسألها إن كانت ترغب بقليل من الماء أو بإضافة قليل من الثلج لكأس العصير.. أو بإحضار أي شيء ترغبه؟ وقارنت تصرفاته تلك بتصرفاته حينما يكونان معاً وحدهما في أي مطعم، فقد كان يجلس قبل أن تجلس هي إلى المنضدة ولا يهتم أبداً حينما تهم بخلع معطفها، بل ويطلب الطعام والمقبلات بدون أن يسألها إن كانت ترغب بشيء محدد.. راعتها تلك الازدواجية وأحست بقلق حقيقي وراحت تتساءل: هل يمكن أن يكون مريضاً بـ(الشيزوفرينيا).؟ هل هو حقاً مصاب بانفصام الشخصية؟

بدأت تقارن تصرفاته معها وطريقة معاملته بأخيها طلال وطريقة معاملته لزوجته، وتساءلت عن سبب ذلك الاختلاف الكبير.. ترى هل زواج طلال من أجنبية يجبره على أن يخلع عنه رداء الرجل الشرقي المتسلط الآمر الناهي في أحيان كثيرة؟؟ أم أن الحب هو السبب في رُقِيِّ تلك المعاملة التي كانت تحظى بها زوجة أخيها؟

هل يستطيع حقاً أن ينتزع نفسه من انتماء أعماقه لمفاهيم تمنح الرجل الشرقي حقوقاً قد لا تتفهمها الحضارات الأخرى؟؟

أم أن الحب المتبادل هو الدافع الأول لفهم واحترام الطرف الآخر؟؟ وأن ما بين الرجل وزوجته حقيقة واحدة لا تشكلها مفاهيم ثقافات أو موروثات، إنما هي تلك الحقيقة المتشكلة من عمق المشاعر وصدق الأحاسيس وشدة الرغبة بحياة مشتركة أساسها الحب والاحترام..؟

ترى هل زواج الرجل الشرقي من أجنبية يجعله يخشى تلك المسافة الحضارية الشاسعة بين موروثاتنا الثقافية مما يدفعه لارتداء قناع تفهمها واحترام رغباتها، بل وجعلها تبدو وكأنها رغباته هو أيضاً؟؟

وعندما لم تجد الإجابة أو لعلها لم تكن تريد فعلاً أن تجدها قررت وبعد تفكير طويل أن تصبر على أخلاق فريد الشرسة لعله يتغير بالتدريج بعد أن يدرك قيمة أن تكون إلى جانبه زوجة صابرة، سحبت تنهيدة طويلة ثم دخلت مرة أخرى المطبخ لتنهي تحضيرها للعشاء بعد أن أقنعت نفسها أنه لا يجوز أن تحكم على زوجها بهذه الطريقة، وأن من واجبها كزوجة أن تصبر وتتأقلم مع أخلاقه قائلة في نفسها:

– علي أن أتجاوز ما حدث الآن كي لا أفسد العشاء على أخي وزوجته.

بعد العشاء جلسوا للتحاور:

– هل أحببتِ قلعة حلب؟

– نعم إنها رائعة حقاً.. قرأت عنها ولكنني لم أتوقع أنها بهذا الحجم الضخم، إنها حقاً شامخة.

أردفت (يمان) قائلة:

– آه كم أحب ذاك الدَّرَجَ الطويل المؤدي إليها وأروع ما فيها أنها تقع في وسط المدينة وتستطيع أن تلحظ شموخها وبهاءها من كل الأمكنة العالية في كل أنحاء المدينة! وأشد ما يذهلني هو ذلك الخندق المحيط بها والذي اكتسى اليوم بتلك الحلة الخضراء فبدت كأميرة ترتدي ثوباً أخضر متوَّجة بأسوار القلعة ذات الحجارة الصفراء فأضفت عليها ألق الماضي وعظمته.

– هل صحيح أن المياه كانت تملأ ذلك الخندق في السابق؟؟

سألت هيلدا.

– نعم يا زوجتي الحبيبة، أنا كثيراً ما كنت أشعر بالزهو وأنا أصعد على درجات ذلك الدرج الطويل، وأتخيل نفسي بطلاً أو فارساً من فرسان أجدادنا البواسل وهم يصعدون الدرج لتستقبلهم زوجاتهم بأكاليل الغار، وحتى أنني تخيلت نفسي ملكاً حينما ولجت قاعة عرش الملك و..

– على رِسْلِك أيها الملك.. لا تشطح بخيالك هكذا وإلا أدخلتك السجن الرهيب في القلعة (حبس الدم)..

قال فريد هذا ضاحكاً، وبعد أن أتبع قوله بسؤال وجَّهه إلى هيلدا:

– لم تقولي لي هيلدا كيف وجدت اليوم المتحف؟

– في الحقيقة أنا استمتعت كثيراً، فأنا أحب المتاحف.

– أما أنا فأخشاها.

– هل أنت جادة (يمان)؟ ولماذا؟

– في الحقيقة أنا أعتبر أن المتاحف في العموم تلعب مع الأبدية لعبة المنهزم.

– وكيف ذلك؟

– في الحقيقة أشعر بأنها تحاول بكل ما فيها أن تسجن الأزمنة داخل خوذة ربما أو في جرة مكسورة أو سلاح أصابه الصدأ، وهي في كل هذا تبدو مهزومة أمام طوفان الأبدية.

– يا الله أكملي

– كما أنني أشعر عندما أدخل المتحف وكأنني أدخل مقبرة تعرض جثث الحضارات المتعاقبة، وعندما أنظر إلى تلك التماثيل أشعر بها تحدق بنا بعيون تدعونا بها إلى موت قادم..

– وماذا أيضاً أيتها المتفلسفة دائماً؟؟

قال هذا فريد بعد أن سمع حوارها مع أخيها وقد أخذ ينفث دخان سجائره وهو يتأمل وجه هيلدا الجميل.

– في الواقع كثيراً ما قلت في نفسي بأن الإنسان خلق من صلصال،

ولا أعلم لم كلما دخلت المتحف أياً كان وفي أي بلد من العالم راودتني حينها فكرة بأن المجتمع البشري عبارة عن تماثيل فخارية.

فــي متحـف الحياة لكل منها تعبيـر يرافقها.. فهنالــك الوجوه التي تعبر عن الفرح..الحزن..اليأس..الأمل.. الغضب..الاستسلام.. الجبن.. الشــجاعة.. الانهزام.. النصر.. الذكاء.. الغبــاء.. القلق.. الاطمئنان... القسوة.. الحنان.. الجشع.. الإيثار..ال

– بالله عليك كفى. هل ستَسْرُدين لنا كل المفردات ونقيض معانيها؟!

ضحك الجميع من تعليق طلال.. وأضاف قائلاً:

– علــى كل أنا أوافقك. فما نحن في الحقيقة إلا تماثيل متحركة من صلصال؛ أعجبني هذا كثيراً وسأشرح ما قلته لهيلدا.

– نعم اشــرح لها ولا تنسَ أن تضيف بأن كل الأوابد التاريخية لها لغة واحدة هي لغة الأطلال ولون واحد هو لون رمل الزمن.

وبعد أن شرح طلال لهيلدا كل ما قالته أخته التفتت إليها بذهول:

– أنــت رائعة (يمــان) لم يصادف بأن التقيت بفتاة عربية بمثل هذه التأملات..

أما فريد فقد شارك بالحوار قائلاً:

– أنــا برأيــي أن أروع ما في المتحف أنك تســتطيع أن تقف وجهاً لوجه أمام تمثال أو مومياء لملك راحل، وأن تنظر إليه بجرأة، لا، وبل باستطاعتك أن تشتمه دون أن يعتقلك أحد أو أن يتهمك بتهمة الشروع في القتل.

ضحك الجميع موافقاً..

أما طلال فقد قال:

ـ أما أنا برأيي كل هذه التماثيل ما هي إلا رموز لأجساد استنزفتها الأيام وتحللت مع الزمن وتحلل معها مجدها، وإن ذلك السعي البائس للتحنيط ما هو إلا محاولة واهمة للخلود وانهزام الفناء.

ـ ولكن أتراها نجحت في الحقيقة..؟ فهاهي عبر القرون واقفة أمامنا وكأنها تستعيد حياتها وأمجادها بمرورنا أمامها وجدالنا عنها.

التفتت هيلدا سائلة (يمان):

ـ ولكن قولي لي ماذا تعملين؟؟ أقصد ما هي مهنتك؟؟

قالت هيلدا هذا بعد أن انتهت من صحن الكبة الذي التهمته بكل نهم وإعجاب.

استغربت (يمان) وتساءلت:

ـ ألم يقل لك يوماً أخي ماذا أعمل؟

استدرك طلال قائلاً:

ـ في الحقيقة كانت أوقاتنا لنا وحدنا.. وكل الأحاديث كانت عنا وحدنا.. أجل، فنحن عاشقان أنانيان.. ماذا ستفعلين يا شقيقتي؟! هذه هي أنانية المحبين يحتكرون كل أوقاتهم لأنفسهم. هزت (يمان) رأسها وابتسمت بحزن وأجابت:

ـ أنا في الحقيقة مهندسة زراعية ولدي متجر صغير أستنبت فيه

أنواعـــاً من النباتـــات والأزهار، فأنا أحب كثيـــراً الأزهار وأجدها لغة الحياة.

– فقط؟؟

– وماذا تقصدين بـ فقط؟؟

– أقصد أن الأزهار تحمل لغة الموت أيضاً.

– لغة الموت؟ وكيف ذلك؟

– ألا تهـدى للأموات أيضـــاً؟؟ ألا تحمل فوق النعش وتوضع على القبور؟

– معك حق.. هـي كذلك أيضاً.

– أتعلمين شيئاً (يمان) أنا أحترم كثيراً من يتأمل.

– في الحقيقة ما التأمل إلا التعمق أكثر في أسـئلتنا، والدنيا بأسرها أكبر مدعاة للتأمل وأكبر سـؤال.. أحياناً كثيرة أتسـاءل عن ذلك اللغز الكبير الذي ألقى بنا في سجن الحياة.

– سجن الحياة؟

– أجل هو كذلك وهو السجن الوحيد الذي نخشى مغادرته، بل حتى أننا لا نرغب بمغادرته أبـداً.. ولماذا؟؟ أترانا نرغب بالخلود ولماذا؟؟ إذا كانت كل الأشـياء التـي ننالها تكون في النهايـة أقرب إلى الزوال وحصولنـا على مـا نرغب ما هو إلا إعلان صريـح على انتهائنا منه فعليا وفقدان أَلَقِ هاجس الحصول عليه.

ـ أنـا أعتقد أن هنالـك تواطؤاً أبدياً بين ضلال الإنســان ورغباته يؤدي إلى صراع حقيقي بين ما يعرفه وما يجهله.

ـ ولكن لماذا نظرت إلى الحياة كسجن؟ تساءلت هيلدا باستغراب.

أما طلال فقد آلمه بشــدة أن تعتبر أخته الحياة ســجناً وتبادل نظرة أسف وحزن مع زوجته.

ـ أرجوكما كفاكما. لقد ضقت ذرعاً بأحاديثكما الجدلية، ما همنا من كل هذه التأملات والتساؤلات؟؟

قــال فريد هــذا ومضى إلى التلفاز ثم أداره وأخــذ يترنم بأغنية لأم كلثوم. ثم التفت إلى هيلدا سائلاً إياها:

ـ هل تحبين الموسيقى العربية؟

ـ آه.. نعم كثيراً

ـ وماذا عن الرقص الشرقي؟؟

ـ أحبه ولكنني لا أعلم كيف أؤديه.

ـ هل ترغبين بتعليمك إياه؟

ـ بالتأكيد.

ـ حسناً..انظري إلي جيداً وتأملي حركاتي.

ومضـــى يرقص ويهز وســطه كالنســاء، بدا واضحــاً لطلال بأن زوج أخته قد أســرف في الشرب والتفت إلى أخته ليراها في حالة من

الارتبـــاك والخجل من التصرف غير الناضج الذي قام به زوجها، فما كان مـــن طلال إلا أن أنقذها مـــن ذلك الحرج بأن صفق كثيراً لفريد ثم طلب منه الجلوس خشية أن يقع أرضاً وسط ضحكات هيلدا.

ثم مال برأسه وسأل (يمان):

– هل هو دائماً يشرب بمثل هذا الشكل؟

– للأســف يا طــلال رغم أنني أمقت الشــراب وهو ضـــد مبادئي وتعاليم ديننا ولكنه لا يأبه لهذا أبداً ويتهمني دائماً بالرجعية.

– لا بــأس حاولـــي بالتدريج أن يترك هذه العادة الســيئة، ولعل الله يهديه. الغريب في الأمر أن هيلدا ومع أنها أجنبية ولكنها حالما أعلنت إســلامها من أجلي امتنعت عن الخمر، وهي الآن تفاجأ بفريد المســلم وهو يشرب الخمر هكذا دون أي رادع ديني، حاولي (يمان) معه، فهذا خطر عليه.

هزت (يمان) رأســها وهي تفكر أثناء نقلهــا للصحون إلى المطبخ بأن الخطر الحقيقي الذي يداهم الإنســـان هو وقوعه بين فكي ما يجهله عن نفسه وما يعرفه حقيقة عنها ويخفيه جاهداً عن الآخرين.

(28)

قررت (يمان) أن تعود إلى عملها بعد طول انقطاع دام عدة أشهر، وبعـد زيارة قامت بها لوالدتها دار فيها حديث راحت تلمّح فيه والدتها عن اســتغرابها لمكوث (يمان) في المنزل رغم إصرارها السابق على العمل، وكان هذا بعد أن روت لها (يمان) حديث الســهرة التي دار في بيتها أثناء العشــاء، وبعد أن أبدت هيلدا اســتغرابها واستهجانها لتوقف (يمــان) عن العمل، ســارت عائدة لمنزلهــا كعادتها حين تجد نفســها ملاحقة بالأفكار.. راقبت الوجوه أيضاً كعادتها الســابقة، وهنا ابتسمت وهي تتساءل:

ـ ترى هل يمكن لتعبير وجهي أن يسترعي انتباه أحد المارة بحيث يقــرأ ما فيه من حــزن وخيبة.. وأمــل ورغبة.. وحــب للحياة ورغبة بالموت.. الحاجــة للبكاء..الحاجة للضحك.. هل يمكن لكل التناقضات

التي بدأت أعيشـــها بقوة أن تعتلي أمائر وجهـــي..! ترى أي تمثال من صلصال أنا؟

تمنت لو أنها تســتطيع أن تنفصل عن جســدها حتى تتاح لها رؤية وجهها.

دخلــت المنزل وكلها شــعور بالانتعاش لقرارهـــا، فوجدت (فريد) جالسًــا يرقب في التلفاز مباراة لكرة القدم باهتمام، فجلست إلى جواره محاولــة أن تشــاركه الحمــاس.. وبعــد التصفيق والصياح المشــترك لأهداف خائبة أو محققة انتهت المباراة فاســتغلت (يمان) نشــوة الفرح لانتصار الفريق الذي كان يشجعه وابتدرت قائلة:

ـ أتعلم شيئاً فريد..؟ لقد اشتقت لمزروعاتي وللأزهار ولكل الورود التي في المنزل الزجاجي، ولذلك قررت أن أعود للعمل و..

ـ ماذا.. ماذا قلت..؟ تعودين للعمل..؟ مستحيل.

ـ كيف مستحيل؟؟ وما المانع..؟

ـ المانع هو أنني ضد المبدأ

ـ ضد المبدأ..؟ وما دخلك أنت..؟

ـ أعيدي ما قلت.. ما دخلي أنا..؟ أنسيت أنني زوجك وأنا المسؤول عنك وفي يدي أنا وحدي كل القرارات المتعلقة بك.

ـ ولكن هذا عملي وأنت كنت تعلم سابقاً بأنني أعمل.

ـ أنت قلتها.. سابقاً

ـ وما الاختلاف بين الحالي والسـابق..؟ أنا أحب عملي وأريد أن أتابعه.

ـ وأنا أمنعك.

ـ تمنعني..؟ هكذا بكل بساطة..؟!

ـ أجل

ـ ولكـن فريـد فكر قليلاً، أنت فـي كل مرة تزيد الهـوة التي بيننا باختلاق مشـاكل تافهة أو كبيرة.. أرجوك حـاول أن تكون أكثر تفهماً وأكثر حناناً واهتماماً.

ـ أنا قلت الذي يناسبني، ثم وما الفائدة من عملك..؟ الأجدر بك أن تبيعي هذا المنزل الزجاجي كي لا تتعرضي للرمي بحجارة الناس.

ـ ماذا تقصد؟؟

ـ أقصـد أنك امرأة متزوجة ومن البديهي أن تلتفتي لأمور المنزل وأن تسعي لراحة زوجك عوضاً عن الاهتمام بذلك المنزل الزجاجي

ـ ولكنني أعتقد جيداً أني لم أقصر بواجبي

ـ هه وماذا عن الإنجاب..؟ ألم تفكري بالإنجاب؟

ـ الإنجاب..؟

ـ نعم الإنجاب. أم أنك غير مهتمة لدور الأمومة في حياتك..؟

سكتت قليلاً ثم رفعت رأسها مبتسمة وهي تقول:

– هل أنت حقاً راغب بالإنجاب مني أنا..؟

– ولماذا تعتقدين خلاف ذلك؟

– لأنك.. لأنك لا تقترب مني إلا نادراً.. ولم تشعرني يوماً برغبتك هذه

– كل الذي أعرفه أنه حان الوقت.!

أطرقت (يمان) تبتسم بعدما أنعشتها فكرة الإنجاب لسببين: أولهما أنها ترغب بشدة أن تكون أماً، وثانيهما أن رغبة فريد بالإنجاب منها مؤشر لرغبته بالاستمرار معها أي دليل على ارتباطه فعلياً بها، وأن ما تراه وتشعره من إهمال تجاهها ما هو إلا سلوك خاص منوط به، وعليها أن تتفهمه وتتأقلم معه.

(29)

ـ أجل ماما.. للأسف مرّ الوقت سريعاً وعلينا العودة كي أحضر لامتحاناتي القادمة.

ـ ولكن.. ألا تستطيع أن تبقى لفترة أطول؟

ـ لا للأسف

ـ أخشى ألا أراك في المرة القادمة

ـ لا تقولي هذا ماما أطال الله عمرك.

وأخذ طلال يقبل أمه حاضناً إياها بحب، ثم التفت سائلاً:

ـ ماما هل تسمحين لي بسؤال يلح علي ولن أستطيع بعد اليوم أن أكتمه؟

– وما هو؟

– كيف قبلت بأن تزوجي (يمان) الرقيقة لفريد؟

سحبت تنهيدة ثم سألته:

– وما سبب تساؤلك؟

– ألا توافقين معي أنه لا يليق بها ألبتة؟

– لا.. لا، أوافقك، فهو رجل ناضج وطموح وعقلاني، وهي بحاجة إلى رجل مثله كي ينقذها من أحلامها.

– ولكنني لاحظت أنها ليست سعيدة

– أعتقد أنها حالما ترزق بطفل ستصبح أكثر سعادة

– أتمنى ذلك من كل قلبي. وماذا عن هالة؟؟ لم تتمكن من القدوم إلى حلب كي تراني وتتعرف على هيلدا؟

– آه هالة الغالية كم اشتقت لها..؟! هي يا حبيبي لن تتمكن من القدوم بسبب تلك الاتصالات المشبوهة لزوجها مع جماعات مخربة أرادت الشر وأثارت الفتنة والشغب في بلادنا كما تعلم

– ولكن هو لم يتعامل معهم أبداً

– أعلم ذلك جيداً.. هو مجرد صديق قديم لهم ولكنه يخشى العودة حتى لا يقع في براثن الفتنة مجدداً.

– ولكن الأمور الآن مستقرة والبلاد والحمد لله في هدوء تام، فما الذي يخشاه؟

– لا أعلم.. لعنة الله على كل العقول الشريرة التي تدير الفتن في

بلادنا.. لم نحصد إلا التخريب والدمار النفسي والقلق والرعب.

– صدقت يا أمي لو تعلمين كم كنت قلقاً وخائفاً عليكم عندما سمعت بكل تلك المشاغبات والتفجيرات العشوائية! قاتل الله كل من يعبث بأمن البلاد..

أتعلمين شيئاً؟؟ لقد قمت بالكشف على أحد ضحايا هذه التفجيرات، هو محام بارع كان متجهاً إلى عمله لمتابعة إحدى القضايا، والمسكين صادفه سوء الطالع وبسبب ذلك التفجير فَقَدَ البصر نهائياً

– ولكن أنت كنت في فرنسا فكيف كشفت عليه؟

– لقد جاء بصحبة زوجته راجياً أن يجد العلاج في فرنسا بعد أن فقد الأمل به نهائياً في حلب، ولكن للأسف لم نتمكن من مساعدته ولكنه بقي رابط الجأش محتسباً لأمر الله وقضائه، أما زوجته فقد أرعبها ذلك القدر وأصابها هلع حقيقي من كونها ستبقى أسيرة لرجل ضرير.

حتى جاءتني مستفسرة عما إذا كان الأمل حقاً معدوماً. ولكم حزنت حينها للهفتها والتي ظننت أن سببها الحب والحزن على مصير زوجها التعس! ولكنني للأسف صدمت حين عرفت أنها وبعد أن تأكدت مني باستحالة الشفاء طلبت الطلاق من زوجها حالما عادا معاً إلى حلب.

– وكيف عرفت ذلك؟

– في الحقيقة أنا أحببت ذلك المحامي، لما في شخصيته من اتزان وحكمة وصبر، وبقيت على اتصال هاتفي به لأطمئن عليه من وقت لآخر، خاصة وأنه ابن بلدي ورأيت أنه من الواجب أن أطمئن عليه بين فترة وأخرى وأسأله عن أخباره.

وفي إحدى المرات سألته عن زوجته فأخبرني بأنه انفصل عنها إذعاناً لرغبتها.

ـ المسكين.. أعانه الله على مصيبته.

ـ المهم الآن قولي لي: هل هالة سعيدة؟

ـ إنها سعيدة لدرجة كافية تنسى معها أن تخابرني بين حين وآخر.

ـ هكذا هي هالة دائماً.. لا تعترف إلا بنفسها على عكس (يمان) تنسى ذاتها في سبيل غيرها

ـ لا تكن قاسياً عليها هكذا

ـ لماذا تعتبرين الصراحة قسوة؟؟ ألا تعترفين معي أن هنالك فارقاً شاسعاً بين (يمان) وهالة؟؟

أطرقت فريال قليلاً ثم همست قائلة:

ـ نعم.. أعترف بذلك.

ـ أتعلمين شيئاً ماما؟ أنا أحياناً أشعر بأن لـ(يمان) فضلاً كبيراً علي وأنني لابد وأن أرد لها الجميل يوماً.

مرت سنتان على سفر طلال وعلى زواج بارد إلا من بعض نار الخلافات والاعتراضات التي كان فريد يتعمدها؛ حيث كثيراً ما كان يدخل المنزل مقطب الجبين عابس الوجه.

وذات يوم رجع فيه إلى البيت على غير وقته عائداً من العيادة

– أهلاً حبيبي.. عدت باكراً هذه الليلة

قالـت هذا بعد أن أخذت من يده حقيبته الطبية وبعد أن طبعت على وجنته قبلة كعادتها حين يدخل.

– ألن ننتهي من هذه الحركات؟؟

– أي حركات..؟

– حركاتك المسرحية تلك.

– حركاتي المسرحية..؟ ماذا تقصد؟

– تلك القبلة التي تسـتقبلينني بها في كل مرة أعود فيها إلى المنزل أو تلك التي تمنحيها لي قبل النوم.. أنا بصراحة لا أحب تلك الادعاءات والطقوس الفارغة

– ادعــاءات..؟ هل عندما تسـتقبل الزوجة زوجها بابتسـامة وقبلة تكون ادعاءات وحركات مسرحية..؟

– أجل، أنا أراها كذلك فأعفني منها لأنني في الحقيقة بدأت أضجر من تلك السخافة.

قــال هذا ودخل إلى غرفة النوم وخلع ثيابه ببطء شـديد واندس في الفـراش متناسـياً وجودها، وراحــت ترقبه من بين غلالــة الدمع التي حاولت أن تخفيها عنه وسط ذهولها وصدمتها وسألته قائلة:

– ولكن ما بك؟ ألن تأكل مثلاً..؟ ألن تتناول العشاء..؟

– لا

– ولماذا؟ هل أنت مريض أو تشـعر بتوعك..؟ قل لي هل أستطيع أن أفعل لك شيئاً..؟

– كفـى.. كفى.. من أجل الإلـه حلّي عني.. دعيني.. ألا يوجد لديك إحساس أنت أبداً..؟ حقاً أنت إنسانة لحوحة تثيرين الغضب..

قال هذا وأغلق وراءه باب غرفة النوم بقوة.

دائماً ينجح بأن يتركها وسط ذهولها وخيبتها و.. دموعها..!

خرجـت إلى الشـرفة تبكي.. هل اسـتطاع أن ينسـى حقـاً ذكرى زواجهما؟

كيف لم يلحظ تلك الشـموع المشـتعلة..؟ كيف لم يـراع أية التفاتة لتلـك المائدة الصغيرة التي حضّرتها.. مائدة تتسـع لاثنين فقط وقريباً سـيصبحان ثلاثة.. أجل ثلاثة.. لقـد أرادت أن تقدم له هدية مميزة في ذكـرى زواجهما حاولت جاهدة أن تخبئها لهذه الليلة، فهي تحمل جنيناً يفترض أن يكون امتداداً لهما .. لاثنين من المفترض أن يكونان روحاً واحـدة بعد أن لفهما أروع رباط هو الرباط المقدس.. رباط ومقدس؟.. ضحكت بمرارة قائلة لنفسها:

رباط ومقدس..؟ كيف يمكن للقيد أن يكون مقدساً..؟؟ بل كيف يمكن للزواج أن يكون رباطاً..؟

هـل يجـب أن يكون الزواج قيـداً يحد من حرية الإنسـان في حقه باعترافـه بذاته..؟ هـل محرم عليه أن يكون من الشـفافية والصراحة بشـكل يسمح له بالاندماج مع الآخر مع الاحتفاظ بكامل حقه بأن يبقى هو كما يريد دون أن يغير من حقيقة تكوينه بشـكل يشوه معه صورته

أمـــام ذاته من أجل إرضاء الآخـــر..؟ وهل من الصعب أن يكون قادراً على أن يحمل القدر الكافي من احترام رغبات وكينونة الطرف الآخر.. وأن يتقبل الآخر كما هو بحب وتفهم؟

الطرف الآخر..؟ نعم في النهاية هو طرف آخر..! علينا الاعتراف بذلك.

هزت رأســها وهــي تردد.. آخر..آخــر. وعيناهــا ترقبان تراقص شموع مشتعلة.. ما لبثت أن أطفأتها بزفرة تنهيدة.

مضت الأيام والشهر كسابقاتها، اللهم إلا من فرح العائلة وفريد بنبأ حمل (يمان) الذي كثيراً ما سبَّبَ لها حالات توعك بسبب الوحام.

(30)

ـ يـا للسـماء.. يـا للحظ العاثـر.. ألا يكفـي أنها أنثـى..؟ ومعاقة أيضاً..؟

قـال فريد هذا بعد أن صرّح له صديقه الطبيب بجزم تام عن حقيقة الحالـة التي تعاني منها ابنتـه (هبة)، ألا وهـي المنغولية أو متلازمة داون.

ـ يـا إلهـي.. عونـك ورحمتـك يـا الله.. ابنتـي الحبيبة أيـة حياة بانتظارك..؟

أي مستقبل سيكون إلى جانبك؟

أخذتها وضمتها إلى صدرها وهي تشهق بالبكاء.

– هدئي من روعك سيدتي.. وحد الله يا رجل..إنه ابتلاء.. أرجو منكما الرضا بقضاء الله، وأن تحاولا أن تتكاتفا معاً من أجل العناية بها، فالمسكينة يلزمها الكثير من الرعاية والدعم المعنوي، وعليكما أن تواجهان الواقع بقوة.

التفت فريد بغضب ونظر إلى زوجته الباكية وإلى وجه طفلته وقال:

– ابتلاء..؟ أنت قلت هي حقاً بلاء وليس مجرد ابتلاء.. يا للحظ..!

عادا معاً إلى المنزل دون أن يتفوها بكلمة واحدة.. كان الصمت هو حوارهما الوحيد والذي رافقته تلك التيارات الباردة التي اصطحبها الهواء المشحون بجليد اللحظة.. لحظة موت الحلم الوحيد المشترك بينهما.

دخلت (يمان) غرفة ابنتها وراحت تتأملها بحزن، وتذكرت كيف لفت نظرها ميلان عينيها، ذلك الميلان العرضي في شق العين مع تلك السماكة في الجلد الزائد في الزاوية الداخلية للعين، وكم كانت تتساءل: لم جاءت عينا ابنتها على هذه الصورة؟

وكيف أنها لم تعر هذا اهتماماً واضحاً في نفسها؟ إلا أنها حين كانت ذات يوم تقبل راحة ابنتها لفت انتباهها أن راحة كفها لا تحمل إلا طيّة واحدة، وعندما انتابها القلق راحت تفتش في كل مساحات جسدها الصغير وهي تحاول يائسة أن تثبت لنفسها بأنها مخطئة في شكوكها، ولكنها صدمت حين وجدت كبر المسافة بين إصبع القدم الكبرى وبين

الإصبع الذي يليه.. تأملتها جيداً فلمسـت ولأول مرة كِبَر رأس ابنتها وقصر عنقها، وحينها فقط بدأت تعرف سبب ارتخاء مفاصلها.. وسبب بروز لسانها طوال الوقت، وخافت أكثر حين لاحظت بوضوح ضعف سـمع ابنتها وضعف استجابتها مما دعاها لأن تتحقق من شكوكها عن طريق زوجها الطبيب فريد الذي وبسـبب انشـغاله الدائم وعدم قضاء الوقـت الكافي معها، اللهـم إلا لدقائق معـدودة كان أحياناً يجامل فيها زوجتـه أمام الآخرين، وبسـبب عـدم اكتراثه بـ(هبة) لأنهـا المولودة الأنثى التي خيبت أمله بالحصول على مولود ذكر يحمل اسـم أبيه، فلم يلحظ أية إشارة من تلك الإشارات التي لاحظتها (يمان) رغم كونه هو الطبيب.!

واليوم فقط تأكدت من شكوكها.. بعدما أبلغها طبيب الأطفال بذلك.

راحت تبكي بتشنج واضح وبآهات عالية الصدى وفريد في الغرفة الأخـرى ينفث دخان سـجائره بحنق على القدر، وهو يسـتمع لبكائها ونحيبها بتجاهل متعمد.

أخـذت المسـافة بينهما تتباعد وتكبر يوماً بعـد يوم. كانت الصدمة كبيـرة، أكبـر من أن تناقش أو أن يحتملها فريـد، فزوجته التي أنجبت أنثى أولاً ومعاقة على حد تعبيره ثانياً كان هذا أكبر مما يحتمله غروره ونرجسـيته، مما دفعه للشـعور بالكثير من الحقد والكره تجاهها وبدت لـه كزوجة لم تحقق له طموحاته أو أطماعه المرجوة والتي بنى عليها أحلاماً وآمالاً عريضة..

لم تسـتطع يوماً أن تدرك (يمان) سـبب معاملته القاسية لها وسبب إهماله.

حاولت كثيراً أن تفهم سبب رفضه لكل ما تقدمه من حب وعطاء..

خاصة وأنه قد أوضح لها وبصراحة عن عدم استعداده لرعاية ابنته تلك المعاقة كما كان ينعتها دائماً..

- اسمها (هبة).. حرام عليك..إنها ابنتك.. من لحمك ودمك

- أجل ابنتي والتي بسببك جاءت معاقة

- بسببي..؟ وكيف..؟

- أجل بسببك لأنك تزوجت في سن متأخرة

- سن متأخرة..؟ لقد تزوجت وأنا في الثلاثين.. هل هي سن متأخرة على الإنجاب..؟

- أجل وما أدراك أنت..؟ ثم إنك أنجبت وأنت على مشارف الثلاثة والثلاثين عاماً.

- حسنا أنت الطبيب وكنت تدرك جيداً حين تقدمت لخطبتي أنني في الثلاثين من العمر وتعلم مخاطر الإنجاب، ومع ذلك أصررت على هذا الزواج، فلماذا أقدمت عليه إذن..؟

- غبية.. لم تفهمي ولن تفهمي أبداً.

تركها وأدار ظهره ونام، و بينما بقيت هي تحدق من خلال دموعها إلى وجه طفلتها المبتسمة ببلاهة محببة وببراءة طاهرة..

حملتها وضمتها إلى صدرها بحنان باكٍ.. ومضت بها إلى غرفة الجلوس تحاورها في ذاتها أو تحاور ذاتها فيها..

– ابنتـــي.. يصفــك بالمعاقـــة.. وأية إعاقة أشـــد من إعاقـــة الروح والنفس..؟

لا تقلقي يا حبيبتي فأنا إلى جانبك ما حييت، وأجدك أجمل ما وهبني الله إياه وأثمن ما في الوجود..

فكرت قليلاً ثم قالت في نفســـها: لعل الله قد منحني (هبة) كي أدرك حجم الإعاقة التي منيت بها حين تزوجت من فريد.

مرت الســـنون.. متشـــابهة بالإهمال والإجحاف.. كانت عبارة عن صور متكررة لأحزان مستمرة ولليال طويلة باردة.. مملة، يجتمع فيها الغضب والحب المفقود والبوح والعتاب الأخرس..

كان فريـــد خلالها مشـــغولاً بتحقيق ذاته متناســـياً وجود زوجة إلى جانبه ترغب بصدق أن تسهم معه في نجاحاته، إلا أنه كان يمعن دائماً في تقزيمها ويباهي هو بعملقته..

كان يتعمد إهمالها.. ويتفنن بالإمعان في طعن أنوثتها وتجاهل مؤلم لرغباتها، بل كان يجد لذة في الســـخرية من كل محاولة رقيقة للتقرب منه والتودد إليه.

كثيراً ما كانت تحدق في المرآة تتساءل:

– هـــل أنـــا دميمة إلى هـــذا الحد..؟ ولكـــن وماذا عـــن كل نظرات الإعجاب التي تحيط بي.؟ بدأت أفقد القدرة على التصديق.. بدأت أشك فـــي كل عبارة إعجاب أو مجاملة لطيفة تقال لي حتى من أقرب الناس وبـــدأت لا أصدقهـــم.. فلا بد أنني دميمة ومقرفة إلـــى الحد الذي يجعل زوجي بعيداً هكذا.. في الضفة الأخرى من الشـــوق.. الشـــوق..! كلمة غريبة في مفردات ذلك الرجل الذي هو زوجي.

أخذت تهمل نفسها بشكل واضح متجاهلة كل رسائل الإعجاب التي كانت ترسلها عيون كل الرجال الذين كانت تقابلهم أثناء سهراتها وخروجها مع فريد.. أو كل ارتجافة يد كانت تشعر بها لدى مصافحتهم لها.. راحت تتجاهل في الحقيقة ما يرضي غرور أية امرأة وبدت مقتنعة بأنها امرأة كريهة.. منفّرة، فما شأنها بإعجاب كل الرجال من حولها وزوجها ورَجلها الأوحد لا يجدها جميلة فاتنة.

أصبحت لياليها قناديل انتظار تشعلها عبثاً.. وشبابها كان أشبه بنبتة وضعت في مزهرية مثقوبة حتى زحف الذبول إليها رويداً.. رويداً.

راحت من فرط احتياجها لكلمة طيبة أو من شدة افتقادها لعاطفة رقيقة تشبع فيها حاجاتها الوجدانية والعاطفية تتمتم في كل ليلة قبل أن تنام قصائد نزار قباني كتعويذة تقيها من شر الجليد الذي كان يستلقي إلى جوارها في الفراش متمثلاً في هيئة رجل..!!

وعندما كانت تحدق في وجهه العابس حتى في أثناء نومه تنعي نفسها بأنها أرملة لرجل لم تعرفه بعد.!

أخذت مراراً تحدث نفسها:

– لِمَ أشعر أنا بكل هذا الإحباط والألم والمهانة..؟ لماذا أثور وفي داخلي كل هذا القدر من الغضب والمهانة مع أنني لم أتزوج (فريد) عن حب..؟ أم هي الأنثى الغافية التي بداخلي بدأت تستيقظ؟؟ أم هي الرغبة بالاستمرار في الحياة..؟

أم الإصرار على عدم اعترافي بفشل حياتي الزوجية بدأ بالتلاشي والتراجع.؟

أهي الأنثـى التي تعتبر بأن الإهمال سـكين يطعن كبرياءها بدأت تصرخ بألم بعد أن آلمها ذلك الذبح البطيء..؟

أليسـت تلك الصرخة التي تحاول عبثاً أن تكتمها شبيهة بالأصوات المخبأة داخل كل امرأة يتركها زوجها فريسة لهواجس ووساوس تبث مهانـة الهجر والإهمال..؟ أليسـت هي بمثابة صفـارات إنذار حقيقية تعلن حرباً مدمرة على العلاقة الزوجية؟

أخذت حواراتها الداخلية تترك مسـحة مـن كآبة واضحة في نبرة صوتهـا وفي تعاطيها مع من حولها رغـم محاولتها بأن تكون طبيعية ومرحة، وكثيراً ما تناهى إلى مسـمعها همس بعض النسـوة أن سـبب ذبولهـا وشـحوبها عائد إلى ذلك المجهود الشـاق الـذي تبذله من أجل ابنتها.. وهن لا يدرين بأن (هبة) هي الهبة الحقيقية لها لاستمرارها في الحياة، فنحن بحاجة لسبب كي نعيش وليس لسبب كي نموت..!

وكانـت هبة هـي ذاك السـبب في أن تسـتمر في شـربها من نبع الحياة.

توالـت الأيام وهي مشـغولة بابنتهـا.. توليها كل اهتمـام ورعاية وحب.

كانت خلالها (يمان) أشبه بباص متحرك يقوم بنقل ابنتها من مركز العناية الصحية وبين العيـادات المختصة وبين منزلها ومنزل والدتها التـي كانت تحـاول أن تكون عوناً لابنتها بـأن تتفاعل معها في كل ما يتعلق بـ(هبة) ولكنها كانت دائماً تفشـل في إقامة الجسـور بينها وبين ابنتها بسبب طبيعتها الصلبة.

وذات يوم...

- الحمد لله..الحمد لله، شكراً لك طلال أنت حقاً رائع.

قالت هذا في سرها بعد أن ضمت رسالة طلال بامتنان إلى صدرها، تلك الرسالة التي يعلمها فيها بأنه أرسل لها شريط فيديو تستطيع من خلاله أن تتابع أفضل الطرق اللازمة لتطوير مهارات التواصل والكلام لدى هبة.

فقد كان طلال من أشد المتحمسين والمهتمين لألم (يمان) الناجم من واقع ابنتها المأساوي، وكان دائماً رغم كونه في الغربة وبعيداً عنها يراسل العديد من زملائه الأطباء في بلدان عدة ليطلعها على آخر الأبحاث أو الأدوية التي قد تساعد في تنشيط المهارات الفكرية والذهنية والحركية لدى هبة، بل وكثيراً ما يغذي فيها الأمل ويرفع لديها الروح المعنوية رغم إدراكه المسبق لحتمية الحالة المأساوية.

تألمت كثيراً حين قارنت ذلك الاهتمام الذي يبديه أخوها كأخ وكطبيب وبين لامبالاة زوجها والمفترض أنه والد هبة الطبيب المعروف..!

سارت مسرعة باتجاه منزل صديق طلال وأخذت منه شاكرة شريط الفيديو وهي تحمد الله بالتطور السريع للعلوم (التكنلوجية) والتي سمحت للإنسان أن ينعم بالمعرفة والتواصل. مدهش هذا الذي يدعى فيديو.. قالت في سرها، وكادت خطاها ترقص في طريق العودة لمجرد شعورها بأنها تستطيع الآن أن تكون أكثر فائدة لابنتها، ووعدت نفسها بأنها ستقوم بنسخ العديد منه لتقدمه إلى تلك الجمعية الخيرية التي انتسبت إليها والتي تعنى بالأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة، حيث أخذت تتلقى فيها الكثير من المحاضرات التي تسهم برفع المعاناة

التـــي تعيشـــها كل منهـــا ومن ابنتها، بل وســـاعدتها في كيفيـــة التعامل معهـــا.. وأدركت كـــم هي محظوظة بوضع هبـــة مقارنة بتلك الحالات التي كانت أحياناً تمر عليها من خلال تلك الجمعية، ثم راحت بكل حب وعطـــاء وحماس تنغمس في كل المشـــاريع والحفلات التي من خلالها أخـــذت تجمع الكثير من التبرعات حتى تمكنت الجمعية من اســـتدعاء بعض المختصين من أوروبا لإعطاء دورات خاصة عن كيفية التعامل والارتقاء بأولئك الأطفال.

كانت حياتها أشـــبه بباحة مدرســـة يركض فيهـــا أطفال ذوي وجوه متشـــابهة وابتســـامة بريئة واحدة، تتســـم بعدم المعرفة تماماً كابتسامة العميان؛ بلهاء ولكنها صادقة ومؤثرة.. ابتســـامة تثير حزن وشفقة من يرقبها.

لعلها بعطائها تســـهم في رســـم ابتسامة على وجه أم أو أب لطفل أو لطفلة مصابة كابنتها.

أخـــذت الأيام والســـنون تتوالـــى و(يمـــان) مازالت تتنشـــق الوهم أملاً..!

عاشـــت (يمان) وهي تمثل أملاً لطفلتها.. ونسيت كونها امرأة.. في حضرة أنانية زوجها.

دارت الأيام متثاقلة.. بطيئة.. تئن من الملل ومن الأحداث المتشابهة.. إلى أن جاء ذلك اليوم..............!

كان يوماً محملاً بالمفاجأة.. تماماً مثل هدايا القدر.. منعشـــاً مشـــرقاً بالأمل.. وبالفرح.

نعـم لقد أهدت (المصادفـة) تلك الأم الحزينة – يمـان – أجمل ما يمكـن أن تتخيل.. لقد أهدتها صدفة اكتشـاف ما تمتلـك ابنتها هبة من ميزة عجيبة..!

كان صبـاح يوم شـتوي بامتياز.. كان فيه إصـرار قطرات المطر على الالتصاق بالنوافذ مدهشاً وملحاً.. بل وجميلاً.

أخـذت (يمان) تسـتمع إلـى صوت المطـر وهي تشـعر بالجمال الحزين.. وبالملل..!

وحـده كان صوت ارتطام حبات المطر على النافذة وصوت تنفس ابنتها هبة جليسيها اللذين قاما بالحوار مع الملل ومعها.

تذكرت فجأة لعبة الأحجية.. ونهضت لإحضار ذلك الصندوق الذي يحـوي أكثر من قطعة كرتونية صغيـرة ملونة ومقصوصة الأطراف بأشكال ومنحنيات مختلفة تمكنها من التداخل ببعضها، كانت قد اشترته يومـاً من المكتبة التي اعتادت أن تشـتري منها الدفاتر الخاصة بكتابة الرسـائل.. تلك الدفاتر التي تحتوي على ورقات بالغة الهشاشة والرقة بألوان جميلـة.. باهتة كالزهري الباهـت.. والأزرق.. والأصفر. هي دفاتر اعتادت على شرائها لإرسال الرسائل إلى أخيها طلال وصديقتها الغالية ألما.

وتذكـرت كيف لفت انتباهها في إحـدى المرات حين زيارتها لتلك المكتبة صندوق كرتوني تصدرت على سـطحه صورة طفلة ممسـكة بعصفـور أزرق اللـون وهو يلصـق بمنقاره على شـفتيها بكل حنان. وراحـت تسـتعيد تلك اللحظـة أثنـاء ذهابها لإحضـار الصندوق من الخزانة، وتذكرت حين سألت البائع:

– ما هذا الصندوق؟

– إنه لعبة الأحجية.؟

– وما هذه اللعبة؟

– هي لعبة يسود رواجها هذه الأيام.. عبارة عن صورة قد طبعت على سطح كرتوني ومن ثم تم تقطيعها إلى أجزاء مختلفة عديدة وكل جزء قادر على الالتصاق بالجزء المناسب ليتم من بعدها تشكيل اللوحة هي نفسها المرسومة على سطح الصندوق.

– آه.. فكرة حلوة.. سأقوم بشراء ذلك الصندوق المرسوم عليه صورة الطفلة.

عادت حينها إلى البيت سعيدة وهي تتخيل نفسها قد قامت بتركيب الصورة وعلقتها على جدار غرفة هبة.

ولكنها في الحقيقة رمت بهذا الصندوق بعيداً ونسيت أمره بعدما ألهتها تفاصيل الحياة اليومية ومشاغلها عنه.

أما اليوم وهذا الصباح الماطر فقد أنعش ذاكرتها وجعلها تهب مسرعة لإحضار ذلك الصندوق العجيب.

قامت بفرد القطع الكرتونية التي تناثرت أمامها بحضور قوي يفرض ذاته.. وضحكت من نفسها وتساءلت:

– هل بإمكاني حقاً جمعها؟؟؟

بدأت بترتيب القطع لتشكيل إطار اللوحة بعد أن قامت بتوزيع كل لون على حدة، وهي تبتسم من حين لآخر لابنتها هبة التي راحت

تحدق في فضاء الغرفة بعينين تشـعرانك بأنهما في عالم آخر لا يدري ما يحدث من حوله..!

بـدأ صوت فيروز في الغرفة يصدح بالشـجو والجمـال والعذوبة عندما أدارت (يمان) شـريط التسجيل (الكاسـيت) في المسجل.. وأما الهدوء فقد كان مستمعاً يتقن الإنصات..!

بقيـت (يمـان) على هـذه الحالة لأكثر من سـاعة وهـي بالكاد قد اسـتطاعت تجميع بعض القطع.. عندما قاطعهـا عن انهماكها صوت رنيـن الهاتف.. ركضت إليه لتجيـب وكان على الطرف الآخر طلال يحادثها ليعرف منها أخبارها وابنتها.. لا، بل ليطلعها على آخر قراءاته للأبحاث والدراسات التي تعنى بحالة هبة.

بقيت لأكثر من نصف سـاعة تتحدث إليه مع أنها كانت ترجوه أن يغلـق السـماعة وأن ينهي الحوار كي لا تكلفه أجـرة المخابرة الدولية كثيراً ولكنه كان يضحك منها قائلاً:

– (يمـان).. والله العظيم أصبحت رجلاً وأعـرف تماماً متى علي أن أنهـي مخابرتـي.. دعي عنك أنت هموم أموالي وتكديسـها ههههه.. والتفتي إلى همومك المكدسة..!

– هههههه.. حسناً.. معك حق.

طال الحديث وسألها عن أحوال أمهم وأخبار البلد والأصدقاء، ولما أنهـت المكالمة وعادت إلـى الغرفة حيث تركت تلـك القطع المتناثرة تنتظر قدومهـا لتعيد ترتيبها كانت المفاجأة الكبـرى التي أبعدت عنها من بعدها اليأس من حياتها.

لقد وجدت الصورة مكتملة وإلى جانبها جلست هبة تحدق في السقف وهي تهز رأسها ويديها بانفعال كبير....!

صرخت (يمان) جزعة.. فرحة.. مدهوشة.. كانت لا تقوى على النطق من هول المفاجأة.. والفرح..

ركضت وضمت إلى صدرها ابنتها هبة تشبعها تقبيلاً ودموعاً وهي تتمتم: الحمد لله..الحمد لله.. يا الله ما أكرمك وما أروعك!

كان اكتشاف (يمان) لموهبة ابنتها في تركيب الأحجية بزمن قياسي حديثها في كل المجالس لتثبت للآخرين أن هبة إنسانة كاملة شأنها شأن الآخرين، لا بل إنها تتمتع بمزية لا يتمتع بها الآخرون.

بدأت بشراء الكثير من صناديق الأحاجي التي تمثل أحياناً لوحات بالغة التعقيد ويلزمها الكثير من المهارة وابنتها هبة تشغل وقتها بتركيبها.. وهي كالعادة تقوم بالتحديق إلى السقف وبهز رأسها ويديها بانفعال حالما تنتهي من تركيب آخر قطعة من القطع الكرتونية.

صار لهبة العديد من اللوحات.. وخطر ببال (يمان) أن تقيم معرضاً لتلك اللوحات تعرض فيه مهارة ابنتها في إحدى الصالات، وأن تدعو إليها ممن لديهم اهتمامات بذوي الحاجات الخاصة.. رغم قلتهم.. و ندرة المهتمين بهم!!

ولكن كالعادة زوجها عارضها قائلاً:

– يعني تريدين أن تقيمي معرضاً لتكشفي عن إعاقة ابنتك على الملأ أمام من هب ودب.. أليس كذلك؟

– أنت لا تفهم ولن تفهم أبداً، أنا عندما أقيم مثل هذا المعرض

فإنه سـيكون كنافذة تلقي بالضوء على الإمكانيات التي من الممكن أن يمتلكهـا من هم بمثل حالة هبة.. لا، بل أكثر من ذلك.. عندما سـيدرك الآخـرون أن الله لم يخلـق مخلوقاً بلا فائدة كما كان أكثرهم يهمس من وراء ظهري عندما ينظرون بشـفقة إلى هبة وهم يرددون: المسـكينة إنها حقاً عديمة الفائدة، لا، بل لها حمل ومسـؤوليات جسـام.. ترى لم خلق الله أمثالها؟؟

كان هذا السـؤال بالذات سـكيناً يذبح أفكاري ويعذبني.. ولكنني لم أفقـد يوماً إيماني بالله وبأنه لم يخلق أحـداً على هذه الأرض عبثاً.. بل لـكل مخلوق وجود وفائدة.. لعلنا لن نكتشـفها إلا لاحقاً.. واسـتطردت قائلة:

ـ كما أنهم حين سيطلعون على تلك المهارة التي خصّ الله بها ابنتنا سـيدركون الحكمة من كل ما يخلقه الله، ولعل هذا المعرض سيكون ذا نفع للآخرين رغم بسـاطة الفكرة (تجميـع الأحجية) إلا أنها تنبئ عن مهارة فكرية وهذا ينسف الاعتقاد السائد بعدم جدوى من هم في حالات مثل حالة هبة.

ـ افعلـي مـا تريدين.. عنيـدة كعادتـك.. وأنا بدأت أضيـق ذرعاً بمجادلاتـك التي لا تنتهي.. المهم ألا أكـون حاضراً.. وألا تدعي أحداً مـن أصدقائي إلى ذلك المعرض.. أنـا لا أريد أن تكون ابنتي معرضاً للآخرين.

ـ ابنتك؟؟ الآن صارت ابنتك؟؟ وصرت ملتصقاً باسمها؟؟

ـ نعم ابنتي..المعاقة.. للأسف..!!!!

قال هذا وخرج.

تمتمت قائلة:

– والله لا معاق في هذا المنزل إلا وحدك أنت.

مــرت الأيام.. بعد ذلك.. وهبة تســبح بين حيــن وآخر في عالمـها.. تصنع من القطع الكرتونية مركباً تبحر فيه في بحر وقتـها الميت......

(31)

- لا أنا لا أعتقد ذلك.

- ولكن هل حقاً ما تقولين؟؟

- أجل وبإصرار.

أخذت (يمان) تستمع بلا مبالاة إلى مجموعة من صديقاتها وهن يثرثرن بصوت عال وبضحكات رنانة رقيعة بعد أن كن قد تواعدن على اللقاء في إحدى المقاهي القديمة المنتشرة حول قلعة حلب وعيناها تتأملان تلك القلعة بحب كبير.. وقد أضفى الشفق حلة وردية على سطحها فبدت متلألئة ببهاء أشعة الشمس الخجولة.

راحت كل واحدة تتحدث عن زوجها وعن الحب الغامر والعواطف الجياشة التي يعبر بها كل على طريقته، مما دفعها للاسترسال في

التحديق مجدداً إلى القلعة بحزن وبعد أن أزعجتها تفاهة أحاديثهن ونكاتهن.

كانت تتوق لحديث يغذي روحها العطشى للحوار، ففاجأتها سطحية الجلسة وسخافة الحديث، فأرسلت بنظرها بعيداً وأخذت تفكر قائلة في نفسها وهي تنظر إلى قلعة حلب البهية..الشامخة:

– كتب عليّ القدر أن أكون مثل قلعة تشمخ نحو السماء.. هي تعشق الطيور والصباحات الندية.. تعشق الفجر ولون الغسق تهيم بمعانقة الغيوم ولكنها أبداً ستكون مشدودة بقوة نحو الأرض تشهد معارك كتب لها القدر أن تحياها شاءت أم أبت، وقدر لها أن تعيش صخب جدالات ومصائر لم تسعَ لها يوماً، كتب لها أن تعيش حزنها بقوة بكبرياء وأنه محظور عليها الاستسلام إلا لقدرها الذي لم يرحم عشقها للانطلاق والشموخ والحياة.

فكرت وهي تستمع لأحاديث صديقاتها عن مغامراتهن العاطفية وتذكرت كم من الرجال طلب ودها وكم حاول العديد من المعجبين أن يقتحموا أسوار عواطفها!! ولما سألتها إحدى صديقاتها عن عدد المعجبين والعاشقين أجابتها:

– ليسوا كُثر.. بالكاد كان هنالك معجب أو اثنان

كم أنت متواضعة (يمان)..؟؟!!

صاحت رفيقاتها وهن يضحكن. ابتسمت بمرارة

ثم قالت في نفسها وهي تنظر باتجاه القلعة:

كل الرجال الذين أحبوني كانوا معارك خاسرة اكتسبوا الهزيمة

عنــد حدود قلعتي، فأعلنت عليهم انتصـــاري..! كان هنالك دائماً رجل واحد كنت أنتظره ليحسم نتيجة الحرب.. رجل حقيقي.. فظلت الحرب معلنة.. باردة.. رغم اشتعالها.

فجأة قاطعها من شرودها صوت رجل دافئ وهو يمد يده مصافحاً، كان هــذا الرجل هو أخ لإحدى صديقاتها.. رســام جاء بالمصادفة إلى ذلك المقهى ليرســم قلعة حلب عند الغروب، ففاجأه وجود شــقيقته مع صديقاتها مما دعاه للاقتراب والتحية، ثم جلس وهو يضحك قائلاً:

– يا للسماء.. أأنا الذكر الوحيد هنا بين خلية نساء؟؟

ضحك الجميع باســتثناء (يمان) التي اكتفت بابتسامة باهتة عكست على وجهها الحزين إشراقة خافتة استرعت انتباه روحه الفنية فبادرها بالسؤال قائلاً:

– لم أنت صامتة؟

– في الواقع كنت أحاول أن أجد ارتباطاً بيني وبين تلك القلعة

– رائع وماذا وجدت؟

– لا شــيء.. لاشــيء مهم سوى أنني وجدت في نفسي جزءاً كبيراً ينتمي إليها.

– طبيعي أن يجد الإنســان نفســه جزءاً من كل، ولكن أن يجد نفسه جزءاً من قلعة فهذا شيء مثير للاهتمام..!

– بل المثير للاهتمام هو ذلك الذي قلته

– وماذا قلت؟؟

– أنت قلت إن الإنسان هو جزء من كل؟

– نعم

وهنا اعتدلت (يمان) في جلستها واستطردت سائلة:

– ألا تعتقد أن هنالك علاقة بين الجزء والكل شبيهة بالعلاقة بين الفرد والمجتمع؟؟ وهنا يطرح السؤال نفسه والتساؤل الذي لطالما أتعبني.

– وما هو؟

– من الأهم الجزء أم الكل؟؟ بمعنى آخر هل الفرد الذي يمثل الجزء هو الأهم أم المجتمع الذي يمثل الكل؟؟ لمن سيلقى إليه عبء تعثر السعادة أو إيجاد الحقيقة؟؟

– لم أفهم؟ أجاب الرسام باهتمام واضح.

أنصت الجميع ليستمع إلى تساؤلات (يمان) وحوارها مع ذلك الرسام.

– أقصد متى سيخرج الفرد من عباءة المجتمع؟؟ومتى سيعترف المجتمع بكينونة الفرد؟ متى سيتوقف المجتمع عن اعتبار الفرد بأنه الفاعل وأنه المفعول به بآن واحد؟ وأن ظروف الزمان أو المكان التي تحيط بالفرد إما تكون قصراً للاستجمام أو قفصاً للاتهام؟؟

هل الفرد هو المسؤول الوحيد على ما يبدو عليه المجتمع أم المجتمع هو السبب الرئيس لما يؤول إليه الفرد؟؟

هل أنت المجتمع؟؟ أم المجتمع هو أنت؟؟ بمعنى هل أنت الذي

تشكل صورة المجتمع أم أن المجتمع هو الذي يحدد ملامحك؟؟

ـ في الحقيقة أسئلتك تثير الدهشة والجدل.

بادرت إحدى صديقاتها قائلة:

ـ هكذا أنت (يمان) دائماً تمسكين بالسلم بالعرض.. وما الفرق؟

ضحك الجميع باستثناء الرسام وأردف قائلاً:

ـ في الحقيقة هي أسئلة تدعو للتأمل.

ـ صدقني أنا لا أمسك السلم بالعرض ولكنني أتطلع دائماً إلى تغيير النظرة السائدة لمجتمعنا الباهت فكرياً.

ـ وكيف يكون ذلك؟

ـ أتساءل دائماً: متى يستطيع المجتمع أن يخلع معطف الاستسلام لكل ما هو بائد ومتخلف ومتوارث، وأن يعترف بأحقية الفرد بأن يعيش حقيقة صدقه مع ذاته؟؟ ألا تعتقد معي أننا وحين نعيش حقيقة صدقنا مع ذاتنا حينها فقط نستطيع أن نعيش الصدق بصدق مع الآخرين؟؟؟

ألم يحن الوقت لكل واحد منا أن يعيش الصدق مع نفسه حتى يحدد تماماً مساراته وميوله وتطلعاته بعيداً عن إملاءات المجتمع؟؟ وأن يتحلى بشجاعة مواجهة الذات لكي يقف حقاً على عتبة مراده؟؟

لماذا تظل أفكارنا ومشاعرنا مسحوقة تحت وطأة الظروف وأحكام مجتمع جائرة أغلبها نتج عن تشوهات فكرية ومطامع شخصية دفينة وابتعاد عن الخير والعدالة ابتدعها ذات يوم قلة ذات امتيازات فأملت علينا ما أملته عبر السنين؟

– ولكن ليس كل ما نعيشه هو إملاءات مجتمع..!

– لا يا سيدي أغلب الناس – وحتى لا يتهموا بالشذوذ عن القاعدة – مجبرون على أن يسيروا وفق دروب خطها المجتمع لهم، ولذلك تجد أكثرنا مصاباً بالخيبة وبحالة من الخمول واللامبالاة والاستسلام والرتابة وتكرار الصورة، وأغلبنا ينظر للإبداع على أنه حالة محظورة إلا على أصحاب الامتيازات، والسؤال هنا: ألا يمكن أن يكون كل فرد مبدعاً على طريقته؟؟

– وكيف يكون ذلك؟؟

– بأن ننسجم مع ذاتنا حقاً وأن نبتعد عن كل الادعاءات والشعارات والحماس الذي يقارب الخداع وعدم الانصياع لقوانين سنّتها أزمنة غابرة وعقول لها منهجية لا تتناسب مع تطلعاتنا الحالية.

– والله حديثك سيدتي فتح أمامي أبواباً من الحسرة.

– نعم. هذا ببساطة لأنك تشعر بمدى صدقه وحقيقته.

– نعم ولأنني في أحيان كثيرة أشعر بنظرة المجتمع لي على أنني مخلوق مختلف التكوين طالما أن لي أفكاري الخاصة وطالما أرفض الإملاءات على حد تعبيرك.

سألتها إحداهن:

– ولكن أنت بهذا تنسفين كل العقائد والقيم المتوارثة أو حتى الالتزامات الدينية التي وجدت لتسيير المجتمعات.

– لا، على الإطلاق، أنا أطالب بالإيمان الحقيقي بتلك القيم وبتلك

التعاليـم، لا أن نتبناهـا على أنها إرث ثقافي فقط، القيم يا عزيزتي هي حاجـات حقيقية للفرد حتى يشـعر بعظمة كونه إنسـاناً، وحتى ينهض بذاته إلى أعلى المسـتويات ليرتقـي بذاته ويترفع عن أنانيته وأطماعه وبالمجتمـع الذي يمثله، ولكن وإذا ما تمعنـت جيداً بما هو يجري حقاً من حولنا ستدركين حالة التناقضات الواسعة بين القيم الروحية المثالية العليـا والتي أوجدهـا الخالق عز وجل بحكمتـه وبمعرفته الأزلية لنا، وبيـن العلاقـات الوضعية والأفكار السـائدة والظلم الجائـر بين أفراد المجتمـع القائمـة على الامتيـازات والعنف والمـادة والأنانية، والتي تظهر إما على صور قوانين وأحكام أو أعراف وتقاليد تسـيّر المجتمع تعكس رغبات أو رفض دفين في نفوس البعض.

ثم ألا تتفقون معي بأن الكثيرين يخشـون الوضوح في مشـاعرهم وأفكارهـم مخافة أن ينتقدهم الآخرون إذا كانوا ضعفاء أو أن تُكشـف أطماعهـم فيما إذا كانوا ظَلَمَةً أو جشـعين، مما يضطرهم إلى الادعاء وأن يظهـروا عكس باطنهم ورغباتهـم الحقيقية أحياناً من باب الخداع أو من باب الخوف من النقد والنبذ أو الكشـف، مما يجعلهم في النهاية يدركون مدى خسـارتهم بخسـارة أنفسـهم رغم الفـوز والنصر الذي يحققونه بإرضاء من حولهم إذا كانوا ضعفاء أو إرضاء ذاتهم إذا كانوا طغاة.

– يعنـي أنـت برأيـك أن مـن يربح استحسـان من حوله يخسـر نفسه؟؟

– لا ليـس بالضـرورة، فأحياناً كثيـرة تتطابق الرؤيـة العامة مع الرؤية الخاصة، كما أن هنالك الكثير من النصوص والشـرائع وجدت

حقاً لصالح الفرد والمجتمع معاً.. أنا كل الذي أريد أن أقوله إن على كل فرد أن يكون هو حقاً حتى نحصل على مجتمع حقيقي.

– أرجوكم تأخر الوقت وجدالك لا ينتهي (يمان)

– نعم معك حق أنا آسفة.

همّ الجميع بالمغادرة فاستوقف الرسام (يمان) قائلاً:

– سيدتي صدقيني سعدت بالحوار معك أكثر مما لو كنت قد رسمت القلعة.

ضحك الجميع مع بعض تعليقات اتهموه فيها بعدم الصدق.

في طريق العودة أحست بشيء غريب، فقد كان هنالك شعور بالراحة لأنها تحدثت عما يجول بخاطرها، وفي نفس الوقت كانت مرتعدة من مواجهة ذاتها وتساءلت: ألا تعيش هي حالة عدم الصدق مع مشاعرها وأفكارها ورغباتها في سبيل إرضاء من حولها وإرضاء المجتمع؟؟

ألم تُضَحِّي بالكثير من رغباتها وأحلامها في سبيل الآخرين؟؟ ألم تكن هي ذاتها صورة لأحلام من حولها؟؟ هل كانت في هذا المساء تفكر بصوت عالٍ وكأنها ترسل إلى ذاتها رسالة تكشف بها ضرورة أن تعيش حالة الصدق الحقيقي؟؟

لم أقحمت نفسها في جدال شائك؟؟ هل كانت تجر ذاتها إلى لحظة مواجهة؟

لم تستطع أن تجد الإجابة..

دخلت المنزل ووجدت زوجها (فريد) جالساً أمام التلفاز. ألقت التحية بهدوء ثم دخلت إلى غرفة هبة لتطمئن عليها وتأملتها طويلاً وهي نائمة ثم ابتسمت.

جلست إلى جواره في غرفة الجلوس صامتة لا تتفوه بحرف وعجبت من نفسها كيف كانت قبل دقائق تدير دفة القيادة في سفينة الحوار والآن هي تجلس صامتة لا تتفوه بحرف.. أحست بأن صمتها قسري يفرضه عليها برودة زوجها وعدم إحساسه بوجودها.

كان صمتها يحاور أثاث المنزل الصامت، فالأثاث يشبهها إلى حد بعيد؛ كلاهما يمنح الراحة للآخرين بصمت ويتلقى المعاناة والضغط أيضاً بصمت. ابتسمت لفكرتها ثم تساءلت في سرها إن كانت فعلياً بدأت تسير نحو الجنون؟ يضا بصمت ..ابتسمت لفكرتها وبدأت تخشى فعلياً أنها تسير نحو الـ...

(32)

– لابد وأن أصارحه.. لابد أن أساله عن السبب.. لقد تعبت.. تعبت.. بدأت جدياً بالانهيار.. أنا بحاجة إلى رجل حقيقي ليقف إلى جواري.

إلى متى سأبقى أشعر بأني متزوجة مع وقف التنفيذ..؟! أنا بحاجة للاحتواء.. للحنان.. لضمة رجل أشعر معه بالأمان.. لقبلة زوج يجعلني أدرك روعة كوني أنثى.. يا الله إلى متى هذا الشقاء وهذا الحرمان..؟

تابعت (يمان) حوارها مع ذاتها وهي تسير في أرجاء غرف المنزل تنتظر عودة زوجها بعد أن أنهكتها محاولاتها مع هبة طوال اليوم لمساعدتها في زيادة نموها المعرفي وارتفاع معدل مقدرتها على الاستيعاب.. أتعبها جداً عطاؤها العاطفي وصبرها ومحاولاتها المتكررة والمستميتة لتعليم هبة لغة الجسد لتكون كلغة بديلة لها بعد أن صار واضحاً استحالة نطقها بسبب ضعف السمع الشديد الذي تعاني

منه.. تنهدت (يمان) بحرقة وشعرت بمدى حاجتها للدعم المعنوي..

ولكــن أين تجده..؟ أتجده لدى أمها التي لطالما أشــعرتها بذاك الكم الهائل من الحواجز النفســية..؟ أم تبحث عنه في جلسات لثرثرة نساء؟ أم لدى زوجها الذي فاق أمها حتى شــكّل عوضاً عن الحواجز جدراناً تبدو شفافة بالنسبة للآخرين ولا وجود لها، بينما هي وفي الحقيقة التي تدركها أعماق، كل منها تزداد يوماً بعد يوم سماكة وثخانة..!

أرادت أن تحطــم تلــك الجــدران.. أن تبحــث عــن نافــذة تمنحها نســيم العاطفــة والحب، فقد خنقها ذاك الجو المشــحون دائماً بالغضب واللامبالاة.. أرادت أن تســتبدل البرود بالدفء والحنان.. تساءلت في حيرة:

- ولكــن كيف..؟ هل أخط له رســالة؟؟ ولم لا..؟ تبدو فكرة جيدة.. ســأكتب له رســالة وأضعها في جيبه وأنتظر حيــن عودته لأرى ردة فعله.. ولكن لا.. ليست فكرة جيدة، وهل أنا مراهقة حتى أخط لزوجي رســالة.. ولكن ما دخــل المراهقة هنــا..؟؟! حقاً كم هــو مؤلم أنني لا أستطيع أن أحاوره حتى بدأت ألجأ لحل بديل.. حل بديل..؟! هل علاقتنا معــاً تعاني من الإعاقة ما تعانــي حتى بدأت أيضاً أبحث عن حل بديل كما كنت أبحث لهبة عن لغة بديلة..؟؟

وفي لحظة قرار حسمت أمرها و جلست تكتب:

زوجي.. رجل حياتي

لعلها من أصعب الرسائل تلك الرسائل التي تكون بين زوجين يقيمان في نفس المنزل يباعد بينهما أقسى وأشق غربة.. غربة العواطف

لا أعرف أين أبدأ.. رغم أن في داخلي الكثير.. الكثير

فريد.. حين رضيت بأن أكون زوجتك صليت في داخلي حتى تكون فرحتـــي وأكون فرحتك.. و خامرني رجاء بأن أكون المرأة المنشـــودة حقاً لديك حينها لامسني شعور بالأمان والحنان ولكن.. لم أكن أتصور بأن تكون مصدر تعاستي.. أجل تعاستي

أنـــا ارتميت فـــي عالمك وفي دنياك.. تصورتـــك ذراعين من حنان واحتواء ولكن للأسف يبدو أنني لم ألحظ بأن ذراعيك مبتورتان ووحده صدرك القاسي الصلب هو الذي استقبلني..

أرجـــوك.. أرجوك حـــاول أن تقرأ كلماتـــي دون أن تغضب وتثور لأتفه الأسباب..

أرجـــوك حـــاول أن تعاملني ولو لمرة كصديقة عزيزة تســـتحق أن تقتطع قليلاً من وقتك لتشرح لك ما يعذبها ويؤرقها..

حاول أن تعترف لنفســـك بأني إنســـانة قادرة على أن أتواصل معك وأن أتفهمك بصورة أفضل إذا ما سمحت لذاتك بأن تزيح تلك الجدران التي تسعى أنت لبنائها بيني وبينك، معتقداً بأنك تبني بيتاً..!

لقد اخترت الورق كمســـاحة بوح أســـتطيع فيهـــا أن أصرخ بقلمي وبألمي عالياً لأشرح ما بداخلي بعد أن أبعدتني مراراً عن عالم الحوار ومنعتني من الدخول إليه بذريعة أنني لا أفقه آدابه..!

ســـنوات طويلـــة ونحن معاً نعيش كغريبين، وأنا في كل ســـنة أحلم بالقـــرب منك أكثر لأصحـــو بعدها على واقع بأنك تبتعـــد أكثر فأكثر، حاولت خلالها كثيراً بأن أنبهك.. أن ألفت انتباهك بأننا ســـنفقد بعضنا..

حاولــت أن أتجاهــل تجاهلــك لــي.. لفكــري.. لروحــي.. لعواطفي.. لجسدي..

بل تجاوزت في أحيان كثيرة عن ما هو أســوأ من الإهمال.. ولكن هل هناك حقاً أسوأ من التجاهل والإهمال؟؟

وكانت مكافأتي على ذلك مزيداً من الغضب والثورة وكانت البرودة زادي اليومي منك..

نعم، وحده الغضب كان حوارنا الأوحد والبرود طقسنا الدائم..!

تســاءلت كثيراً عن السبب.. حرت به.. هل السبب ابنتنا هبة..؟ هل السـبب قدر أراده الله؟ أم الســبب الحقيقي هو أنك لم تحبني يوماً.. ولن تحبني..؟ أم هنالك سبب آخر.. أنا حائرة.. حائرة..!!

ولكنــي مع ذلك أناشــد الإنســان الذي بداخلك.. أناشــدك في لحظة صفائك مع نفســك بأن تتخلى عن ثوب الجرّاح الذي يتقن جراحة قلبي لا ليشفيه بل ليدميه.. وأن يعترف للمبضع عن سر تلك القسوة!!!

أنــت لا بــد لديك الطاقة والعمــق والخيال لتمنح المــرأة التي تحب ســعادات ومســرات ومســتقبلاً دافئــاً، ولتربطها بكل روابــط العلاقة الإنســانية الجميلة لتجد نفسها مرتبطة بك ومتمسكة بك للأبد.. ولكن.. ولكن.. هذا للمرأة التي تحب.. وأنا ببساطة لست هي..!

أنا لا يعنيني وجودك أمامي وأنت في الحقيقة غائب عني.. لا يعنيني ابتعادك أو حضورك الجسدي وأنت تفصلك آلاف الأميال المعنوية..

كنــت أتمنى لو أنك تملك القدرة علــى مواجهة ذاتك حين تواجهني

وأن تبوح لي عن سبب ذلك الابتعاد.. أشعر بأننا سِكَّتا قطار، مع أن طريقنا واحد، إلا أننا لن نلتقي أبداً، هل أطلب الانفصال عنك؟؟ فأنا امرأة لي كبريائي وعنفواني.. لي ضعفي.. ولي أيضاً جنوني.. أنا ببساطة.. امرأة... أَمْ لعلك نسيت..؟؟!

لقد جعلتني أفقد ثقتي بنفسي.. بجمالي.. بشبابي.. بعلومي.. بمواهبي..

يوم دخلت منزلك هذبت نفسي كثيراً لأرتقي إلى أسمى المشاعر كي أحبك.. حاولت أن أكون أنا.. أنا، فلم تلحظني روحك

حاولت أن أكون ملاكاً فرفضت سماؤك ضمي واحتوائي..

حاولت أن أكون شيطاناً فرفضت دنياك استقبالي..

حاولت أن أكون لطيفة.. قاسية.. ذكية.. غبية.. جاهلة.. متعلمة.. ثرثارة.. بكماء.. حاولت أن أكون كل شيء.. وكان أصعب الأشياء أن أكون لاشيء..!!!! حاولت وحاولت ولكن يبدو أنني نسيت بأن الحب ليس محاولة..! استسلمت وقررت أن أكون زوجة.. لا حبيبة، ولكن حتى صفة زوجة كانت ممحية من مفرداتك.. فهل أنا مجرد امرأة مفروضة أم مرفوضة لديك؟؟

زوجتك أو هذا ما يفترض..!

أسبوع كامل.. ولم يتفوه بحرف يشير بأنه قد قرأ الرسالة.. أسبوع كامل وهواجس تأكل من أعصابها بشراسة وهو يتلذذ بمرآها شاحبة ومتعبة.. قلقة.. ضعيفة.. مضطربة، وكأنه ضابط راح يتلذذ بصوت الألغام التي زرعها زمناً في حقول عمرها وابتسامته كانت انعكاساً لنيران احترقت بها أعصابها..

وذات ليلـة صادف أن عاد فيها فريد مبكراً مقارنة بلياليه السـابقة وجدت فيها لنفسها فرصة كي تسأله بجرأة:

– فريد.. لم تعاملني هكذا..؟

– كيف أعاملك؟؟

– ألا تدري أيضاً؟؟ لم تعاملني بمثل هذا الجفاء والنفور..؟ ألسـت زوجتك..؟

– لا أريـد الخـوض بهذا الحديـث.. أنت امرأة لا شـغل لها.. أنت إنسـانة مترفة في كل شـيء حتى في التفكير..؟ وأنا رجل متعب لا هم لي سوى تأمين معيشتك أنت وابنتك.

– التـرف؟؟ أنـا امرأة مترفـة التفكيـر..؟ أنا ببسـاطة أفكر بأنني زوجة.. زوجتك..ز.. و.. ج.. ت.. ك ... ألا تدرك معنى هذه الكلمة..؟ أنـا لي حقوق عليك وأنا لسـت متعبة فقط، بـل منهكة من كل ما يتعلق بحياتي معك

– هه..؟ وماذا ينقصك..؟ وما الذي يتعبك؟؟

– بـل عليـك أن تسـألني وما الـذي لا ينقصنـي..؟و مـا الذي لا يتعبني..؟

– تضحكينـي حقـاً فأنـت تأكليـن وتشـربين من أطيـب المآكل والمشـارب، وترتدين أجمل الثيـاب، وكيف لا وأنت زوجة رجل مهم فهو من أشهر الأطباء في حلب ولا شغل لك إلا العناية بتلك التي تجلس في الغرفة المجاورة لا تفقه شيئاً مما يدور هنا.

ـ يــا الله..! فــي كل مرة تتحدث فيها تكشــف لــي عن وجه غريب لمفهومك للحياة الزوجية وعن كونك أباً عجيباً يهزأ من مصاب ابنته، والمفترض أن يكون بمثابة مصابه هو شخصياً.. ثم حقاً هل تظن أن ما ينقصني هو المأكل والملبس..؟ بربك اعترف.. أهذا الذي ينقصني..؟

ـ حســناً ومــاذا عــن الــذي ينقصنــي..؟ ألم تتســاءلي يومــاً عما ينقصني..

ـ حسناً أرجوك قل لي بربك ما بك..؟ ما الذي ينقصك..؟

ـ ينقصني أن تتساءلي باهتمام عن أحلامي وطموحاتي.. ينقصني أن تشعريني بأني حبيبك وزوجك

ـ يــا الله كيــف لديك المقدرة على قلــب الأدوار وكيف بإمكانك أن تجعــل من إصبــع الاتهام الموجه إليك من الضحية التي أمامك ســكيناً تطعــن بها ذاتها؟؟ فتصبح أنت المجني عليه وأنا الجانية.. كيف.. فريد وأنا في كل الســنين الســابقة كنت أحاول باســتماتة أن أكون أكثر قرباً منــك وكنت أنت في كل مرة تــقصيني وتبعدني عنك وكنت تشــعرني بأني لســت زوجتك..؟؟ حتى آمنت بأن لا مجال للتفاهم والتقارب ومع ذلك لم أفقد الأمل وأعطيتك ونفسي الكثير من الفرص ولكن كلها كانت سراباً.. ألم تقرأ بربك رسالتي..؟

ـ قرأتهــا جيــداً، وما هذا الكلام؟؟ وأنا لا أوافــق على ما جاء فيها فأنت طبعاً أنت زوجتي وحبيبتي

ـ إذن أنــا زوجتك.. حقاً؟؟ وحبيبتــك أيضاً..؟؟ أية مفردات غريبة عنك؟

– بالطبع ولكنك لسنين طويلة لم تدركي ما الذي أريده فعلاً منك وأنا ما زلت أنتظر.

– تنتظر ماذا؟؟

جلس إلى جوارها وطوقها بذراعه ثم أخذ يلاطفها معتذراً عن سوء معاملته بسبب ضغط العمل وبسبب الديون المتراكمة عليه بسبب محاولته المستميتة لتحقيق حلمه الوحيد ألا وهو إنشاء مستشفى خاص به يحمل اسمه.

– ولكن ما علاقة العمل بعلاقتنا معاً..؟

– له كل العلاقة يا عزيزتي.. فأنا أشعر بأنك لا تساندينني

– وكيف أساندك؟؟

– بسيطة..اطلبي من والدتك حصتك من ميراث أبيك فآخذه أنا لأنشئ به حلمي الأكبر

– هل جننت؟؟ أطلب من والدتي أن تشتت مال العائلة من أجل مستشفاك الخاص؟

– أرأيت؟؟ أنت لا تفكرين إلا بنفسك وبعائلتك، لا يهمّك زوجك ولا أحلامه

– ولكن يا فريد نحن لم يعد لدينا ذلك الميراث المهم، فقد باعت والدتي معظم الأراضي بعد إهمال الفلاحين لها وعدم انصياعهم لأوامري.. وأيضاً كي تستطيع أن تكمل دراسة أخي طلال وأن تدفع تكاليف زواجي أنا وأختي

ـ يعني أفهم من كلامك أن وهمي بالملايين كان كبيراً بحجم خيبتي الآن.

ـ أية ملايين تتحدث عنها.؟

ـ يعني أنت واثقة حقاً بأنه لا يوجد ما تستطيعين أن تطالبي به أهلك..؟

ـ بالطبع فريد.

ـ وماذا عن تلك الفيلا الضخمة التي تعيش فيها والدتك العجوز وحيدة بعد زواجك أنت وهالة.؟؟ لا تقولي لي إنه ليس لك حصة منها..؟

ـ أتريدني أن أطالب بحصتي فيها؟ حقاً لا أصدق ما أسمع، وعلى كل لا يمكنني هذا لأن أمي قد سـّجلتها باسم أخي طلال من أجل أن يجعلها مستقبلاً.. مستشفى له يحمل اسمٍ والدي.

ـ يعني هو الذي سيحقق حلمه وأنا لن أحقق إلا الخيبة؟؟ ابتعدي عني.. أنت حقاً أكبر خسارة وأسوأ صفقة.. لعن الله حظي العاثر.. ضاعت مني سنوات طويلة وأنا أنتظر بدون فائدة!

قال هذا ودفع رأسها بعيداً عن صدره الذي كان قبل دقائق قليلة يمثل ساحة حب، فانقلب إلى ساحة حرب بعد انهيار أطماعه.

تركها محملة بالدمار النفسي والتشوه المعنوي بعد أن ألقى قنبلة أطماعه بكل وقاحة لتكشف حقيقة زواجه بوضوح.

كان الطمع الفاضح سبباً إضافياً لشقائها.. لم تعد تعرف كيف تهرب

من ألمها.. وأضحت الخيبة رائحة تمتزج برائحة الموت.. موت زواجها في تلك اللحظة.! وفجأة صار منزلها أشبه بضريح تتنقل فيه..

وبدت لها سنوات حياتها الزوجية سراديب مغلقة، مفاتيحها صدئة، وأنها حين ولجت إليها كانت قد دخلت في الحقيقة سجناً لا عدالة فيه، فقد حُكم عليها فيه بالإعدام مرتين..!

فكرت.. ما أصعب أن تموت مرتين..! مرة حين قررت الزواج به ومرة حين قررت البقاء معه من أجل ابنتها.

(33)

حاولــت (يمان) أن تعيش حياة طبيعية وأن تتناســى بإصرار مؤلم أحياناً فشــل الحياة الزوجية التي تعيشــها مع فريــد، وأن تمارس دور الزوجة التي تنتظر عودة زوجها رغم غيابه الفيزيائي والمعنوي..

مرت ليال طويلة خلال ســنين عديدة.. خمسة عشر عاماً مرت بعد ولادة هبة وهي مازالت تجلس إلى الشــرفة حتى الفجر، تنتظر عودته من سهراته المتكررة محملاً بعطر الخيانة..!

ما أصعب الانتظار..! أتراها كانت تنتظره حقاً أم تنتظر وهمها؟

مــا أقســى أن تتوهم امــرأة أنهــا تنتظر رجــلاً تحلم بــأن يمنحها عطره.. رائحته.. وجوده.. حنانه.. فيمنحها عوضاً عن ذلك لامبالاته.. وبرودته.. والأقســى من ذلــك يهديها رائحة امرأة أخرى تســللت من مسامه معلنة مؤامرة الخيانة..!

ما أصعب أن تتحول المرأة لعقارب ساعة جامدة تسير بربيع العمر إلــى خريــف الانتظار وصقيع الجفاء.. بل ما أقســى أن تصحو المرأة على اعتياد سهر الليالي في عينيها وهي تنتظر الـ (لا قادم) وأن تتحول فصول حياتها إلى فصل واحد هو فصل الصقيع..!

كانت كثيراً ما تشعر في ليل انتظارها بالحنين لأولئك الذين أحبتهم ورحلوا عنها جميعاً ســواء بالموت أو بالفــراق.. وما الفرق.. فالموت هــو الفراق المؤجل إلى موعد مع القــدر، والفراق هو الموت المنتظر لموعــد مع القدر، وما بين المؤجـل والمنتظر يتأرجح عذابنا.. أو يولد حنيننا العذب والســامي والقاســي.. ذلك المولود الــذي يدعى بالحنين يجعلنا نتعلق بدهشــة بالحضور القوي لذلك (الغائب عنا)، وأن نعيش بصدق حقيقة غياب ذلك (الحاضر معنا)..

راحت تتذكر جابر.. (يزن) وتساءلت:

الحب والكذب..؟ هل يجتمع الحب مع الكذب..؟

جابــر الرجل الذي أحبهــا بصدق فقدمت له كذب مشــاعرها حين أوهمتــه بعدم حبها له رغــم صدق حبها، فمنحهــا احترامه لرغبتها و هروبــه بعيداً عنهــا.. و(يزن) ذلك الــذي أحب بأن يتقــن لعبة الكذب فمنحته صدق المشاعر، فمنحها أنانيته ورحيله ليتزوج الفرصة الذهبية المتمثلة بابنة عمه؟؟

فكّرت بألم لِمَ يخطر ببالها زوجها فريد مع أنها تجلس على الشرفة تنتظر قدومه مع كل صوت أو نور لسيارة قادمة من بعيد.؟؟

ابتســمت بمرارة قائلة في نفســها: مع حديث الحب لا مكان لفريد..

ففريد مجبول على حب الذات وهو لن يعرف أبداً الحب الصادق ولا حتى الحب الواهم.

أعادها صوت هبة إلى الواقع فهرعت مسرعة لتلبي طلبها ناسية (انتظارها) وحيداً جالساً على الشرفة..!!

نامت هبة بعد أن أخذت جرعتها من الحنان المتمثل بحضن أمها الدافئ.. أودعتها (يمان) في السرير كمن يودع كنزاً ثميناً.. فسنوات هبة باتت معدودة بعد التدهور السريع لصحتها وبعد التراجع الكبير لمدركاتها، وبدا واضحاً بأن العمر سيخذلها وأنه سيأخذ بذلك من أمها السبب الوحيد الذي يجعلها تتعلق بالحياة.

سارت الأم المسكينة في المنزل حائرة ماذا تفعل..؟ وتساءلت هل سأبقى وحيدة.. ما فائدة حياتي بعد هبة؟؟ بل ما معنى الحياة بدونها؟؟

حاولت أن تبعد عنها الوساوس والهواجس بأن فوضت أمرها إلى الله، ثم راحت تتأمل كتبها المحدقة بها من خلال زجاج المكتبة.. شعرت لوهلة أن أيامها الماضية وكتبها زوار أو أصدقاء حملوا لهفة الحنين إليها وحرارة السؤال عن أحوالها، ثم أخذت ورقة وقلماً وجلست تكتب..:

الليلة.. عدت ثانية لأيامي الماضية.. لأيامي السامية ورحت أتساءل:

أين أنا في متاهة الزمن..؟؟ ومع من..؟

أشعر بكل ما حولي غريباً، أحسه مزيفاً قاسياً ملعوناً.. وأنا التي كنت لا أعرف الزيف أصبحت لا أملك نفسي ولا جسدي ولا عمري..

بدأت أمارس الزيف في كل شـــيء.. في ضحكاتي.. في أحاديثي.. في مشـــاعري.. في غضبي.. في استسـلامي.. وحدها ابنتـي هي الحقيقة القاسـية.. لم أعد أملك لنفســي حتى حق الأمنيـة بالموت لأنني بت لا أملك إلا خيار الحياة من أجل هبة ابنتي الحبيبة.. ولكن الحياة من حولي هي ليســت حياتي.. وأنــا بدأت أفقد ملامحي.. لم أعد أعرف نفســي.. حتى تعابير وجهي بدأت تأخذ شكلاً مغايراً أو سمة مختلفة.

يبدو أنني نســيت كل شـــيء عن نفســي.. نسـيت كيف ألملم أشلاء روحي المبعثرة بين الواجب وإنكار الذات.. بدأت أعيش لحظات البعد عن ذاتي المنسية...!

أين أنا؟؟ ومن أنا..؟ ولماذا أنا..؟

بت أكره نفســي بعدما كنت أعشـقها وأحترمهــا.. كنت أحترم تلك الكائنــة المعطاءة القابعة فــي داخلي.. كنت أحتــرم روحي الطاهرة.. أحتــرم مشــاعري.. وطريقــة تفكيري.. أمــا اليوم فأنا أعتــرف بأنني وبعدمــا تخليت عن ذاتي في ســبيل أن أضحي من أجل ســعادة أختي التـــي لم تكلف خاطرها بالســؤال عن حالي وعما آلــت إليه حياتي من شقاء وتعاسة.. أختي التي حلقت في سماء الحب والسعادة على جناحي تضحيتـــي أنا.. أختي تلــك التي لم تهتم إلا بذاتهــا وبأطفالها الأصحاء وبحياتهــا التي يلفها الحــب والرغبة والوفاء تجاهلتني وســارت على درب عطائــي مزهوة بحياتها الســعيدة، وكانت مــن الأنانية بحيث لم تفكر ولا لحظة بمدى تضحيتي أنا حين قبلت بأول رجل طلب يدي من أجل أن تستطيع هي الزواج بمن تحب.. يا لتعاستي!! أشعر في داخلي ثــورة كبيرة.. بركاناً ضخماً تســتعر بداخله الحمم.. أخشــى أن ينفجر فيدمرني ويدمر ما حولي..

يا إلهي أنا في غربة عن نفســي.. أشــعر بأنــي محاصرة.. مكبلة.. مكبوتة.. أنا قنبلة على وشك الانفجار.

ولأنني أضعت ذاتــي.. تهت عن روحي وتاهت روحي عن دنياي التــي أريد.. ولأنني رضيت لنفســي أن أتزوج إنســاناً لمجرد إرضاء أختــي فأنا أدفع اليوم الثمن.. أعيش أكذوبــة الزواج الناجح.. آه كم هو مؤلم أن أكون امرأة صادقة وعلي أن أحيا وراء الأقنعة.. كيف؟؟ كيف يمكنني الاستمرار بأن أعيش خديعة الزواج السعيد.. أشعر بأني أساق إلى مذبحي.. يارب.. انجدني.. يارب كل ما مررت به كان وهماً وظلاً لأحلام غيري، إلا هبة ابنتي الغالية.. هي واقعي وحقيقتي.

(يمان).. لا شاطئ ينتظرك.. فالشواطئ تعشق البحار تلتصق بها.. وأنت اخترت اللا إبحار...!!

(34)

بعد أن عادت من العيادة المتخصصة لتأهيل الأطفال المعاقين حيث بـدأت تتعرف من خلالها على أنجع الوسـائل للتواصل مع ابنتها التي لا تنفك تبدو ساهمة وفي عالم آخر.. ولأن الوسيلة الوحيدة لتواصلهما معاً كانت هي تلك التيارات من لغة الحب الجارف بين عينيهما.. كانت عيناهمـا لغة حوار وتواصل رغم الأبجديـة المفقودة.. مجرد نظرات هي كفيلة لقراءة كل احتياجات ابنتها الوحيدة.. كانت المسـكينة تغص بدمـوع الحرقة ألماً علـى مصير طفلتهـا، وأرادت أن تفضي بحزنها وألمها وأن تبث شكواها لأمها علّها تحظى بقليل من حنان مسلوب منذ أمد بعيد عنها.

– أهلاً بابنتي (يمان)

– أهلاً ليلى.. تبدين متعبة؟؟

– هرمت يا ابنتي.. هرمت والألم يأكل من مفاصلي.

– عافاك الله ولكن أين أمي..؟

– إنها في غرفتها.. لم أرها هذا الصباح

– ألم تشرب قهوتها..؟

– لا أدري فقد كنت في السوق أجلب حاجيات المنزل وقد عدت للتو.

– حسناً.. اعتن بهبة وسأذهب لمناداتها، وجهزي أثناء ذلك القهوة.

– حسناً.. تعالي.. يا هبة.. تعالي يا حبيبتي.. لا تخافي مني.

سارت (يمان) في ممرات المنزل وهي تقرأ ذكريات طفولتها على جدرانه وتسمع صخب وضجيج أصوات إخوتها تتلاحق عبر غرفه المتعددة..ابتسمت بحزن.. توقفت قليلاً أمام باب غرفتها.. أرادت وُلُوجَهَا ولكنها امتنعت.. لم تدر ما السبب!! اكتفت بتنهيدة عميقة وواصلت السير نحو غرفة أمها.. هالها ما رأت.. كانت فريال ممدة على الفراش بلا حركة وأطرافها باردة والزرقة تعلو وجهها.

أمسكت فوراً بسماعة الهاتف واتصلت بفريد بأصابع مرتجفة

– ألو.. فريد أرجوك احضر بسرعة ماما مريضة جداً.. لا أدري ما بها.. الزرقة تعلو وجهها.

– لا أستطيع الحضور فلدي الكثير من المرضى في العيادة

– ولكن.. هل أنت جاد..؟

ـ نعم ولكن سأرسل لك أحد الأطباء المتدربين لدي ليعاينها، وإذا لزم الأمر ينقلها إلى المستشفى.

ـ لا.. لا داعي.. سأدبر أمري.. شكراً لاهتمامك..انتبه أنت لمرضاك وخذ وقتك كله بعيداً عن كل ما يمكن أن تقدمه لي.

ـ حسناً.

أغلق سماعة الهاتف ثم التفت إلى مريضته أو زائرته الحسناء وهو يشعل سيجارة معتذراً عن انشغاله عن الحديث الشائق معها بسبب مكالمة من إحدى العجائز اللجوجات الملحات التي لطالما أزعجته بأوهامها وأمراضها المستعصية.. ثم مد يده يتلمس وجنتها قائلاً لها:

ـ وهل باستطاعتي أن أغادر الربيع لألحق بالصقيع..؟ أمجنون أنا..؟

أما المسكينة (يمان) فقد كانت غير مصدقة موقفه الدنيء ولكنها انشغلت عنه بالإسراع في طلب سيارة الإسعاف بعدما أحست بالخطر الحقيقي يداهم لحظات أمها.

فتحت فريال عينيها بصعوبة لتجد وجه ابنتها (يمان) وقد اعتلته ملامح القلق والحزن، سألتها بصوت خافت:

ـ أين أنا؟؟

ـ في المستشفى ماما حبيبتي.. تعرضت لنوبة قلبية عارضة، بإذن الله.

ـ اقتربي مني..اقتربي.. أكثر.

اقتربت (يمان) من أمها محتضنة بيديها يد أمها الباردة وسألتها:

– يدك باردة هل تشعرين بالبرد؟؟

قالت السيدة فريال بصوت واهن:

– (يمان) حبيبتي اسمعيني جيداً، أعلم أنك كنت دائماً تعتقدين بأنني لا أهتم بك وأنني كنت قاسية عليك حين طالبتك يوماً أن تكوني عوني في حمل أعباء الحياة، وأن تضحي من أجل تحقيق حلم والدك.. و..

– أمي أما زلت تذكرين..؟ مرّ على هذا وقت طويل جداً كان شعري حينها كالشمس، واليوم بات الثلج يقيم فيه.. ما الذي دفعك للتذكر؟؟.. لا داعي لأن تتعبي نفسك بالحديث عن أيام مضى عليها الكثير.

– لا دعيني أكمل..ابنتي.. قبل أن أرحل عن هذه الدنيا أريد أن أقول لك إني فخورة بك.. بصبرك.. بعطائك.. بتضحيتك في سبيل أختك هالة والذي دفعت من أجلها عمرك كله.. بتفانيك تجاه هبة المسكينة، كثيراً ما كنت أرغب أن أبدي لك هذا ولكنّ شيئاً ما كان يمنعني.. لعله إحساسي بالذنب تجاهك.. لعلها حاجتي إليك وأنانيتي وضعفي في مواجهة الحياة وحيدة بعد رحيل والدك، دفعني لأن أشعرك بأن ما تقدمينه هو واجب وليس عطاءً.. أنا..

– ماما أرجوك لا تتعبي نفسك

– (يمان) أنت وحدك من بين أبنائي كنت ظلاء لي.. رغم همومك الكثيرة المعلنة وغير المعلنة وأننا جميعاً بأنانيتنا سرقنا منك بهجتك.

أخذت (يمان) تحاول عبثاً أن تمنع دمعها من الهروب من عينيها

– ماما أنا كنت أفعل هذا لإسعادك وإسعاد كل من حولي، وهذا كان يشعرني بالاستمرار والسعادة.

– نعم حبيبتي.. ولكن.. أعلم جيداً بأنك لم تعرفي يوماً معنى السعادة

– لا ماما.. صدقيني أنا سعيدة.

أطرقت قليلاً لتعترف لذاتها بأنها ورغم شعورها بالغضب وبالثورة في أحيان كثيرة إلا أنها حين كانت تلمح الرضا على مُحَيَّا أمها سرعان ما تنسحب جحافل الغضب والحنق من ساحات ثورتها.. لكنها أبداً لم تكن سعيدة.

– حتى هذه اللحظة مصرّة أنت على العطاء.. بارك الله فيك (يمان) ورضي عنك.

أشهر قليلة مرت على وفاة الست فريال.. حدث فيها الكثير...

جاء طلال وقام ببيع منزل العائلة وتصفية أملاكها وتقسيم الإرث الذي لم يتبق منه فعلياً إلا القليل، فقد قرر أن يعود إلى فرنسا حيث تنتظره زوجته هيلدا وأولاده.. وطبعاً لم يحاول أن يحقق حلم أمه بأن يقيم مستشفى يحمل اسم والده.

وفي إحدى الأمسيات بينما كان طلال و(يمان) جالسين يشربان بهدوء كأساً من شراب السحلب الشهي الذي امتزج عبقه الممزوج برائحة القرفة المميز والذي كانت السيدة فريال تعتبره من أحب المشروبات الساخنة ولذلك والتماساً لعبق ذكرى والدتهما طلبا من ليلى تحضيره بحزن ممزوج بشوق وحنين لأمهم الراحلة..

بعدما وضع كأس السحلب على المنضدة التفت طلال وكسر سديم الصمت بأن قال:

- (يمان).. ما رأيك بالقدوم معي؟؟ أرغب جاداً أن تأتي أنت وهبة معي علّنا نجد هنالك حلاً لها.. أرغب كثيراً بمساعدتك.. فأنت أختي التي أحب.. لا بل حنانك وتفهمك كانا كفيلين بأن تكوني أماً حنوناً أحاطتني بدفئها.. وكان عطاؤك واحتواؤك حضناً دافئاً أبعد عني برد اليُتْم.

أعلم بأنني عرضت هذا الأمر عليك أكثر من مرة ولكنك وبسبب إحساسك بواجب البقاء إلى جانب ماما - رحمها الله - كان يمنعك من تركها والسفر بعيداً عنها.. كما أنني أعرف جيداً أن سفرك بالنسبة لفريد لا يشكل عائقاً بالنسبة لك أو له.. فأنا أدرك حتماً طبيعة العلاقة بينكما.. حتى لو أنك لم تبوحي لي ولا مرة بهذا.. أدرك حجم معاناتك بسبب العيش مع رجل لا يفهمك ولا يحبك، تعالي معي (يمان).. تعالي.. أرغب بشدة أن أساعدك.. أن أجعلك تتعرفين إلى عوالم أخرى علها تخرجك من مصيدة الحزن التي أوقعك فيها القدر.. دعيني أكون نافذة نور لك.

- شكراً لك طلال.. أنا أيضاً أحبك.. ولكن.. دعني أفكر.

- لا.. لم يعد هنالك وقت للتفكير.

قال هذا وندم بعدها.

نظرت إليه (يمان).. حدقت مباشرة إلى عينيه.. وتركته يقرأ رسالة مفادها.. شكراً لك أخي.. أعلم تماماً أنه لم يعد هنالك وقت..!

أطرق صامتاً وأشـاح بوجهـه بعيداً عن نظراتهـا وهو يحاول أن يداري حسرة آه!!

هالة عندما علمت بوفاة أمها جاءت تبكي عند قبرها لساعات قليلة.. وبعدها اعتـذرت من (يمان) بحجة أن عليها العودة لزوجها الذي كان ممنوعاً من الدخول إلى الأراضي السـورية بسـبب انتماءاته السياسية المشبوهة لحزب الإخوان المسلمين.

نظـرت إليها (يمـان).. أرادت أن تصرخ.. قبـل أن تذهبي أعيدي لـي مـا أخذته مني.. أعيدي لـي عمري الضائع الـذي منحتك إياه من أجل أن تعيشـي أنت سـعيدة هانئـة.. أرادت فجأة أن تتحـول إلى لَبُؤة شرسـة.. أرادت أن تصطـاد أنانيـة أختها.. أرادت أن تمـزق بأنيابها لحظة قرار غبي اتخذته من أجل أختها وسـعادتها، فأودت بحياتها إلى قاع التعاسة!

ولكنها اكتفت بابتسامة مريرة.

كانت هالة على عجلة من أمرها حتى أنها لم تكلف نفسها أن تجلس مـع هبة وقتاً كافيـاً، لا، بل إنها عندما همت بـوداع أختها ألقت بكلمة كانـت كافية لأن تتمنـى (يمان) أن ترحل هالة إلـى الأبد من أمامها.. تمامـاً كما نتمنـى أن ترحل لحظات حماقاتنا وتمحـى من الوجود إلى الأبد. فهي لن تنسى أبداً تلك الكلمات التي رمتها هالة بكل غباء قاسٍ:

ـ الله يكـون بعونك يـا (يمان).. وعسـى الله أن يريحك من عذاب هبـة في القريب العاجل.. ولا تحزني حينهـا.. فهي لا أمل لها في هذه الحياة.

– طبعـاً.. رحل الجميع وتركوك هنا لــي.. لا تملكين إلا القليل من المال والكثير من الأوهام.. يا له من إرث..؟؟!!!.

قال هذا زوجها بسـخرية وتنهيدة حسرة وهو يرتدي ثيابه للخروج إلى العمل.. ثم أضاف:

– لا تنتظريني الليلة.. لأنني سأبيت عند أصدقاء لي في المزرعة، فهم سيقيمون سهرة احتفالاً بأحد أصدقائنا.

– ولكن.. هبة.. تعاني من..

صرخ بصوت عالٍ:

– هبة.. هـبة.. هـبة.. ماذا تريدينني أن أفعل..؟ لقد فعلت ما بوسعي لأجلهـا.. عليـك أن تتقبلي أمر الواقع كما تقبلتــه أنا.. لا أمل لهبة..إنها تموت ببطء وأنا بصراحة رغم أنها معاقة إلا إنها ابنتي ولا يمكنني أن أراها في حالة نزاع قد تطول أشهراً طويلة..

تعلمــي مني (يمــان).. تعلمــي أن تتقبلي المـرارة والخيبة بصدر رحب

ألا تتفقيـن معي مـع أنني تلقيت خيبتي بــك وبابنتك فأنا في أفضل حالاتــي..! انظري لي.. أنا اليوم من بين أشـهر الأطباء في حلب.. لم أهتم لشــيء.. تابعت مسـيرة حياتي وأنا بأبهى حالاتي.. وقدراتي.. لا شــيء اعتــرض طريقي في الوصــول إلى ما أطمح إليــه.. رغم أنني كنــت أعول كثيـراً على ما كان يمكن أن أحصــل عليه من دعم مادي مــن عائلتك وتفاجأت بعكس ذلك، إلا أنني كنت مع ذلك سـعيداً باسـم عائلتك الذي كان في أحيان كثيرة بوابة لكثير من الدعوات الراقية التي

ساهمت في معرفتي في المجتمع المخملي لمدينة حلب..

.. وبهذا اكتفيت وقلت في نفسي: عليك أن تتمكن أنت من الاستفادة من هذا الأمر ومن مهاراتك الطبية للانتقال إلى أفضل المستويات..

استـــخدمي ذكاءك (يمان).. وكونـي امرأة واقعيــة.. واحمدي ربك أننـــي احتملتك إلـــى الآن.. حقاً أنت امرأة ليســت من هـذا الزمن وأنا سئمت منك.

قال هذا وخرج وإيماءة من خيبة وحسرة كان يهز بها رأسه.

(35)

وقفت عند حدود القبر.. متشحة بالسواد.. كان التباين بين ثيابها السوداء ورخام القبر الأبيض مفزعاً.. تماماً كتباين الموت والحياة.

وقفت بصمت.. وحيدة إلا من حزنها..

سيل من شوق لابنتها داهمها.. مدت يدها ومسحت على الشاهدة.. لم تشعر ببرودة الحجر.. بل راحت أصابعها.. تتحرك وكأنها تتغلغل في شعر ابنتها..ابتسمت.. راحت تردد أغنية النوم.. أم تراها تردد لحن المهد؟؟

دمعة سارعت في الهطول فاهتز معها غصن زهرة من أزهار ال (سوسن) التي اكتست سطح القبر.. كانت لحظة أسطورية الحزن باذخة الألم.. حين قامت (يمان) بزرع أزهار السوسن على قبر ابنتها.. كانت

تلك الزهرة عشـق ابنتها.. تحبها كثيراً.. فقد كانت نظراتها لتلك الزهرة تشبه إلى حد بعيد تلك النظرة التي كانت تنظر فيها إلى أمها.. وهنا فهمت كم كانت تعني تلك الزهرة لابنتها ولهذا قررت بعد موتها أن تجعل منها وشاحاً يزين قبر هبة بعد أن زرعتها بكثافة على القبر وحوله..

كان القبر كسرير ذكرى موحش.. قاس.. حقيقي

وهبة مستلقية.. نائمة عليه.. مستيقظة في أحداق أمها..

أحست (يمان) بأن مساحة من حياة تفصلها عن موت ابنتها

تساءلت.. لماذا تضيق الحياة هكذا بجسدها؟؟

راحت تردد (هبة... هبة.. هبة)

لن تعرفي يا حبيبتي كم اختزنت نورك في قلبي المعتم.. لن تعرفي كـم ناضلت من أجلك.. من أجل أن تركضي في سـهول الحياة.. ولكن القـدر اختار لك رخاماً أبيـض يضمك.. بعد أن ضمك عالمك المتوحد وبعدما عشت في هدبي دمعة يأس..!

هل ألومك لأنك لم تستطيعي أن تكوني امتدادي؟؟

كانت حياتك امتداد أنفاسـي.. ومسـاحة ظلي ونـوري.. وأين أنت الآن؟

أمامي هنا.....؟؟!! أمامي في حيز مكاني ضيق يتقن التفنن بألمي..!

أم أنك لسـت أمامي.. بل في مسـاحات شاسـعة لا أستطيع اللحاق بك.. يا لقسوتك.. أيها الموت!!

كيف تتحكم هكذا في أعماقنا بالزمان والمكان..؟؟؟!!

شاسـعة ومخيفة ومجهولة عوالمك ونحن أمام فجيعة لغز مسـاحة ليس أكثر من مترين تتسع لكل حياتنا، تلك التي كانت ذات زمن مسيرة سنين طويلة اعتقدنا أننا حقاً عشناها؟؟

أية سخرية؟؟؟

هل الحياة فصل من فصول الموت؟؟؟؟؟؟

كـم تمنيت أن أهزمـك.. أن أصارعـك.. كم كنت أنانيـاً.. ظالماً.. نهماً وجشـعاً.. اقْتَـتُّ على مائدة حياتي من أجسـاد أحبتي.. كم تمنيت أن أعلـن الحـرب عليك! ولكن هل بإمكان أحـد أن يعلن الحرب على الموت.......؟

راحت (يمان) كعادتها كل أسبوع تتحدث إلى ابنتها وإلى ذاتها

حتى تتعب لتعود أدراجها إلى منزلها.

وفـي طريق العودة كانـت تتذكر كم عانت تلك المسـكينة هبة في سـنتها الأخيرة، وأن الأطباء كانوا يرددون بدهشـة عن سـر بقاء هبة على قيد الحياة حتى سـن الثامنة عشـرة.. مرة أخرى..الثامنة عشرة.. يا لسخرية القدر.

لم يعرفوا أبداً أن حرص (يمان) على حياة ابنتها كان أكبر من سر الحياة ذاتها... ولكن.............................!!

– نعم.. هـذا قراري.. لم يعد هنالك ما يربطني بك.. أريد الطلاق.. هبـة كانت الحبل السـري الذي يربطني بك.. موتهـا اليوم صار حبل

خلاصي منك.. أريد أن أولد من جديد..إعلان موت هبة وطلاقي منك بمثابة إعلان حياة لي أو ولادة جديدة.

كان دائمـــاً في داخلي تناقضات تعذبني وتحييني في آن واحد، كان هنالـــك حكمة جنـــون تريد أن تعبر بي جداراً نحـــو الحرية، ولكن كان هنالـــك دائماً عقل متربص كجندي حَـــذِرٍ تلقى أوامر باغتيال صيحات الصحو والرغبة بالتحرر منك.. كانت هبة هي ذلك الجندي الذي وقف مسلحاً في وجه رغبتي بالانفصال عنك..

ولكن اليوم موت هبة كان بالنسبة لي رصاصة الرحمة التي أطلقها تماماً في قلبي لتعلن

ولادتي..............................!

ـ هههههه ..... ولادتك؟؟؟ ولادة جديدة..؟؟؟ انظري إلى نفسك لم تعودي كالسابق.. أنت اليوم أنقاض امرأة..! أنا حقاً أرثي لك.

ـ لا، لست أنقاضاً.. بل رماد امرأة.. أجل أنا رماد.. رماد.. احترقت يومـــاً بنار أنانيتـــك وتجاهلك.. وكنت على طاولـــة أيامنا تدخن عمري لفافة تبغ وأنا أرقب احتراقي رماداً يتساقط بلا مبالاة في منفضة لهفتك المكسورة، ولكني اليوم مصرّة أن أجمع رمادي الذي نثرته أنت خلال حياتي معك في عالمك القاســـي الخالي مـــن الحنان والاحتواء والفهم.. لأنني ســـأنهض من جديد وســـأحلق كعنقاء أســـطورية بعيدة عن ليلك المظلم.. سأحلق في سماء وجودي..

أريد الطلاق..الطلاق.. لأن سماء أخرى تنتظرني.........!

(36)

مرت سنون.. وشجرة كباد قد اشتد وغلظ جذعها.. وتفرعت أغصانها.. راحت تنوء بحمل ثمار بدت كأقمار صفراء.. كانت مزروعة في ساحة أمام بيت زجاجي يغص بالنباتات والأزهار.. تلك الشجرة كانت تمثل لـ(يمان) تاريخاً من حزن.. فقد زرعتها في نفس السنة التي فقدت فيها (هبة).

ذات يوم بينما كانت منهمكة بقلب أصيص الزرع بيديها الموهنتين سمعت صوتاً أنثوياً لطيفاً يلقي عليها تحية الصباح، التفتت لترى صبية حلوة تتألق بابتسامة صافية تشبه ابتسامة الصباح.

– صباح الخير سيدتي

– صباح النور، آسفة لم أسمع صوت الباب حين دخلت.

ـ لا عليك، في الحقيقة معك حق أن تسترعي كل هذه الزهور اهتمامك فهي جميلة حقاً.

ـ نعم.. جميلة وهي الآن كل ما لدي وكل عالمي.

صمتت (يمان) للحظة ثم تابعت قائلة:

ـ بماذا أستطيع أن أخدمك يا ابنتي؟

ـ في الحقيقة أرغب بنبتة مميزة أنوي أن أهديها لخطيبي.

ـ آه أنت مخطوبة إذن؟

ـ أجل

ـ وما هي المناسبة التي تودين بسببها تقديم النبتة؟؟

ـ لا توجد أية مناسبة، ولكنني أرغب بالتودد إليه، ولذلك قلت في نفسي سأقدم إليه نبتة ليضعها في غرفة مكتبه.

ـ رائع... هل تحبينه؟؟

سألت (يمان) سؤالها بينما كانت تشير بيدها إلى عدة أنواع من النباتات المزروعة بأحجام وأشكال مختلفة، ثم استطردت معتذرة قائلة:

ـ اعذري فضول امرأة عجوز يا ابنتي ترغب بالثرثرة.

ـ لا.. لا عليك.. في الواقع أنا لا أحبه.

ثم ابتسمت بحزن وأضافت قائلة:

– لعلي يوماً ما بعد الزواج سأحبه.. هكذا قالت لي والدتي.

– ولكن لم تتزوجيه إذن..؟

– ولكن يا سيدتي الزواج ليس دائماً قائماً على الحب، أليس كذلك؟

– صحيح، في معظم الحالات يكون هذا في مجتمعاتنا، أنت محقة.

– المهم أن نكون متفقين

– نعم، ولكن هل تسمحين لي بسؤال؟

– تفضلي

– لم التسرع وأنت ما زلت يافعة وقد تصادفين يوماً ما حب حياتك؟

– أعلم هذا، وفي الحقيقة كنت كثيراً ما أحلم بفتى الأحلام ولكن ظروف أهلي المادية الصعبة دفعتني بالقبول بذلك الرجل التاجر الثري الذي وعد بمساعدة أخي وبتأمين فيزا السفر له إلى الخليج كي يعمل هناك، هذا بالإضافة إلى شرائه منزلاً لنا أخرجنا فيه من مصيدة الإيجار، هو صحيح يكبرني سناً ومتزوج، ولكن بما سيقدمه سأكون ذات نفع لأهلي.. مع أنني حزينة لأنه طلب مني ألا أكمل دراستي الجامعية.

ولكن... أنا حقاً مستغربة.. لِمَ أبوح لك بكل هذه الأمور؟؟

وبدا واضحاً أن الفتاة لامت نفسها على سذاجتها وكلامها.

أمسكت (يمان) بيدها المتغضنة يد الفتاة وتأملت جيداً عروق يديها

واســتعادت بذاكرتها راهبتها ووجدت نفسها تردد كلماتها بذهول وهي تحدق في وجه الفتاة النضر الفتي بعد أن وجدت ملامح تلك الفتاة تتخذ شكل ملامحها هي وقالت:

– ابنتي..إنه عمرك القادم فلا تستهيني به.........

وأضافــت.. أتمنى ألا تدفعي عمرك ثمنــاً لفهم ما أقول.. أبحري يا ابنتــي.. أبحري.. لا تقفي عند شــواطئ غيرك.. لا تخشــي الإبحار... لا تقفــي عند حــدود اللا إبحار.. أبحــري في بحر أمنياتــك.. واركبي ســفينة طموحك وجَدِّفي بمجداف الأمل لتصلي.. جدفي يا ابنتي جدفي وأبحري بعيــداً.. لا تهابي الموج.. فكلما ارتفــع الموج عالياً.. أدركت أن هدفك يستحق المخاطرة والمغامرة.. وأن الحياة تكون أجمل وأبهى معنــى عندما تعرفين قيمة التحديات.. أبحري يا ابنتي.. واعلمي أن الله لا يخذل رباناً يعشــق الحياة في لــج البحر ورغم العواصف.. لأننا في إدراكنا لهذه النعمة ندرك عظمة الخالق وروعة الإيمان..

وأننا عند كل موجة كان من الممكن أن تأخذنا إلى الأســفل ينهض فينا مجدداً اسم الله ليبعث فينا من روحه ما يجعلنا نمسك بدفة المركب من جديد بصورة أقوى وأشد إصراراً على الحياة.. أبحري.. يا ابنتي.. وتعرفي إلى روح الله في سر الحياة والوجود.

نظرت إليها الفتاة بريبة وسرعان ما شعرت بالخوف فسحبت يدها من يد (يمان) قائلة:

– شــكراً ســيدتي.. لم أعد راغبة بالنبتة.. أظن.. أظن.. لا بل أعتقد بأنني سأشتري له زجاجة عطر عوضاً عن النبتة.

ثم خرجت مسـرعة وهي ترتعد تأثراً.. وخوفاً.. لا تدري ما سببه.. هل هو بسـبب ما اعتقدته جنوناً صادراً عن تلك المرأة، أم بسبب تلك الحكمة والنصيحة التي جاءت كرسالة تنبيه ساقها الله إليها عن طريق تلك العجوز الغريبة الأطوار؟

أغلقـت باب المحل على ذكرى لقائها بتلك العجوز.. (يمان).. التي جال في عينها بريق دمعة مترافق مع شبح ابتسامة بعدما تهالكت على كرسيها الذي راح يأزّ تحت وطأة ثقل جسمها.

ساد الصمت..إلا من صوت ساعة معلقة على الجدار:

تك.. تاك.. تك.. تاك

تمت بعون الله

الساعة الحادية عشرة ليلاً

من خريف 2011



دائرة الثقافة والإعلام . الشارقة
www.sdci.gov.ae